کومبارس مُتکلّم

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٣٩١٦

بطاقة فهرسة

مهران، حسين

كومبارس مُتكلِّم: رواية/ حسين مهران، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٢٥٦ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٢-١٦٣-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣,٩٠٣١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

كومـــبارس مُتكلِّـــم

روايـة

حســين مهـران

(مقدمة)

"كومبارس" كلمة ذات أصل إيطالي (كومپارسِه comparse) تُطلق في صناعة السينما والمسرح على تلك المجاميع التي تؤدي دورًا ما في خلفية المشهد الذي يقوم الممثلون بأدواره الرئيسية، وبرغم أن لتلك الكلمة في لغتها الأصلية صيغةً مُفردة (comparso/comparsa) إلا أنها تستخدم في العربية الدارجة كلفظ واحد يعني المفرد والجمع، وهنا مربط الفرس، فليس للكومبارس في الواقع مفرد، وإنما هم بطبيعتهم جمعٌ، لا معنى لوجودهم إلا في مجموعات لا يعرف الجمهور لأفرادها أسماء ولا ملامح، لا تهمُّ أحدًا أسماؤهم ولا ملامحهم لأنها لا تؤثِّر في أحداث المشهد كما تؤثر أسماء وملامح الممثلين، لكن وجودهم رغم ذلك ضروري، فلا يكتمل المشهد – بل أحيانًا يفقد المشهد مغزاه تمامًا – بدون وجودهم.

وبرغم أن لكل فرد من الكومبارس هؤلاء حياة كاملة قائمة بذاتها، وبرغم أن حياة بعضهم ربما تتقاطع وتتشابك مع حياة البعض الآخر، فإن تأثير أي

منهم كونه فردًا في أحداث المشهد شبه منعدم، فليس للكومبارس أي دور في الأحداث إلا كمجموعات، لا يأثّرون في الأحداث إلا عندما يصبحون كتلة واحدة، كل ما يمثّلونه هو عدد ما، فيزيد تأثيرهم أو يقل كلما زاد أو قلّ العدد الذي يمثلونه، وكأنهم – مجتمعين – ممثل واحد له دافع واحد، وردُّ فعل واحد، وملامح واحدة، يحرّكه ويتحكم في انفعالاته وتصرفاته عقل واحد، عقل ليس من الكومبارس.

هاتقُولّي سِينا وما سِيناشي.. ما تِدوِشْناشي..
ما سُتِّميتْ أُتُوبيس مَاشي شَـاحنِنْ أنفـار..
إيه يَعني لمّا يموتْ مِليُونْ.. أو كُلّ الكُـونْ..
العُمر أصْلًا مِشْ مضمُونْ والنّاس أعمَار..

أحمد فؤاد نجم – ١٩٦٧

(١)

سبتمبر ٢٠٠٩

لقطة بانورامية من أعلى نقطة في الملعب، تبدو المدرجات نصف ممتلئة، مكتسية غالبيتها باللون الأحمر وتلوح منها بوضوح أعلام كثيرة باستثناء مدرجات الدرجة الثالثة خلف المرمى الواقع في الجهة الشرقية التي كانت خالية تمامًا إلا من مقاعد صفراء ورمادية فارغة، وكأنها من عالم آخر لا يحفل بذلك الصخب الغالب على بقية المدرجات، بدأت كشافات إضاءة الملعب الكبيرة على قواعدها شاهقة الارتفاع المثبتة في أركان الملعب الأربعة في السطوع مضيئة المدرجات وأرضية الملعب بضوء أبيض يزداد توهُّجه بالتدريج مانحًا الظلال قتامةً أشد وجاعلًا الرؤية أكثر، وضوحًا والصورة داخل عدسة الكاميرا أسهل كشفًا لأدق التفاصيل حتى على بُعدها الشاهق عن المدرجات.

يأتي الصوت الرخيم في السماعة التي تطوّق رأس المصور القابض على الكاميرا الضخمة ذات الدقة العالية من أعلى نقطة من الملعب قائلًا بحزم:

– إقفل الكادر شوية ولف الكاميرا ناحية المدرجات اللي فيها جمهور.. مش عايز الملعب يبان فاضي.

– تمام يا أستاذ.

***

تتوافد الجماهير منذ الصباح بكثافة غير مسبوقة على الملعب الضخم الجديد المشيّد في تلك المنطقة النائية المنزوية في هدوء كما لو كانت ترتفع عن زحام وضجيج الإسكندرية التي تكاد تختنق محصورة بين حدودها التي فرضتها عليها الطبيعة، ولم يعد لها مُتنفس إلا عبر تلك الصحراء الساحلية الممتدة جهة الغرب، يقف البناء الكبير غريبًا على الطريق الأسفلتي الممتد وسط قطع الأراضي الصحراوية المزروع بعضها بالنخيل والتين، والقائم على بعضها الآخر فيلات موسمية الاستخدام مغلقة معظم السنة، وبيوت محلية يسكنها أهل المنطقة الذين يطلق عليهم سكان الإسكندرية "العرباوية"، هذه هي كينج مريوط، منتجع الطبقة الأرستقراطية القديمة، ومقصدها للاستجمام وللاستشفاء، بجوِّها الجاف من قسوة رطوبة الإسكندرية في الشتاء، وكما هو ملتبس كل شيء في هذا البلد فملعب "برج العرب" الشهير ليس في الحقيقة

في برج العرب – البلدة التي تقع عند منتهى ذلك الطريق الأسفلتي – بل في كينج مريوط، كما أن اسمه المكتوب بخط كبير بالعربية والإنجليزية على مدخله الرئيسي ليس ستاد برج العرب بل "ستاد الجيش المصري"!

لا يمكن أن تخطئ العين ذلك الوجود المكثف للشرطة، إنه يوم شديد الحساسية، فرئيس الجمهورية بنفسه في الطريق لافتتاح بطولة كأس العالم للشباب، ولافتتاح الملعب نفسه بأول مباراة رسمية تُقام عليه، إلا أنه ليس ثمة مشكلة في التأمين، فالموقع بعيد عن زحام المدينة ومكشوف، وتسهُل السيطرة عليه، لا حاجة لإغلاق طرق حيوية أو لنشر جنود مسلحين على أسطح المنازل المجاورة كما جرت العادة في المناسبات التي يحضرها الرئيس داخل المدن، سيصل الرئيس هذه المرة عبر المطار القريب الذي هو في الأصل قاعدة عسكرية، ولن يستغرق وصوله بالسيارة ربع الساعة على طريق صحراوي يسهل تأمينه، وعلى كل حال ستُغلق كل بوابات الملعب والطريق المؤدي إليه من الجهتين قبل وصول الرئيس بفترة كافية.

تستمر حشود الجماهير في التدفق عبر الطريق الأسفلتي الذي يبدأ متفرعًا من طريق القاهرة الصحراوي، غالبية القادمين هم من أهالي الإسكندرية، ومن سكان المنطقة المحليين مع بعض القادمين من العاصمة وباقي المحافظات، الكثير من التذاكر وُزّع كذلك على الأندية ومراكز الشباب

والهيئات الحكومية مجانًا، يريد الجميع المشاركة في هذه المناسبة المزدوجة، افتتاح البطولة العالمية بمباراة للمنتخب المصري الشاب، وافتتاح الملعب الكبير الذي بدا شامخًا ومتألقًا بحقٍّ، أصبح الآن الملعب الأكبر في البلاد، ولا يفوقه في القارة الأفريقية كلها إلا ملعب جوهانسبرج، حضرت عائلات بأكملها من رجال وسيدات وشباب وشابات وأطفال حاملين علم البلاد، ومرتدين اللون الأحمر، لون قميص المنتخب، لم تعتد الملاعب المصرية تلك الأجواء العائلية إلا منذ البطولة الأفريقية التي استضافتها قبل سنوات ثلاث، كان حضور المباريات في الملاعب قبل ذلك التاريخ يكاد يكون للرجال فقط فيما عدا المقصورة الرئيسية والدرجة الأولى، فقد كان تعامل الأمن عنيفًا مع الدرجات الأدنى لسبب غير معروف، فلم تشهد ملاعب البلاد سابقًا حوادث شغب تُذكر رغم احتشادها بأعداد قياسية في مناسبات ليست بالقليلة، لكن تلك كانت طريقة الأمن في معاملة الحشود بشكل عام، لدرجة الاستعانة في بعض الأحيان بفرقة شرطة الخيالة لتشارك بأحصنتها الكبيرة في كبح جماح الحشود الداخلة إلى الملاعب، ربما ساهَمَ حُضور العائلات إلى الملاعب في تخفيف وطأة تلك القسوة غير المبررة، وتحسن معاملة الأمن للجمهور، وكان لوجود العائلات في مدرجات الملاعب كذلك - بدون شك - مردود طيب في تحسين الصورة الذهنية للبلاد أمام العالم لتبدو كبلد سعيد متعايش يستمتع بالرياضة، ويمارس حياةً طبيعية، ربما لم تعكس تلك الصورة الحقيقة الكاملة، لكنها عكست على الأقل جانبًا لطيفًا من الحقيقة.

على الجانب الآخر من الملعب، في الساحة الخلفية المكتظ جزء كبير منها بالسيارات، يصطفّ في الجزء الآخر المغلق أمام سيارات الجماهير طابور طويل من شاحنات نقل الجنود التابعة لمعسكر الأمن المركزي في الإسكندرية محملةً بأعداد هائلة من المجندين في زيّهم المخصص لتلك المناسبات، وهو بدلة رياضية مُوحَّدة التصميم، لكنها ذات ألوان مختلفة، ما بين الأصفر والأحمر والأخضر يبدون من بعيد كأفراد المجاميع التي تشارك في الكرنفالات والمهرجانات الاستعراضية، في السابق لم يكن الجنود يتخلّون عن زيهم العسكري الكاكي أو المموّه حتى حين كانوا يحضرون المباريات الرياضية، ربما لم يعجب شخصًا ما في أجهزة الدولة العليا مَنظرُ المدرجات مغطاةً بالزي العسكري كما لو كانت ساحة حرب، ربما تعطي تلك الأزياء الكرنفالية الملونة انطباعًا ألطف، لا يبالي الجنود كثيرًا – على أي حال – بما يرتدونه طالما أنهم سيقضون بعض الوقت في الخارج، لا شك أن مشاهدة كرة القدم – ولو لم تكن تحبها أو تهتم بها – أفضل من البقاء في معسكر الأمن المركزي.

جلس بعض الجنود يحملقون في السماء في ملل من داخل الصناديق الحديدية الكبيرة ذات الفتحات الضيقة للشاحنات التي قَدِموا فيها، ووقف البعض الآخر بالقرب من الشاحنات يتنسم الهواء أو ينتظر الأوامر أو يُثرثر مع أقرانه بصوت منخفض، جرى تكديسهم في تلك الشاحنات الكبيرة منذ الصباح مغادرين معسكرهم إلى هذا المكان، وها هم قابعون في أماكنهم حتى

اقترب الغروب، ولم يُكلَّفوا بعد بأي عمل، الكثير منهم لا يعرف أين هو ولا لماذا جيء به إلى هذا المكان النائي ولا متى سيعود لمعسكره ليتناول وجبة ما ثم ينام.

في سيارة الشرطة الواقفة على الخطِّ الفاصل بين مواقف سيارات الجمهور والمنطقة المخصصة لسيارات الشرطة جلس الضابط ذو الجسد الممتلئ مُجفِّفًا عرقه، ممسكًا بجهاز اللاسلكي في انتظار التعليمات، أتاه صوتٌ خشن من الجانب الآخر:

– عايزين أعداد كمان يا سيادة العقيد، لسه المدرجات اللي ورا الجون نصها فاضي والريس على وصول، دخّل لنا ألفين فرد مبدئيًّا وخليني اشوف المنظر من فوق هيبقى عامل إزاي، ياريت تكتَر من اللي لابسين أصفر.

– حالًا، بس افتح لي البوابات اللي ورا الجون.

توجه ببصره ناحية الضابط الأدنى رتبةً الجالس في المقعد الخلفي في سأم وقال بدون حماسةٍ:

– زي ما سمعت.

أجاب الأخير في استياء وضجر بالغين مع الاحتفاظ بنبرة الصوت الرسمية المراعية لفارق الرتب العسكرية:

– يافندم بعد إذن سيادتك إحنا محتاجين العساكر في إيه؟ الناس اللي واقفة بره الكردون مستنية تدخل دي لو دخّلنا نصّهم هنملى الاستاد بدل ما كنا نجيب العساكر دي كلها ونعطّل مأمورياتنا ونتعطل معاهم!

استدار إليه العقيد مجيبًا في نبرة أبوية:

- أولًا إحنا بننفذ أوامر، ثانيًا انت مش فاهم حاجة، إحنا محتاجين العساكر فعلًا، ومحتاجينهم أكتر عشان فيه ناس كتير زي ما انت بتقول، طول ما فيه تجمهر لازم إحنا نكون جاهزين ويكون تحت إيدنا أعداد كبيرة.

بتردد وبنبرة متشككة وصوت منخفض أجاب الضابط الشاب:

- تجمهر؟ سعادتك تقصد ان ممكن يكون فيه شغب؟

استدار العقيد ثانية وربت على كتفه وهو يهمّ بالنزول من السيارة:

- مفيش شغب ولا حاجة، بس هي دي الإجراءات، الريس هيكون موجود وفيه ناس كتير حاضرة، عدد الأفراد بتوعنا في المدرجات هو اللي هيقضي على أي احتمال للشغب، دي حاجة اسمها إجراء وقائي.

***

من بين الجنود المتسكعين في غير اكتراث لمح أحدهم زميلًا له يعرفه شكلًا فقط كونهما ينتميان لنفس العنبر في المعسكر، سلّم عليه وسأله في ضجر:

- هما هيدخّلونا إمتى؟

ردَّ زميله بلهجة صعيدية:

- معرفش والله.

– طب هو الماتش هيبتدي الساعة كام؟

– والله يابو عمّو معرفش.

– إنت حضرت ماتشات قبل كده؟

– إيوه امال إيه! مرة أنا وصغيّر رحت مع ولاد عمي ماتش كورة يوم عيد الضحية ييجي من خمس سنين، كان الزمالك جاي عندينا يلعب مع المنيا، والمنيا اللي فازت كمان إيه رأيك؟!

قالها وضحك بفخر ثم سأل زميله:

– وانت يا ودّ العم؟

أدار وجهه ناحيته في دهشة وصاح بتفاخر:

– عيب عليك يا جدع دنا اسكندراني! مفيش ماتش للاتحاد ماحضرتوش لحد ما دخلت الجيش، ده مفيش كرسي في الاستاد ماقعدتش عليه!

أجابه الجندي الصعيدي في لهجة تأنيب:

– يعني انت حافظه الملعب ده على كده! خبر إيه عاد يا بو صاحب وجاي تسألني وانا الغريب؟

ابتسم الجندي السكندري وأجاب بلهجة ودية:

– لا ياعم الملعب ده جديد معرفوش، أنا كنت بحضر الماتشات في الاستاد بتاع إسكندرية اللي في محرم بيه، ستاد البلدية، أصل أنا ساكن جنبه.

لاحظا اقتراب زميل لهما ربما كان يبحث عمّن يحادثه ليقطع ملل ذلك الانتظار اللانهائي، أشارا إليه في ودٍّ ليقترب فقال بلهجة يفيض منها الضجر:

– أنا بقى عمري ما دخلت ملعب، ولا عايز ادخل، أنا ماليش في الكورة يا عم، ماعنديش وقت لها، أنا راجل صياد بقضي شهور في البحر، ولما برجع يدوب اقعد شوية مع الولية والعيال.

بادره الجندي السكندري في دهشة:

– إيه ده إنت متجوز؟

– آه ومعايا بنتين الحمد لله.

– يا بختك!

– معاكش سيجارة يا صاحبي؟

– سيجارة مين ياعم! ما النقيب قاعد لنا على سلم العربية قدامك أهو!

قطع عليهم حديثهم ذلك الصوت المشوش المنبعث من جهاز اللاسلكي في يد النقيب الشاب الجالس في ضجر مماثل على درجة السلم الأخيرة من مؤخرة الشاحنة الكبيرة على مقربةٍ منهم، لم يتبينوا ما قيل بسبب تشوُّش الصوت المختلط بالضوضاء المتصاعدة من ناحية الجمهور، لكن الضابط ردَّ

عليه بحماسةٍ وكأنما كان ينتظر الإشارة ليتخلص من ملل الانتظار، اعتدل واقفًا في سرعة ولياقة ثم صاح في حزم:

- إجمع هنا كل الناس، بالخطوة السريعة.

تجمع الجنود من داخل العربات وما حولها في سرعة، لكن دون تخبط، اصطفوا في صفوف مستقيمة منتظمة تنطق بصرامة التدريب الذي تلقوه مسبقًا، ووقفوا ثابتين ناظرين للأمام بقاماتهم المنتصبة وأجسادهم التي ينضح منها الشباب والطاقة في سكون تام، كانوا وحدهم - تمامًا - الساكنين الصامتين في محيط كيلومتر مربع على الأقل من الضجيج الهادر.

انضم للنقيب نقيبان آخران يتقدمهم العقيد الذي قال موجهًا حديثه لصفوف الجنود المتراصة بصوت جهوري زادته سنوات الخبرة العسكرية الطويلة صرامةً وهيبة:

- إسمع كل الناس وركز كويس عشان الكلام هيتقال مرة واحدة، دلوقتي هندخل الملعب من الأبواب اللي قدامكم دي كل مجموعة حسب لون الأفرول اللي لابسينه، صفين بالخطوة السريعة، هنملى المدرجات من تحت لفوق، مش عايز فراغات بين الأفراد، عايز التزام، إحنا ناس عسكريين جايين هنا في مأمورية متكلفين بيها بأوامر رسمية مش جايين نتفسح، هنخلص مأموريتنا حسب الأوامر ونرجع معسكرنا، طبعًا سيادة الريس بنفسه هيبقى حاضر والتلفزيون بينقل للعالم كله، عايزين نظهر بشكل

مشرف للبلد، هنقف انتباه ساعة عزف السلام الجمهوري، وهنسمع كلمة الريس ونصقف لما يخلص.

ثم يوجه بصره للضباط الواقفين خلفه، ثم يقول في حزم:

– اتفضلوا يا حضرات.

***

مرة أخرى ينتبه المصور على الصوت الآتي من سماعة الرأس، كانت لهجته أكثر جديّة هذه المرة ولم تكن تخلو من بعض التوتر:

– الريس على وصول، عايز لقطة واسعة شوية للمقصورة، الريس يبقى في وسط الكادر، هتفتح الكادر شوية عشان تبين حواليه الناس اللي بتشجع والأعلام، بس ماتبعدش أوي عشان ملامح الريس تفضل باينة، عايز كادر واضح، الريس في النص وحواليه ناس فرحانة، تمام؟

– تمام.

– طيب، والمدرجات اللي ورا الجون هتتملي كمان شوية، لما تلاقيها اتملت ابقى هاتلي لقطة واسعة عليها، ما تصوَرش المدرجات والعساكر داخلين، صوَر بعد ما يملوا المدرجات، ومن بعيد بس، عايز كادر للمدرجات دي وهي مليانة وملونة كده، وكاميرا تلاتة ركز معايا شوية، دوَر في الجماهير كده على بنت شكلها حلو، طفل راسم علم على وشه، حد شايل يافطة

بالإنجليزي، حاجة من الحاجات دي يعني انت فاهم، واعمل لي زووم عليه بس بلغني لما تلاقي لقطة حلوة عشان أركز معاك، آه، مفيش زووم على العساكر، واضح الكلام؟ يالا نجهز كلنا، الريس طلع من المطار.

تدور الكاميرا لتحصل على لقطة بانورامية بديعة للملعب وقد امتلأ عن آخره، وأضاءت كشافاته الباهرة بأقصى طاقتها، والأعلام ترفرف في كامل أرجائه، وقد اكتست المدرجات خلف المرمى الشرقي بكتل بشرية لا يتبين منها إلا الألوان الزاهية الموحدة، كانت تلك الكتلة تشكل لوحة ضخمة من رؤوس بلا وجوه، بلا ملامح، بلا أسماء، مجرد عدد، وفي بلد يقترب من مليونه المائة ليست للأعداد تلك الأهمية الكبيرة.

ترتفع الكاميرا أكثر وتتعالى الأصوات في الخلفية:

– مصر.. مصر.. مصر..

(٢)

يناير ٢٠١١

لقطة واسعة من نقطة مرتفعة تُبرز الحشود المتجمعة في الميدان، أعلام كثيرة ولافتات مختلفة الأحجام والأشكال، كتل بشرية ضخمة ليست لها نهاية، وأصوات هتافات ونداءات متقاطعة مختلطة لا يمكنك تمييز أي منها بوضوح.

ينتبه المصور على الصوت الذي جاء متحمسًا رغم إجهاده الواضح:

– وسّع اللقطة شوية بس ماتخرجش عن حدود الميدان، ماتطلّعش المساحات الفاضية في الكادر، عايز الشاشة كلها ناس.

***

يتخبط الرجل المسن السمين ذو القامة القصيرة نسبيًّا في سيره وسط الميدان المزدحم، كان يسير بلا هدى، ولا يبدو كمن يعرف إلى أين هو ذاهب،

يمضي فقط كيفما تأخذه خطواته، يقلّب بصره في الوجوه العابرة، ويتفحص الجالسين كمن يبحث عن شيء ما، تتفصّد حبات العرق من جبهته البيضاء العريضة، وصلعته الكبيرة رغم برودة الليلة الشتوية، يرتفع صدره ويهبط حين يتنفس بصعوبة تعود لسمنته البادية ولشيخوخته، كان يحمل صورة صغيرة في يده يُطلع المارة والجالسين عليها في توُّسلٍ ثم ينصرف كاظمًا خيبة أمل قاتلة وحسرة عميقة.

لم يكن الرجل ليتخيل في الصباح أن ينتهي اليوم على ذلك النحو المريع، كان صباح جمعةٍ شتويةٍ لطيفة الجو، سطعت شمس دافئة تنبئ بيوم جميل يمكنه أن يقضيه في الاسترخاء من عناء أسبوع عمل لم يعد من السهل على من بلغ مثل عمره احتمال إجهاده، لقد تجاوز عامه السبعين وما زال – كما ظل يفعل طوال الأعوام الثلاثة والأربعين السابقة – يستيقظ في الخامسة صباحًا لكي يتمكن من الوصول إلى المطعم البعيد قُرب سفح الهرم الذي يعمل به محاسبًا ومراجعًا ومدققًا للحسابات وكل ما يستجد من مهام، فهو أمين المخازن في بعض الأحيان، والصراف في أحيان أخرى بجانب مهامه الأصلية، ينكفئ فوق تلال الدفاتر والفواتير والإيصالات حتى المساء ثم يعود في رحلة طويلة ومرهقة تستدعي تنقله بين أربع وسائل مواصلات ليبلغ منزله المتواضع على الطرف الآخر من المدينة العملاقة منهك القوى تمامًا، لم يحصل طوال سنوات العمل الطويلة تلك على أكثر مما يغطي

الاحتياجات الأساسية لأسرته الصغيرة من مسكن ومأكل وملبس، لا أكثر من ذلك، لم يُصب من زينة الحياة الدنيا غير ولدٍ واحد هو منتهى أمله ومحور حياته، كرّس نفسه وصحته ووقته منذ رزقه به الله ليجعل حظ هذا الصبي من الدنيا خيرًا من حظ والده، ظَلَّ يحتمل قسوة العمل على شيخوخته ومرضه وضعف بصره ليكفل له تعليمًا يمكّنه من الظفر بشهادة ترفع قدره، وتضمن له حياة كريمة، ولا تضطّره كأبيه لابتلاع الإهانة ممن هم في عمر أبنائه، اقترب حلمه من التحقق على أي حال، صار خطُّ النهاية على مرمى البصر، شهور قليلة تفصله عن تخرج ابنه في الجامعة، يومها سيتمكن من تخليص نفسه من تلك الأغلال القاتلة، يومها فقط سيبلغ خط النهاية، يومها فقط يمكنه أن يموت في سلام.

استيقظ صباح الجمعة ليجد ولده يستعد للمغادرة، احتضنه في حنان وبادره بالسؤال:

– على فين يا بني بدري كده؟

– رايح الكلية يا بابا عندي امتحان.

– امتحان يوم الجمعة؟

– آه هنعمل إيه بس؟

– ربنا يوفقك يا بني ويكرمك، طيب فطرت كويس؟

– الحمد لله.

– طب مش عايز حاجة؟ معاك فلوس لو حبيت تشرب قهوة ولا تاكل حاجة بعد الامتحان؟

– معايا يا بابا ربنا يخليك.

– طب يا بني اتوكل على الله، سمي الله قبل ما تفتح الورقة واقرا آية الكرسي.

– حاضر يا بابا هنزل بقى عشان ماتأخرش.

– مع السلامة يابني، ابقى طمني لما تخلص، أصلي سامعهم بيقولوا فيه مظاهرات النهاردة.

– حاضر يا بابا هكلمك.

– مالكش دعوة بالمظاهرات، إحنا ناس في حالنا يا بني، تخلص امتحانك وتيجي علطول.

– وانا مالي بالمظاهرات بس؟ أنا ورايا امتحان تاني بكرة أصلًا يعني يدوب ارجع عشان الحق أذاكر.

– طيب يابني، طيب، ربنا معاك.

ودّع ولده ثم خرج إلى الشرفة ليتابعه ببصره وليستنشق نسمات الهواء، كان يعد الأيام لينتهي مشواره الذي بدأ مع مولد الصبي منذ اثنين وعشرين عامًا، رُزق به على كبر بعد أن تزوج أيضًا على كِبر لضيق الحال، يوم أطلّ عليه وجه المولود الخارج لتوّه إلى النور، وفتح عينه ببطء ليلقي على أبيه نظرة واهنة أدرك أنه لم يكن يعرف طعم الحياة قبل تلك اللحظة، أدرك أن حياته – أخيرًا – قد أصبح لها معنى، يومها اشترى كل ما لدى بقال الحي القديم من صناديق المياه الغازية، وأصرَّ على أن يوصل لكل فرد من الجيران وجيران الجيران زجاجته بنفسه، حلاوة المولود الجديد، والأخير على ما يبدو فقد تقدم به وبزوجته العمر ولم يكونا يطمعان من فضل الله في أكثر من ذلك، كبر الولد، وكبرت معه آمال الأب، كان يراقبه وهو يأكل، وهو يذاكر، وهو نائم، يتأمله ويدعو الله أن يطيل في عمره حتى يكمل مشوار تربيته، كان يختبر مشاعر الأبوة الجديدة عليه في كل كلمة جديدة يتعلمها الصبي، يطرب لكل فعل يأتيه وقد كان هو من علّمه إياه، تكاد عيناه تدمعان عندما يلاحظ كيف يعقد الصبي يديه وراء ظهره وهو يتحدث كما يفعل هو نفسه، بل وكما كان يفعل أبوه الذي مات منذ زمن ولم يَرَه الصبي، يحاول التقرب إليه ومصادقته بشتى الطرق، يشاركه اهتماماته رغم الفارق الكبير في العمر حتى أنه عاد لمتابعة كرة القدم التي كان قد انقطع عنها منذ اليوم المشئوم الذي فقد فيه صديقيه الذين شاركاه تشجيع نادي الزمالك وقت أن كان نجومه هم حسن

شحاتة وعلي خليل وطه بصري، بعدها لم يعد لديه الدافع ولا الوقت لمتابعة الكرة، يتابع ولده اليوم أندية أوروبية لا يكاد هو يعرفها أو يميّز بين لاعبيها من ذوي الأسماء الأجنبية صعبة النطق، لكنه ظل يتصنع المتابعة والاهتمام ليُبقي على الخيط الذي يربطه بالابن، حتى يظل بينهما ما يمكنهما الثرثرة بشأنه، لم يُشعره بالحرمان من أي شيء وإن كان قد بدأ يشعر بالعجز أمام تطلعات الصبي عندما بدأ يكبر فلم يكن يستطيع بدخله المحدود شراء تلك الدراجة الغالية أو ذلك الهاتف المحمول الحديث، عندما لمّح له الابن برغبته في السفر إلى أمريكا في الصيف مع زملائه في الجامعة للعمل واستطلاع العالم، وأنه لا يطلب منه إلا ثمن تذكرة الطيران، وأنه سيتدبر بنفسه أمر إقامته هناك، ظَلَّ مهمومًا لأسابيع، قهره الشعور بالعجز فلم يكن بإمكانه حتى تدبير تكلفة السفر إلى الأراضي المقدسة للتعلق بأستار الكعبة كما حلم طوال حياته وليس السفر إلى تلك القارة البعيدة في آخر العالم، لم يقسُ عليه قط، ولم يبالغ في عِقابه على تقصير دراسي أو سلوكي، حتى في ذلك الصباح الذي شاهده فيه يدخن السجائر في مراهقته المبكرة، رآه يومها مصادفةً من نافذة قطار المترو وهو يتسكع مع رفاقه على ناصية شارع صغير مجاور للمنزل، كانوا يشعلون السجائر ويسعلون بشدة كحال المبتدئين، تصارعت في وجدانه ساعتها مشاعر متضاربة، فبين شعور الغضب لإتيان الولد هذا الفعل غير الملتزم، وبين القلق عليه من تلك الصحبة التي ربما تجره لفسادٍ أشد، وبين ذلك الشعور الغريب المفاجئ بالفخر، ذلك الشعور الذي لم يجد له تفسيرًا ولم

يتوقعه من نفسه، فاجأته نفسه يومها بإجباره على الابتسام والهمس بارتياح "الواد ابن الكلب كبر"! كاد يتوجه للجالسين بجواره ويقول لهم: أترون ذلك الفتى اليافع الذي يدخن السجائر عند تلك الناصية؟ إنه ولدي! كانت مشاعر الأبوة المحيّرة والملتبسة تلك هي ما يبقي على اتصاله بالحياة، لولاها لما احتمل تلك الحياة يومًا واحدًا، واليوم يتبقى مائة وأربعة وسبعون يومًا على نهاية المشوار، تنهّد في ارتياح ونظر إلى السماء بامتنان بالغ ثم ارتشف قهوته التركية الثقيلة بسرور.

كعادته كل يوم جمعة قضى نهاره في الشُّرفة يمارس المتعة الوحيدة التي جادت عليه بها سنوات عمره الطويلة، متعة الاستماع إلى الطرب القديم، يقضي ساعات النهار منصتًا إلى مجموعة التسجيلات التي جمعها خلال رحلة عمره لعبد المطلب وصالح عبد الحي وعبد الوهاب وأسمهان وليلى مراد، تسجيلات تعيده إلى الزمن العتيق الذي لم يعد له وجود، حتى ذكرياته عن ذلك الزمن قد أصبحت ضبابية باهتة، لولا تلك التسجيلات لما ظَلَّ لديه ما يذكره بالزمن الذي كان فيه سعيدًا.

ذَهَبَ لصلاة الجمعة في الزاوية المجاورة لمنزله التي أقامها ويخطب فيها جار قديم له في مثل عمره لكنه ميسور الحال، عاد مباشرةً بعد الصلاة ليواصل الاستماع إلى تسجيلاته ثم يتناول الغداء وينام قليلًا، "نوم العصاري" هو متعته الأخرى التي لا يحصل عليها إلا يومًا واحدًا كل أسبوع.

أيقظته زوجته على غير عادتها يوم الجمعة فليس لديه ما يستيقظ من أجله، كان القلق باديًا على وجهها وهي تقول بجزع:

– الواد لسه مارجعش! الساعة عدت خمسة ولا رجع ولا اتصل، قوم كده الله يخليك اضرب عليه من المحمول شوفه راح فين! ده التلفزيون بيقول الدنيا مقلوبة والمظاهرات مالية البلد.

قام منزعجًا وصاح فيها:

– وماقلتيش من بدري ليه يا ولية؟ سايباني نايم وكل ده حصل؟

ردت في جزع وقلق:

– أنا قلت يمكن الواد اتأخر في المواصلات ولا حاجة ماهو بيقولوا الشوارع متقفلة، اتصل بيه كده والنبي.

نَهَضَ مسرعًا وتناول هاتفه المحمول قديم الطراز الذي اشتراه مستعملًا ليبقى على اتصال بولده الذي كان قد اشترى له جهازًا أحدث بكثير، حاول أكثر من مرة أن يتصل به لكن دون جدوى، لا يكتمل الاتصال، لا يبدو أن الجهاز يلتقط أية شبكة على الإطلاق! صاح في زوجته بغضب:

– المحمول ماله حد لعب فيه؟

– لا والنبي ما جيت جنبه هو انا بفهم فيه؟

- أمال ماله مش بيجمّع ولا معرفش فيه إيه!

- طب ما تنزل تتصل بيه من الشارع يا خويا.

- طيب طيب، أستغفر الله العظيم، يا رب سترك.

ارتدى ملابسه بسرعة ونزل إلى المحل الصغير أسفل البيت، كان ذلك المحل في الأصل معرضًا للأحذية التي كان يصنعها في بيته جار قديم لهم مات مؤخرًا فغيّر أبناؤه النشاط إلى تجارة المحمول، قال للشاب الواقف في المحل بنبرة يملؤها القلق:

- عايز اطلب الرقم ده يابني لو سمحت.

- قول يا حاج

- صفر اتناشر..

قاطعه الشاب في استغراب:

- دي نمرة موبايل يا حاج!

- أيوة نمرة ابني أصل المحمول بتاعي باين عليه خربان.

- يا حاج مفيش موبايلات، الشبكات كلها واقعة من الصبح انت ما سمعتش؟

فاجأته المعلومة التي سمعها وبدا أنه لم يفهم فقال:

- الشبكات واقعة؟ كلها؟ إزاي؟ حادثة يعني؟ فيه حاجة حصلت؟

– يا حاج النت والموبايلات كلها قاطعة من الصبح، قناة الجزيرة بتقول الحكومة هي اللي قطعتها عشان المظاهرات والفيسبوك والكلام ده.

لم يبدُ عليه أنه فهم ما قاله الشاب تمامًا، ولم يكن ذلك يعنيه، كل ما فكر فيه هو شيء واحد:

– إيه؟! طب ولما يقطعوا الموبايلات الناس تتصل ببعض إزاي؟ والواد اللي مارجعش من صباحية ربنا ده أنا أجيبه إزاي دلوقتي؟

– زمانه جاي يا حاج ماتقلقش، تلاقيه مش لاقي مواصلات في القلق ده، ولا ممكن تلاقيه مشي في المـ..

أدرك الشاب عندها أنه ليس من الحكمة أن يزيد قلق الرجل المسن باحتمال أن يكون ولده يشارك في المظاهرات كالكثير من أصدقائه من شباب الحي الذين يعرف أنهم يشاركون، هو نفسه ودّ لو يشارك لكنه مسئول عن المحل ولا يستطيع تركه، لم يبدُ كذلك أن الرجل قد سمع ما قاله الشاب، ولا أنه كان ينصت إليه أصلًا، كان الرجل ذاهلًا وقد هرب الدم من وجهه الأبيض المكتنز، فبدا وكأنه في عالم آخر، أراد الشاب أن يخفف عنه أو يخرجه من تلك الحالة فقال بضحكةٍ مصطنعة:

– وبعدين يا حاج ما انت عشت عمرك كله من غير موبايلات، كنتوا بتلاقوا بعض إزاي قبل ما يخترعوها؟ هاهاها..

لكن الرجل لم يسمع تلك الدعابة أيضًا على ما يبدو فقد كان قد استدار خارجًا، ولم يزل في ذهوله متمتمًا:

- شكرًا يا بني.. شكرًا..

صَعَدَ إلى شقته ليبلغ زوجته بما سمعه عن انقطاع الشبكات وقال لها إنه ذاهب ليبحث عن الولد، قالت بنبرة يائسة:

- هتدوّر عليه فين بس؟ انت عارف هو فين؟ وبعدين التلفزيون بيقول..

قاطعها في حدة وهو متجه نحو الباب:

- هروح له الكلية، لو مالقيتوش هسأل عليه أي حد من دفعته، هلف عليه في الشوارع، هسأل في الأقسام، هسأل في المستشفيات، هعمل أي حاجة، منا مش هفضل قاعد أندب زي النسوان!

- طب يا خويا والمظاهرات والدنيا اللي متقفلة دي! هتلاقي مواصلات؟

- معرفش، هنزل اشوف وربنا يسهلها.

- يارب استرها.

قالت جملتها الأخيرة بقدر كبير من الجزع حتى أن الزوج استدار إليها وربت على كتفها بحنان ثم قال بنبرة جاهد كثيرًا لتخرج واثقة ومطمئنة:

- ماتخافيش، مش هرجع غير بيه، خلي بالك انتي من نفسك وماتفكريش كتير، انتي عيانة والزعل مش كويس عشانك.

انهمرت دموعها غزيرة رغم محاولاتها لعدم البكاء، قالت بصوت مُتهدِّج:

– ربنا معاك ياخويا، ربنا هيرجّعك بيه سالم غانم، أنا عارفة ربنا مش هيكسر بخاطرك، إنت عمرك ما أذيت حد.

لم يتمالك نفسه هو الآخر، انهمرت دموعه كذلك لكنه كان قد استدار خارجًا ولم يُظهر لها بكاءه، فقط قال بهدوء:

– هبلغّك على تليفون البيت لو عرفت حاجة، سلام.

***

خرج إلى الشارع الرئيسي الذي يتفرع منه شارع منزله ليجده كما لم يشهده من قبل، بل تحديدًا كما لم يشهده منذ يناير عام سبعة وسبعين، ذلك اليوم الذي ظنّ أنه لن يشهد عجبًا مثل ما شاهده فيه مرة أخرى، اليوم الذي فَقَدَ فيه صديقي عمره، أو صديقي العمر الذي عاشه حتى ذلك اليوم البعيد، أما عمره اللاحق على ذلك اليوم فهو العمر الجديد الذي كُتب له في اللحظة التي زعق فيها ذلك الضابط ذو الصوت الأجش آمرًا سائق سيارة الشرطة بالانطلاق قبل أن يتمكن الشرطي الريفي الأسمر من إدخاله فيها بجانب رفيقيه اللذين سبقاه إلى داخل ذلك الصندوق المعدني الصدئ المظلم، انطلق السائق يومها بالسيارة فجأة مجبرًا عجلاتها على الاحتكاك القاسي بأسفلت الشارع مخلفةً صوتًا مزعجًا ورائحة احتراق كريهة، ومخلفةً وراءها كذلك

شابًّا قصير القامة، أبيض البشرة، ملقى على الأرض المبتلة ذاهلًا، يومها نهض مسرعًا وهرول ناحية أقرب مدخل عمارة صادفه، نَفَضَ عن ثيابه الرخيصة خليط التراب والأوحال الذي لطَّخها، لكنه لم يستطع قط نفض الأوحال عن روحه التي انكسرت يومها كسرًا لا إصلاح له، ما زال طعم الإهانة التي لحقت به يومها في حلقه، ما زالت آثار أصابع ذلك الجندي الريفي الذي صفعه غائرة في وجهه وإن لم يَرَها غيره، كان الجندي يصفعه ليخفي خوفه هو ذاته، كان ذلك الجندي البائس أشد خوفًا من الأصدقاء الثلاثة الذين قادهم حظهم العاثر إلى الوجود في ذلك الشارع في ذلك اليوم التعيس، لم يعلموا بأمر الاحتجاجات الشعبية التي عمَّت العاصمة يومها فقد كانوا منعزلين عن الدنيا ينصتون في خشوع الرهبان إلى تسجيلاتهم النادرة في شقة الصديق الذي كان يقيم في القاهرة للدراسة مغتربًا عن مدينته الجنوبية البعيدة، قرصهم الجوع فخرجوا يستنشقون الهواء بعيدًا عن الشقة الضيقة التي ضاقت أكثر بدخان السجائر، ويبحثون عن أرخص طعام يمكن لقروشهم الزهيدة أن تشتريه، فوجئوا بالشارع الكبير خرابًا، وكأن غارة جوية قد ضربته، سيارات محترقة ومحال مهشمة الواجهات، وحطام غير واضح المعالم في كل مكان، شعروا بالخطر رغم عدم فَهمِهم لما يحدث فأطلقوا لسيقانهم العنان يركضون بغير هُدًى حتى لاحت سيارة الشرطة ونزل منها الجنود الأجلاف الذين لا يميّزون ولا يعرفون غير الضرب،

اقتادوهم بغير سبب وبلا كلمة واحدة، ونجا هو بضربة حظٍّ غير معتادة في حياته التي لم يكن بينها وبين الحظ أي مودة، لم يعلم مخلوق بأمر هذه الواقعة، لم يعرف هو ذاته ما حدث للصديقين إلا بعد شهور عندما سمع من بعض أصدقائهم المشتركين أنهم خرجوا من المعتقل أشباحًا محطمة، ولم ينقضِ العام حتى كانا خارج البلاد بلا عودة، فقدهما للأبد وإن بقي ثلاثتهم على ظهر الأرض.

أذهله منظر الشارع، وذكّره بذلك اليوم البغيض، اضطربت دقات قلبه وشعر بالدم يضرب في رأسه، ماذا حدث؟ لا يهم ما حدث، لكن ماذا يمكن أن يفعل هو الآن؟ فليحدث ما يحدث، مظاهرات، احتجاجات، حرائق، ثورة، أيًّا ما كان، إنه على مشارف محطته الأخيرة من الدنيا، لا يعنيه إلا ألَّا ينتهي الأمر بولده داخل صندوق سيارة شرطة صدئ مظلم ولا ملقى على أسفلت شارع مبتل ينفض الأوحال عن ملابسه، لا يعنيه إلا أن يعود بالولد سالمًا ليبيت في حضن أمه ثم يستيقظ ليستكمل امتحاناته وأن تنقضي الأيام المائة والأربعة والسبعون المتبقية بسلام، ثم ليحدث بعد ذلك ما يحدث ولو عاد الملك مرة أخرى، ولو عاد الإنجليز أو المماليك أو كفار قريش، لا يهم.

استجمع قواه وتماسَكَ، لا وقت الآن لاجترار ذكريات الماضي، يجب أن يصل إلى ابنه، سيذهب إلى الجامعة ولو سيرًا على الأقدام، ربما كان الولد عالقًا هناك لا يجد ما يركبه، سيسأل عنه المارة، كانت معه دومًا صورة حديثة

للولد لا تفارقه قط، كان في الواقع يحمل إحدى عشرة صورة له في مختلف مراحل العمر، استطاع أن يصل إلى الجامعة أخيرًا عبر عدة مواصلات تفادت قدر الإمكان مسار التظاهرات، كانت البوابات مغلقة، ولم يكن ثمة أحد بالداخل، لم يكن حتى ثمة حرس على البوابات كالمعتاد، كان القليل من الطلبة والطالبات عالقين بالفعل أمام البوابات، لكنهم لا يعرفون ابنه، حتى أقسام الشرطة التي مرّ عليها في طريقه كانت كلها مغلقة، أي شرطة تلك التي تغلق أبوابها؟! أيحسبون أنهم موظفون في مجمع التحرير؟ أين تلك الشرطة التي في خدمة الشعب وهو فرد من الشعب يلجأ إليها لأول مرة في حياته فيجد أبوابها مغلقة؟! كانت المستشفيات في حالة فوضى عارمة وكأننا في حالة حرب، جرحى لا حصر لهم معظمهم من الشباب، وربما قتلى أيضًا، كانت إصاباتهم بشعة، انقبض قلبه لدرجة لم يعد يحتملها فسقط مغشيًّا عليه وسط ردهة سيئة الإضاءة مكتومة الهواء في مستشفى حكومي مكتظٍّ، أفاق بعد برهة لا يدرك كم استغرقت فإذا بشيء مما حوله لم يتغير، كان في الردهة سيئة الإضاءة نفسها، وأمام الممرضات والجرحى نفس أنفسهم، المشهد المؤلم نفسه بحذافيره، ربما لم ينتبه إليه أحد، وربما انتبهوا ولم يعطوا لإسعافه الأولوية على إسعاف المصابين بطلقات نارية، في أوقات الكوارث لا يمتلك الأطباء رفاهية العناية برجل مسن مغشي عليه في وجود العشرات ممن يصارعون الموت، شكر الله على أنه لم يزل يستطيع التنفس، ونهض مغادرًا

وقد خطر بباله خاطر لم يعرف هل هو طوق النجاة أم هو الهاوية ذاتها، لماذا لا يكون الولد قد ذهب ليشارك في تلك المظاهرات؟ لم يعرف عنه قط أي اهتمام بالسياسة ولا الشأن العام، لم يكن حتى يتابع معه نشرة أخبار التاسعة مساءً في القناة الأولى، طقسه المقدس الذي ظل مخلصًا له من قبل أن يولد ابنه وحتى بعد ظهور تلك الفضائيات المبهرجة التي لم يكن يفهم أغلب ما يتحدث عنه من يطلّون من شاشاتها والذين لم يكن يعرف أغلبهم كذلك، هل ذهب الولد إلى المظاهرات؟ هل أغراه أقرانه بالذهاب؟ لكنه قال إنه لن يذهب! ولو ذهب فلِمَ لم يخبره؟ لكن كيف كان بوسعه إخباره والاتصالات كلها مقطوعة! لماذا يا ولدي تفعل ذلك بأبيك؟

كان قد تابَعَ الأخبار عبر الإذاعة في المواصلات التي ركبها وفهم أن المظاهرات توقفت الآن وأن المتظاهرين قد تجمعوا بميدان التحرير وأن الجيش بات يسيطر الآن على الأوضاع، كان ذلك مؤشرًا جيدًا بحسب خبرته، فالجيش محبوب من عامة الناس، وليس غاشمًا كالشرطة كما أن هيبته وتسليحه يمكنانه من فرض النظام، فليذهب إلى الميدان إذًا ليبحث عن ولده هناك وهو واثق من أنه سيكون في أمان في حمى الجيش، خاض مغامرة صغيرة غير مأمونة العواقب ليصل إلى الميدان عبر عدة مواصلات أقلته لمسافات قصيرة وعبر السير على قدميه لمسافات أطول، أوقفه عدة مرات مواطنون عاديون ليسوا بمنتمين إلى الشرطة ولا إلى الجيش، لكنهم كانوا يحملون أسلحة مختلفة، تفحصوا بطاقته الشخصية وسألوه عن وجهته، هذا

يوم غريب حقًّا، كان يظن أنه قد رأى بالفعل ما يكفي من العجائب في عمره الطويل، لكنه لم يَرَ من قبل مدنيين يقيمون لجان تفتيش ويحملون السلاح علنًا في قلب العاصمة، دخل أخيرًا إلى الميدان، كان مجهدًا لأقصى حدٍّ، كان قلبه يدق بصعوبةٍ، فقط بما يمكّنه من البقاء على قيد الحياة، كانت أنفاسه تتلاحق، وكان العرق يغطي وجهه، أخرج الصورة ودار على الجميع يُطلِعُهم عليها، ويسألهم في لهفة، لم يجد أي بصيص للنور عند أحد، لم ينجح في الوصول لخيط واحد يرشده إلى أي اتجاه، لا أحد هنا يعرف ابنه، لم يَرَه أحد، حاول الكثيرون من الشباب المساعدة لكن بلا جدوى، كاد اليأس يتملك منه، ليس اليأس فقط بل الجزع، والرعب، داخَله شعور قاتِل بالهزيمة، لقد خسر معركته الأخيرة في هذه الدنيا، خسرها بالضربة القاضية بعد أن كان على بُعد ثوانٍ من إنهاء المباراة منتصرًا بالنقاط، كان على بُعد مائة وأربعة وسبعين يومًا من النصر بعد اثنين وسبعين عامًا من القتال المتواصل مع الحياة دون إدبار أو ارتداد، وكأن يناير هذا لا يريد أن يُبقي له أحبة أبدًا، أخذ صديقي عمره قديمًا، ويأخذ اليوم ابنه الوحيد!

لم يَعُدْ يرى بوضوح من أثر الإجهاد وهو بالأساس ضعيف النظر، صار يتخبط في سيره، ويصطدم بالمارة فيعتذر لهم ثم يسألهم عن ابنه، لم يعد يتذكر إن كان قد سأل من يسأله الآن من قبل أم لا، اختلطت عليه الوجوه، اصطدم أخيرًا برجل متوسط العمر ذو شيب خفيف في مقدمة رأسه فتوقف ونظر إليه معتذرًا وقال:

– أنا آسف يا أستاذ معلش العتب على النظر.

رد عليه الرجل الذي بدا مهندمًا ومثقفًا بابتسامة مطمئنة:

– ولا يهمك حصل خير، إنت كويس؟

ظهر التأثُّر الشديد على وجهه، وبدا أنه على حافة البكاء، قال فيما يشبه الرجاء وهو يُخرج الصورة ويوجهها نحوه متمسكًا بالقشة الأخيرة قبل الغرق:

– ماصادفتش ابني يا أستاذ؟ هو طول حضرتك كده ولابس بلوفر اسود وبنطلون جينز، بس هو شعره دلوقتي طويل عن الصورة و..

تناول الرجل منه الصورة وتفحصها بعناية، أراد من كل قلبه أن يساعد ذلك المُسنَّ المكلوم، لكنه لم يتعرف إلى الشاب، لم يَرَه من قبل بالتأكيد، فقاطعه بأدب:

– أنا آسف والله، بس انت متأكد انه هنا؟

أجاب الرجل في يأس:

– مش عارف! هو خرج من البيت الصبح راح الكلية عشان عنده امتحان وما رجعش ولا عارف اتصل بيه، معرفش الموبايلات كلها النهاردة قاطعة ليه، هو حضرتك عندك شبكة؟ معلش انا بتقَل عليك!

– لا والله معنديش شبكة، الشبكات مقطوعة من الصبح على الناس كلها.

استطرد الرجل المسن وهو لا يكاد ينظر لمحدثه، لا يكاد يعرف إلى من يتحدث:

– آه! منا عارف بس قلت يمكن يعني! أنا سمعت عن المظاهرات في الراديو قلت يمكن راح معاهم، قلت أجي ادور عليه هنا، يعني هو بس مكانش عارف يتصل بيا في البيت من أي حتة؟ دي أمه هتموت من القلق عليه وهي عندها السكر وخايف تجيلها غيبوبة تروح فيها، أنا سايبها لوحدها والله وربنا يعلم هي عاملة إيه دلوقتي! أنا معرفش كمان امتحانات إيه اللي يوم جمعة دي! أنا معرفش الناس دي مش عايزة تسيبني في حالي ليه! مش عايزين يسيبولي حتة الواد اللي طلعت بيه من الدنيا! الله يحرق قلبه على عياله زي ما حرق قلبي على ابني! الله يحرقهم بجاز كلهم! كلهم!

(٣)

يناير ٢٠١١

منذ أن أقلّ أسرته الصغيرة بسيارته الجديدة إلى مقر الشركة التي تعمل بها زوجته هذا الصباح حيث اتفق زملاء العمل على التجمع للذهاب في رحلة إلى منطقة ريفية على أطراف العاصمة وهو غير مطمئن، رغم أن اليوم بدا مثاليًّا بالفعل لرحلة كتلك، طقس لطيف وشمس شتوية دافئة، كان الأطفال في إجازة منتصف العام، وكان المكان الذي يقصدونه حافلًا بالخضرة والمساحات المفتوحة بعيدًا عن هواء القاهرة الخانق، أرادوه أن يرافقهم لكنه كان مكلفًا بأعمال متأخرة لينجزها في يوم الإجازة، يعمل حتى يوم الجمعة، لم تستطع زوجته الاتصال بزميلتها التي تنتظرها عند مقر الشركة لتبلغها بأنها في الطريق وتطلب منها الاعتذار للزملاء عن تأخرها الخارج عن إرادتها بسبب الأطفال، لم يكتمل الاتصال الهاتفي لسبب لم تكن تعلمه،

لعنت الشبكة الرديئة، وتحسَّرت على ما تدفعه لهم من أموال مقابل خدمة سيئة واتصالات لا تكتمل، لكنها وصلت قبل مغادرة الرحلة واعتذرت للصديقة التي كانت واقفة بجانب الحافلة ممسكة بهاتفها المحمول في عصبية محاولةً هي الأخرى الاتصال بزميلتها وصديقتها الحميمة التي تأخرت دون جدوى، اعتذرت الزوجة لباقي الزملاء ثم صعدت مع طفليها وودعت زوجها قائلة بحنان وعتاب:

– مش كنت جيت معانا؟

– معلش يا حبيبتي انتي عارفة، اتبسطوا انتو بس وخلي بالك من الولاد.

– لا إله إلا الله.

– محمد رسول الله.

انتظر حتى مغادرة الحافلة وعاد بسيارته إلى المنزل ليتناول الإفطار ويعمل حتى موعد صلاة الجمعة، عبث بهاتفه المحمول قليلًا ليبحث عن نتيجة مباراة فريقه المفضل – ليفربول الإنجليزي – التي فاتته بالأمس لأنه لم يستطع السهر لمشاهدتها على الهواء، لم يحصل على نتيجة، لا يبدو أن الشبكة على ما يُرام هذا الصباح، أو لربما كان هناك مشكلة ما في الاستقبال في هذه المنطقة، فليعد للمنزل ويستخدم حاسبه الشخصي، هذا أفضل على كل حال.

لاحظ بعض مظاهر التوتر في الشوارع منذ الصباح، وجود غير مألوف لسيارات الأمن المركزي في الشوارع الرئيسية، هؤلاء القوم خائفون قطعًا

من المظاهرات التي تتم الدعوة لها منذ أيام، رغم أن الخامس والعشرين من يناير الذي لم ينقطع الحديث عنه منذ هروب الرئيس التونسي قد مرَ بسلام وانفضّ الاعتصام الذي حاول الشباب إقامته في ميدان التحرير، ليلتها رجع إلى المنزل متأخرًا ولم يشهد أي مظاهرات، ربما لأنه لم يخترق منطقة وسط المدينة، وأمضى معظم المسافة فوق كوبري أكتوبر، فقط لفت نظره وجود أمني مكثف عند مطالع ومنازل الكباري وما يبدو أنه توتر في الأسفل، شاهد المعتصمين في الميدان عبر شاشة التلفزيون في غرفة نومه وهو يتناول العشاء، كانت خطوة كبيرة وشديدة الجرأة في نظره فلم يسبق له شخصيًّا أن عاصر اعتصامًا في ميدان التحرير، في قلب العاصمة وخاصرتها وملتقى شرايينها الحيوية، على مرمى حجر من مقرات هيئات الدولة الرسمية، لكنه قال لزوجته ببساطة وهو يغالب النعاس كما لو كان يحدثها عن فيلم السهرة:

– مش هيسيبوهم للصبح، لو طلع عليهم النهار وهما في الميدان هتبقى ثورة.

ثم تلحَف بغطائه ونام بعمق، في الصباح شاهد وهو يتناول فطوره كيف تم فض الاعتصام بخراطيم المياه في ساعة متأخرة من الليل، لم يتفاجأ فقد كان ذلك بالضبط ما توقعه، حتى أنه أشار لزوجته برأسه كما لو كان يريد أن يقول: مش قلتلِك؟

حتى عودته للمنزل هذا الصباح لم يكن يتعامل بجدية مع الأمر برمَّته، بدا له الأمر عبثيًّا وأقرب للهو الأطفال، أي ثورة هذه التي تقوم بموعد مسبق؟ صحيح أن الأمر نجح في تونس ووصل لدرجة هروب رئيس الدولة، لكن لا يوجد ما يجعل نفس السيناريو يتكرر بنجاح في بلد معقد وكبير مثل مصر، سكان القاهرة وحدها أكثر من كل سكان تونس، هذا البلد معقد لدرجة تجعل التغيير فيه ضربًا من المستحيل، إن الوضع متوتر حقًّا منذ شهور، تكررت الاعتصامات والاحتجاجات وتصاعدت حدَتها وعلا سقفها إلى حدود غير مسبوقة حتى أضحت المنطقة المحيطة بمجلس الوزراء ومقر البرلمان أشبه بساحة اعتصام دائمة، لكن ما يعلمه عن طبيعة هذا البلد يجعله واثقًا من أن اليوم سيمر كما مرَّ غيره، كل ما يتمناه أن يمر بأقل الخسائر، لا يريد للمشاركين في المظاهرات أن يصيبهم الأذى فهو متعاطف معهم إلى أقصى الحدود، بل إنه يتمنى لو كان معهم، يتمنى لو امتلك شجاعتهم، لكنّ لكل شخص حساباته وتوازناته الخاصة، لديه الكثير ليخاف عليه، لديه زوجة وطفلان، لديه عائلة وأصدقاء، لديه ممتلكات مادية، شقة وسيارة ومدخرات، لديه وظيفة مرموقة كافح لسنوات طويلة حتى يصل إليها، لديه طموحات مستقبلية يسعى لتحقيقها، لديه الكثير مما يمنعه من الانسياق وراء عواطفه وحماسته، لم يعد شابًّا على أي حال، تجاوز منتصف عقده الرابع، يقترب من الأربعين، لم يعد يملك رفاهية المجازفة لأنه لا

يملك رفاهية خسارة ما حققه، لم يعد الأمر متعلقًا به وحده كما كان من قبل بل باتت في رقبته مسئولية أسرة هو عائلها، كان يعتقد كذلك أن حالته هي الغالبة على المجتمع، ليست هذه الملايين جاهزة للثورة الآن، فهو الذي طالما اعتبر نفسه نموذجًا لهذه الملايين، هو مثال لأبناء الطبقة المتوسطة، المواطن العادي الذي يتابع أحوال العالم دون أن يتدخل في صناعة السياسة، الحاصل على قدر لا بأس به من الثقافة والتعليم والحياة المستقرة، الذي لديه الكثير مما يخشى عليه، الذي لا يحتمل "بهدلة" الاعتقال والتعذيب والإهانة، هذا المواطن يتعاطف في الغالب مع النشطاء الثوريين، لكنه لم يكن يومًا أحدهم، هذا مواطن "إصلاحي" بطبعه وليس ثوريًّا فقد كانت الثورة بحكم تعريفها تعني له الفوضى، ولم تكن الفوضى هدفًا له أو خيارًا مقبولًا قط، كانت فكرة الثورة كما يراها أشبه بمعادلة كيميائية، لا يكفي توفر العناصر اللازمة والظروف المناسبة لكي يحدث التفاعل، وإنما يجب أن يكون العنصر الأهم في المعادلة في "كتلته الحرجة"، وهي الكتلة التي يظل العنصر خاملًا حتى يصل إليها فينطلق التفاعل، كان يعتقد أن البلاد لم تصل بعد لتلك النقطة، فقد تظاهَرَ النشطاء من قبل في مناسبات كثيرة، وحدث أن اشتبك المتظاهرون مع الأمن، وتعرضوا للضرب والتحرش والاحتجاز والتعذيب، بل حَدَثَ في مناسبة قريبة أن خرجت مدينة مكتظة مثل المحلة الكبرى عن سيطرة الأمن، وأسقط المتظاهرون فيها صورة كبيرة لرئيس الدولة نفسه، وكانت تلك سابقة تاريخية، حدث ذلك كله ولم تقم الثورة، ذلك أن عناصر المعادلة

لم تصل إلى كتلتها الحرجة بعد، وإن كانت قد اقتربت منها تدريجيًّا، لم نبلغ بعد النقطة التي يصل فيها الفرد إلى عدم الخوف من عواقب نزوله للشارع ومشاركته في الثورة، النقطة التي تصبح عندها مخاطر المشاركة أهون من عواقب السكوت، وتختلف تلك النقطة بالطبع من شخص لآخر، فالنشطاء المثابرون على التظاهر والمعارضة منذ البدايات وصلوا لكتلتهم الحرجة منذ زمن نتيجة قناعاتهم الفكرية وتكوينهم الثوري، فمن يقوم بتفجير انتحاري مثلًا يكون قد وصل للنقطة التي يرى فيها الموت أهون مما يلاقيه في الحياة من متاعب، ويرى الجائزة التي سيحصل عليها كشهيد أفضل مما سيحصل عليه في الدنيا لو استمر فيها، تحدث الثورة عندما يصل الملايين لتلك القناعة، فالثورة لا يقوم بها عشرات ولو ظلوا في الشوارع لسنوات، بل تظل هذه كلها حركات احتجاجية معارضة لا تُسقط نظام الحكم ولا تُحدث – إن أحدثت – إلا مكاسب رمزية، إنما الملايين هم من يصنعون الثورة، عندما يجد الملايين أنفسهم مدفوعين إلى النزول للشوارع، عندئذ فقط يسقط النظام، لكنه لم يكن حتى تلك اللحظة يعتقد بوصول المجتمع إلى تلك النقطة، بل إن آخر ما قاله لأحد أصدقائه المقربين وهو يودعه مازحًا ومتهكمًا بعد جلسة معتادة مع الأصدقاء في المقهى قبل يومين ناقشوا فيها توقعاتهم لما سيحدث فيما سُمَي بجمعة الغضب:

– أشوفك بعد الثورة بقى!

***

وصل إلى المنزل سريعًا فقد كانت الشوارع شبه خالية كما هو المعتاد في صباح يوم جمعة شتوي، صنع فطورًا بسيطًا فقط لكيلا يتناول قهوته على معدة خاوية، طالع هاتفه المحمول فإذا به لا يلتقط أي شبكة، هُرع قلقًا إلى حاسبه الشخصي ليفاجئه أن الاتصال بالإنترنت مقطوع كذلك، ليس مقطوعًا لعيب فني إذًا كما ظن في البداية، لقد كان واضحًا أن الاتصالات مقطوعة بأمر جهة ما لا بد أنها ذات سلطة مطلقة، مقطوعة بالكامل، ومقطوعة عن الجميع!

اقترب موعد الصلاة، كان قد قرَّر مسبقًا الصلاة في الزاوية المجاورة لمنزله التي سيطر عليها شبابٌ سلفيون لا يحبهم ولا يستسيغ مظهرهم الذي يشبه القادمين من عصور الجاهلية عبر آلة الزمن، ولا يطيق خطبهم الزاعقة الغارقة في التشدد وكراهية كل من هو مختلف عنهم ولو في تفاصيل صغيرة، بل كراهية العالم بأسره من باب الاحتياط، لكنه سيصلي معهم اليوم لعلمه بأنهم لا يؤيدون المظاهرات، ولا يتجرؤون على استفزاز أجهزة الأمن، فليؤدي فرض الصلاة اليوم بعيدًا عن التوتر الأمني ثم يعود لمتابعة الوضع من التلفزيون، فهو في كل الأحوال "مش بتاع مظاهرات"، لكن قطع كل سبل الاتصال بهذا الشكل السافر غير المسبوق استفزه بشدة، فعمله الذي ترك لأجله الرحلة مع أسرته يعتمد بشكل أساسي على الاتصال بالإنترنت، ومن ثم فهو الآن ممنوع من العمل، أسرته خارج المدينة وهو ممنوع من

الاتصال بهم، القناة الفضائية التي اعتاد متابعة الأحداث من خلالها تتعرض على ما يبدو لتشويش متعمد فقد كانت تعمل بكفاءة حتى مساء الأمس، ولذلك هو أيضًا ممنوع من متابعة ما يحدث! إن شخصًا ما في جهة أمنية ما لم يترك له بهذا القرار شديد الغباء مصدرًا آخر للمعلومة غير الشارع، حسنًا! سأنزل إذًا إلى الشارع الذي تدبرين كل ذلك التدبير لتمنعيني من النزول إليه أيتها الدولة الحمقاء!

ألغى فكرة الصلاة في الزاوية السلفية المجاورة وتوجَّه إلى المسجد الكبير المطل على الميدان المجاور لبيته قرب وسط المدينة، وهو مسجد تابع للأوقاف لم يكن يصلي فيه كثيرًا لعدم اقتناعه بالشيخ الحكومي الذي يخطب فيه، لم يحب قط رجال الدين الحكوميين الأقرب في نظره لموظفين يرددون وجهة النظر الرسمية مغلفة بغطاء ديني يمنح القداسة لأي فكرة يريد النظام الحاكم منحها القداسة، لكن المسجد الحكومي هو البديل الأفضل الآن ليكون وسط أكبر تجمع من الناس، كان عدد المصلين متوسطًا، وأقل من المعتاد في كل جمعة، بدأ الخطيب بمواعظ عامة كما جرى العرف في خطب الجمعة التقليدية، ثم تطرق إلى الحديث عن عدم جواز التخريب والإضرار بالوطن، فخرج صوت أحد المصلين الذين لا يراهم قائلًا بصوت جهوري: "اتقِ الله يا عم الشيخ"! كانت المرة الأولى في حياته التي يسمع فيها أحد المصلين يقاطع خطبة الجمعة، لم يتأثر الخطيب بالمقاطعة، وأكملَ خطبته في

هدوء، ولكنه تحول إلى تأكيد أن على "ولاة الأمر" الاستماع إلى مطالب الناس وحلها، لم تكن الخطبة سيئة، كان الخطيب متوازنًا، كان يمسك بالعصا من المنتصف، لا تعرف هل يريدنا أن نتظاهر أم لا، انتهت الصلاة وانتظر أن يبدأ شخص ما بالهتاف، كانت الدعوة موجهة مسبقًا للتظاهر في أنحاء البلاد عقب صلاة الجمعة حيث يتجمع الناس تلقائيًا ولا يمكن منعهم، فقط تباطأ المصلون في المغادرة، بدؤوا ينظرون إلى بعضهم البعض أو يطرقون إلى الأرض، لا يريد أحد أن يكون المبادر! لا يريد أحد أن يكون أول من يطرق باب المجهول الذي لا يعلم مخلوق ما وراءه.

سار إلى الميدان لعله يجد هناك جديدًا فلم يجد إلا السكون الحذر، فكر في أن يسير في اتجاه الجامع القريب الشهير بانتمائه الإخواني والسلفي لعله يجد مظاهرة هناك، سار بتردد إلى منتصف الشارع العريض المؤدي إليه، وهناك تناهى إلى سمعه هتاف خافت قادم من بعيد، لا يعرف كيف يصف ما اعتراه من شعور آنذاك، شعور أن يتحقق شيء أردته بشدة لكنك لم تتوقع أن تشهد بعينيك حدوثه، ولا تعرف أصلًا ما سينتج عنه، بدت الأعداد من بعيد قليلة، اقترب الهتاف وبدأ يعلو:

– واحد.. اتنين.. الشعب المصري فين.. واحد.. اتنين.. الشعب المصري فين..

أطلَّ سكان الشارع العريض من النوافذ والشرفات في فضول أولًا ثم في لهفة، ثم في حماسة، بدؤوا يحيّون المتظاهرين ويلوّحون بأعلام مصر، هتف لهم المتظاهرون:

- إنزل.. إنزل.. إنزل يا مصري.. إنزل يا مصري..

انضمَّ الكثير من الشباب للمظاهرة، انضمَّ إليهم وسار عائدًا إلى الميدان الذي جاء منه عند المسجد الحكومي ومنه إلى شوارع أخرى، استمرَّ الهتاف، واستمرَّ السكان في التلويح بالأعلام، واستمر الشباب والرجال والبنات والسيدات في الانضمام، ازداد العدد بشكل ملحوظ وعلت أصوات الهتافات، ثم أتى الهتاف الذي زلزل المشهد بأسره، كان يسمعه بشكل حي للمرة الأولى، كان يسمعه الآن من موقع الحدث، في شارعه وأمام بيته لا من بلاد بعيدة عبر التلفزيون أو الإنترنت:

- الشـــــعب .. يريـــــد .. إســـــقاط النظـــــام..

إنها الثورة إذًا! لا يمكنك أن تخطئها حين تكون في قلبها، حين تشهد لحظة ميلادها، استمرت الحشود في عبور الشوارع الكبيرة وفي اجتذاب المزيد من المشاركين، استمرت الأعداد في التزايد، عند ناصية شارعين قريبين من منزله مَرَّ بجانب تجمع لبعض الشباب في أوائل العشرينيات بدا له أنهم أصدقاء أو زملاء، سمع واحدًا منهم يوجه حديثه للآخرين:

- ها.. جاهزين؟

ردَّ أحدهم بحماسةٍ:

- أيوه

- عارفين هتعملوا إيه؟

شدَّ الحديث انتباهه، وأثارت فضوله الجدية التي كانوا يتكلمون بها، فتابعهم بسمعه دون أن يتدخل، قال الشاب الأول بلهجة جادة:

- لو رموا قنابل مسيلة للدموع تغسل وشك بكوكاكولا عشان عينيك، وتلبس الكمامة اللي فيها خل عشان تعرف تتنفس، ولو ضربوا رصاص مطاطي..

لم يكمل سماع الحديث، ولم يشعر بالخوف عكس المتوقع والطبيعي عند سماع شخص مثله لحديث كهذا، فهو بطبعه ليس مناضلًا، بالإضافة إلى أن "عنده عيال عايز يربيهم" كما يقول التعبير الدارج المعبِّر ببراعة عن حالة أمثاله، لكنه أحسَّ على العكس بثقة وبيقين صلب، كان يرى كل من نزل إلى الشارع في تلك الظهيرة "مشروع شهيد"، فالشهداء لم يهبطوا من السماء، وليسوا كائنات فضائية، ربما كان من يسير إلى جواره الآن أحد الشهداء، ربما استشهد بعد ذلك أحد هؤلاء الشباب، وربما يستشهد هو ذاته، داهمته تلك الفكرة وخطفت تفكيره لوهلة، كان أشد ما عجب له أنه لم يرهب لحظتها ذلك الاحتمال، ربما كانت تلك الحشود الثائرة الهادرة من حوله هي ما غيّر ثوابته وقناعاته، ربما كان ذلك القدر الهائل من الطاقة من حوله هو ما جعل

فكرة الموت في نظره هينة وهو الذي طالما خطط للمستقبل كأنه سيعيش أبدًا، إنها الثورة فعلًا، لا يمكنك أن تخطئها.

أصبحت الشوارع الرئيسية في مسار المظاهرة خالية تقريبًا من السيارات، استمرت الأعداد في التزايد بانضمام الناس من الشوارع الجانبية، لم يكن مستعدًّا لكل ذلك، لا يحمل إلا هاتفه المحمول وجنيهات قليلة، لا يحمل حتى محفظته، كان مرتديًا "الشبشب" الذي يذهب به عادة إلى صلاة الجمعة وهو بالطبع غير مريح في المشي لمسافات طويلة، قرر أن يسير مع الجموع حتى يشعر بالتعب فيتركهم ويستقل المترو من أقرب محطة تصادفه عائدًا للبيت، لا يمكنه السير إلى ما لا نهاية ولا يعلم في أي مرحلة سيحدث الصدام الذي سيأتي لا محالة مع الشرطة، لن يشارك في أي عنف بالطبع، كان يتجنب العنف بقدر الإمكان، ليس فقط لأنه لا يقدر بدنيًّا عليه لكن لأنه يمقته بالفعل، يكره العنف، يؤذيه أن يتعرض إنسان لآخر بأي أذى بدني لأي سبب كان، كما أنه كان قلقًا على أسرته التي انقطع اتصاله بها ويجب عليه إيجاد طريقة للاطمئنان عليهم، كان المترو هو الحل الأمثل للعودة فقد أصبحت الشوارع مغلقة تمامًا بالمتظاهرين، راقَ له هذا القرار فترك نفسه للحشود تدفعه في تدفُّقها الصاخب كموجة هائلة، واستمرت الهتافات:

– مصر يا أم.. ولادك أهُم.. دول علشانك شالوا الهم.. دول يفدوكي بالروح والدم.. مصر يا أم.. ولادك أهُم..

- ثورة ثورة حتى النصر.. ثورة في كل شوارع مصر..

- يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة بيننا وبينك..

ثم بدأ ظهور شعار الثورة في الهتافات، لا يعرف أول من هتف به ولا من أين جاء:

- عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية..

وأحيانًا كان يصبح:

- تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية.. كرامة إنسانية..

واصلت الحشود تدفقها الهادر حتى وصلت إلى حيث توجد صورة كبيرة لرئيس الجمهورية، كان ذلك هو الاختبار الأول لسلوك الجموع، اتجه كثير من الشباب نحو الصورة لتمزيقها، ألقى بعضهم بالحجارة على الصورة فظهرت لأول مرة هتافات "سلمية سلمية" ومنعهم العقلاء من قذف الحجارة حفاظًا على سلامة السيارات المجاورة للصورة، تسلق أحد الشباب إطار الصورة المعدني الكبير ومزَّقها، هتف الناس "الله أكبر"، كان يوثّق ذلك المشهد عبر كاميرا هاتفه المحمول، زادت ثقته وسرت في الجموع نشوة اليقين بعد أن شهدوا وصوّر بعضهم الحدث الذي لم يكن ليخطر ببال مخلوقٍ منذ أسبوع فقط، تمزيق صورة الرئيس في قلب العاصمة جهارًا نهارًا وسط تصفيق الجمهور.

ازداد التعاطف والمساندة من الشرفات والنوافذ مع استمرار سير الجموع، كانت الهتافات كثيرة ومتداخلة، مع تضخم المظاهرة انقسمت إلى مجموعات وصار في كل مجموعة شخص يهتف ويردد الباقون هتافه، وكلما تفرقت المجموعات يصفر الشباب لكي يتوقف من هم في المقدمة حتى يلحق بهم الباقون ويعود الجميع ليشكلوا كتلة بشرية واحدة، كان ذلك لأسباب تأمينية يعرفها جيدًا من كانت لهم خبرة سابقة في التظاهر والاشتباك مع الأمن، ثم جاء اختبار آخر لسلوك الجموع عند وصولهم إلى مبنى كبير تابع للحزب الحاكم، هنا حاول بعض المتحمسون إلقاء الحجارة، ولكن عددًا من الشباب وقفوا فورًا ممسكين بأيدي بعضهم البعض مكونين "كردونًا" بشريًّا أمام مدخل المبنى بينما تولى آخرون الإشارة للجموع بالاستمرار في السير، وعلت هتافات "سلمية سلمية" مرة أخرى، وتكرر نفس الوضع أمام قسم الشرطة الذي كان أحد الأقسام الأسوأ سمعةً في المدينة، حيث كان باب القسم مغلقًا بجنزير حديدي ولا توجد عليه حراسة، وكان على سطح مبنى القسم ذي الطابقين ثلاثة أو أربعة أشخاص بملابس مدنية بيضاء ينظرون فقط للمتظاهرين في الأسفل ولا يقومون بأي رد فعل، تكرَّر مشهد الكردون وهتافات "سلمية سلمية" رغم زيادة حماسة بعض المتظاهرين وتهورهم لكن لم يحدث أي اشتباك أو محاولة لاقتحام القسم، وأكملت المظاهرة سيرها في سلام.

استمر في التصوير، كانت لحظات تاريخية ربما لن يشهد مثلها في حياته، كانت اللحظات الأكثر استحقاقًا للتوثيق من كل ما شهده من قبل، أمام مدخل إحدى العمارات في طريق المظاهرة وقفت سيدة أجنبية وبجانبها على ما يبدو خادمة آسيوية تطالعان الحشود، صفقت السيدة بفخر واعتزاز ولوحت بيدها للمتظاهرين في أثناء مرورهم، تضاعفت الأعداد وبدأ سكان العمارات المطلة على الشارع – وبخاصة السيدات – يلقون للمتظاهرين بزجاجات المياه، وكان المتظاهرون بالمقابل يحيونهم بهتاف:

– المصريين أهم.. أهم أهم أهم

استمرَّ التقدم حتى صفّر بعض الشباب مرة أخرى ليتوقف السير، كان الصفير هذه المرة قادمًا من المقدمة التي صارت الآن بعيدة لا يدركها بصره وهو في الوسط فلم يفهم سبب الصفير، فجأة جاءت هتافات من الأمام:

– إرجع.. إرجع.. إرجع..!

ظَنَّ في البداية أن قوات الأمن قد حضرت وأن المواجهة باتت على وشك البدء، سأل العائدين من الأمام فلم يعرفوا سبب الصفير، كان الكل متوترًا فقد كان غالبية المتظاهرين مثله يسيرون في مظاهرة لأول مرة في حياتهم، وهنا ظهرت هتافات قوية قادمة من بعيد جهة الأمام مقتربة ناحيتهم، كانت نفس هتافاتهم تقريبًا ولكن بأصوات أقوى، ثم لاحت من بعيد بشائر حشود

ضخمة من المتظاهرين قادمة في الاتجاه العكسي، كان عددهم أضعاف أضعاف المظاهرة التي يسير فيها؛ ولذلك كان الطبيعي أن ينضموا إليهم لا أن يسيروا في عكس اتجاههم، كان قد بدأ يشعر بالتعب والإرهاق من السير لمسافة خمسة كيلومترات حتى اللحظة، تذكر أنه الآن بالقرب من محطة مترو يمكنه أن يعود منها لمنزله، ولكنه قرَّر لسبب غريزي الاستمرار مع الجموع، توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه وليتابع سير هذه الحشود الغفيرة القادمة ويصوّرها بغرض التوثيق، سمع من بعضهم أنهم قادمون من مناطق شعبية مجاورة، أعدادهم لا نهاية لها، ليست لهم نهاية حقًّا.

بدأ السير في نفس الطريق عائدًا في الاتجاه العكسي، صارت الأعداد الآن أضعاف الأعداد السابقة، كانت غالبية الناس من مستوى اجتماعي أقل من أولئك الذين قدم معهم، لكنهم كانوا أكثر حماسةً وأعلى صوتًا، كان بينهم الكثير من الملتحين وكبار السن ونسبة أقل من البنات والسيدات، وظهرت بوضوح لافتات جماعة الإخوان، تكرر المشهد نفسه أمام قسم الشرطة ومَرَّ الأمر في سلام، نفدَ شحنُ هاتفه المحمول ولم يعد قادرًا على استكمال التصوير، ما زالت الشبكة مقطوعة على أي حال.

استمر السير حتى باتوا قريبين من شارع بيته، حينها لم يعد قادرًا على المواصلة؛ فَقَدْ قطع عشرة كيلومترات سيرًا الآن، ربما كانت تلك هي المسافة الأطول التي قطعها سيرًا على قدميه في يوم واحد طوال حياته، جلس قليلًا

ليستريح عند إشارة المرور القريبة من منزله في انتظار قدوم المظاهرة التي توقفت لأداء صلاة العصر في عرض الطريق، كان بعض المارة ينظمون حركة المرور في ذلك التقاطع الحيوي ويمنعون السيارات القليلة من الاتجاه ناحية المظاهرة، ثم ظهر شرطي المرور وأوقف دراجته النارية بعرض الشارع ليمنع عبور السيارات، مرت سيدة عجوز بدت فقيرة جدًّا وصاحت في اتجاه المظاهرة: "روحوا على القسم، روحولهم ولادال..... دول"، وكانوا بالفعل على بعد أمتار من قسم الشرطة القريب، وصلت المظاهرة أخيرًا بأعدادها الضخمة، لكنه كان قد قرر العودة للمنزل ليرتاح قليلًا ويُعيد شحن هاتفه ويحاول إيجاد طريقة للاتصال بزوجته ليطمئن عليها وعلى الأولاد وتناول بعض الطعام، وربما ينزل مرة أخرى لمواصلة التظاهر والتصوير.

***

في المنزل وجد الأخبار في التلفزيون شديدة الخطورة، مواجهات عنيفة بين الشرطة والمتظاهرين على مداخل ميدان التحرير، كانت صور الاعتداءات على المتظاهرين العُزل بشعة، من قنابل مسيلة للدموع إلى الضرب بالهراوات إلى رش بالماء ودهس بالسيارات المصفحة حتى مشهد الاعتداء على المصلين على كوبري قصر النيل، لن يمر هذا اليوم كأي يوم سابق بالقطع، لم تبلغ الأمور هذا الحد من قبل، حاجزٌ ما تم كسره اليوم، وللأبد.

يدقُّ جرس هاتف المنزل، كيف لم ينتبه إلى ذلك من قبل، كانت شبكات المحمول فقط هي المقطوعة أما الشبكة الأرضية فما زالت تعمل، قطعوا

الإنترنت فقط إذًا ولم يقطعوا الاتصال الهاتفي، أفاق من ذهوله بسرعة ولحق بالاتصال القادم قبل أن ينقطع، كان هو وسيلة تواصله الوحيدة مع العالم الآن، كانت زوجته هي المتصلة، عاتبته في انزعاج شديد على إغلاقه لهاتفه منذ الصباح، كان هاتفها المحمول يعمل، إذًا فالاتصالات ما زالت تعمل خارج القاهرة حيث هي الآن ويمكنه الوصول إليها عبر الهاتف الأرضي حتى تصل إلى حدود العاصمة وعندها سينقطع اتصاله بها، اطمأنَّ عليهم، ونبَّههم إلى خطورة الوضع وضرورة العودة بأسرع ما يمكن، فلا يعرف أحد أو يمكنه توقع ما سيحدث هذه الليلة.

تسارَعَتِ الأحداث كما يشاهد عبر التلفزيون، ثم يأتي المشهد الفاصل في ذلك اليوم بظهور أول مدرعة للجيش قادمة على كورنيش النيل وسط أنباء عن انسحاب قوات الأمن المركزي من الميدان، مراسل القناة غير متأكد ويقول إنه سيسأل ليؤكد خبر نزول الجيش إلى الشارع، لا يعرف حتى الآن هل هذه أخبار جيدة أم سيئة، يرى الناس تلوّح لمدرعات الجيش وتقبّل الجنود لكنه لا يعلم كيف ستسير الأمور الآن بعد أن وصلت لتدخل الجيش، بات الأمر جد خطير.

يظهر على الشاشة بيان عن فرض حظر التجول منذ السادسة مساءً في القاهرة والإسكندرية والسويس، كانت الساعة وقتها الخامسة والنصف! أي قرار أرعن هذا؟ ما هذا التخبط الذي تتصرف به دولة يفترض أنها راسخة

وقوية؟ كيف سيعود كل هؤلاء الناس إلى منازلهم في نصف ساعة؟ وماذا عن زوجته وأولاده؟ أين هم وكيف سيعودون؟ لا يستطيع الاتصال بهم، هاتف زوجته خارج الخدمة! لا سبيل أمامه سوى الانتظار حتى تتصل هي به من أي هاتف أرضي، إذًا فهو لا يستطيع كذلك النزول إلى الشارع ليعرف ما يحدث على الأرض، بدأ الظلام وسَمِعَ دويَّ طلقات رصاص، أصبح الوضع مخيفًا ومقلقًا، خرج إلى الشرفة على أمل استطلاع أي خبر فلم يجد شيئًا في شارعه الجانبي الهادئ، كان الشارع الرئيسي حيث يقع قسم الشرطة موازيًا لشارعه من الخلف، لكنه لا يراه من شرفة شقته، رائحة بارود ودخان في الهواء، ازدادت كثافة الدخان فأحسَّ باختناق بسيط وآلمته عيناه لسبب لا يعرفه، دخل قليلًا ليتابع الأحداث، كانت الأنباء تتحدث عن انفلات أمني واحتراق أقسام للشرطة في القاهرة والسويس والإسكندرية، خرج إلى الشرفة مرة أخرى، لكنه هذه المرة لم يستطع البقاء لثوانٍ قليلة، أصابته حرقة شديدة في عينيه حتى لم يسعه أن يفتحهما، فعاد سريعًا إلى الداخل ووضع وجهه تحت صنبور الماء، ربما كانت هذه هي القنابل المسيلة للدموع التي سمع عنها ولم يجرب التعامل معها من قبل، دويُّ طلقات رصاص كثيفة ودخان ثقيل، عرف فيما بعد أن قسم الشرطة القريب من منزله كان يحترق في تلك الأثناء، لم يدرك كيف تطورت الأمور إلى ذلك الحد، فَقَدْ شَهِدَ مرور المظاهرة في سلام مرتين أمام قسم آخر، هل ترك العقلاء المظاهرة؟ هل انضم لها آخرون؟ هل اندسَّ فيها مخربون؟ لا يعرف، ولا يستطيع أن يفكر.

أخيرًا اتصلت زوجته، كانت تتابع الأحداث حيث هي عبر التلفزيون في حالة ذهول، كان سائق الحافلة خائفًا من العودة للقاهرة على نفس الطريق؛ فقرَّر الذهاب إلى بنها للعودة من طريق آخر! صرخ فيها بأن حظر التجول بدأ وأنتم تتقافزون بين محافظات الدلتا! هل تعرفين معنى حظر التجول؟ سيطلق الجيش النار على أي شيء يتحرك في هذا الظلام! هذا أمر جلل ولا يحتمل العبث، الجيش لا يمزح ولا يعرف التعامل مع المدنيين! لا يذكر ما قال تحديدًا في تلك المكالمة ولا ما قالت هي، لكن المؤكد أنه كان في حالة انهيار تام.

ظهر تنويه عن خطاب للرئيس بعد قليل، في انتظار الخطاب الذي تأخر طويلًا لا يعرف ماذا يفعل، لا يعرف كم من الوقت تعني "بعد قليل" في لغة هذه الدولة العقيمة، اتصلت زوجته بعد ما ظنه دهرًا، كانت على مشارف القاهرة حيث يمكنها التقاط شبكات المحمول بين الحين والآخر، كيف ستصل إلى المنزل قرب وسط المدينة؟ اقترح عليها أن تذهب إلى أقرب بيت إلى موقعها من بيوت الأقارب أو المعارف وألا تخاطر بالدخول إلى وسط المدينة في هذه الظروف، اقترحت بيت خالها في منطقة قريبة من حيث هي، لا بأس، اتصلي بي من هاتف منزل خالك لحظة وصولك، جاءه الفرج بعد ساعة لا يدري كيف قضاها، مرت عليه كعمر كامل حتى جاءه صوتها مطمئنًا بأنها في بيت خالها وستبقى حتى الصباح أو حتى تتضح الأمور،

سقط على الأرض من فرط التأثر والإجهاد والضغط العصبي، بكى حتى هدأ ثم بدّل ملابسه وقرر النزول، هذه المرة سيتوجه مباشرة إلى الميدان.

كان ذهابه إلى الميدان غريزيًّا، أراد أن يشهد اللحظة التي يصنع فيها المصريون التاريخ، لم يكن ذلك كله مسبوقًا بأي حال من الأحوال، بدت له أحداث اليوم كلها كشريط لفيلم سينمائي أسطوري، هل فعلها بنو وطنه أخيرًا؟ هل ثاروا حقًّا على الظلم والقهر؟ هل هزمت حشود المصريين تلك القبضة الأمنية الثقيلة حقًّا؟ كان ذهابه إلى الميدان رغبةً لم يستطع مقاومتها، رغبة في التحقق، في التأكد من أنه لا يحلم، من أن تلك القنوات الفضائية لا تكذب، يتجول وسط الجموع التي استمر تدفقها لتشارك المحتشدين في الميدان، الكثيرون مثله خرجوا من بيوتهم ليشاركوا، كان بيته قريبًا على أي حال وكان يعرف شوارع وسط المدينة وأزقتها كما يعرف كف يده فتمكن من الوصول إلى الميدان عبر طريق آمن، لكن هؤلاء كلهم لا يسكنون وسط المدينة ولا يعرفونها كما يعرفون كفوف أيديهم، ورغم ذلك فقد وصلوا مثله إلى الميدان، وصلوا لأنهم أرادوا الوصول، لقد استجاب القدر عندما أراد الشعب الحياة كما تنبأ أبو القاسم الشابي منذ دهور.

قطع تأملاته رجل اصطدم به دون قصد، التفت الرجل السمين القصير بعض الشيء نحوه واعتذر في ارتباك:

- أنا آسف يا أستاذ معلش العتب على النظر.

كان يبدو على الرجل فعلًا أنه لا يرى جيدًا بنظارته السميكة القديمة وارتباكه الواضح والعرق المتفصد من جبهته البيضاء فرد عليه بابتسامة مطمئنة:

- ولا يهمك حصل خير، إنت كويس؟

(٤)

ديسمبر ٢٠١٢

فتحت عينيها بصعوبة، بدت الأشياء أمامها ضبابية ومبهمة المعالم، جاهدت لتستجمع تركيزها المشتت ولتقاوم ثقل رأسها الشديد، كأنما ضُربت عليه بمطرقة حديدية، جاهدت أكثر لتتمالك نفسها أمام هجمة الهلع التي كادت تعصف بها، إذ تستيقظ فجأة لتجد نفسها في مكان لا تعرفه، لا تتذكر ما جاء بها هنا ولا ما حدث قبل أن تنام، أو قبل أن تفقد الوعي ربما، مرت برهة قبل أن تبدأ ملامح الغرفة في الاتضاح أمام عينيها المتعبتين، وقبل أن تبدأ معها هجمة الهلع في الانكسار، بدا من أثاث الغرفة المعدني وحوائطها ذات اللون الأبيض البارد أنها غرفة مستشفى، أعاد لها ذلك الاستنتاج بعضًا من التركيز لتتذكر تدريجيًّا آخر ما وعت عليه، كانت تركض مذعورة مرتبكة لا تدري إلى أين تفر منهم، كانت حشودهم لا نهائية وكانت

أصواتهم جهورية عدوانية، كانت نظراتهم تفيض بالبغض، أو بالتشفي، كان غالبية الرجال يعرّونها بنظراتهم، لا تدري أيشتهونها أم يتقززون منها؟ أما النساء فكانت في نظراتهن كراهية فجّة، سبّها بعضهن بألفاظ بذيئة، توعّدتها أخريات بأشياء بشعة:

– هندبحك عشان تروحي تتشوي في نار جهنم.

– شعرك اللي فرحانة بيه ده هنحلقهولك بالموس.

– اصبري بس بكرة تيجي تخدمي عندي في البيت.

– الصليب ده مش هينفعك، يا كافرة.

لم تفهم كثيرًا مما كانت تهتف به تلك الحشود إلا أنها رأت العداء واضحًا كالشمس، شاهدت الكراهية تمشي على قدمين، متفاخرةً مزهوةً بغرور هائل، كانوا من كثرتهم يحجبون عنها ضوء النهار، كانوا يحجبون نور الرب عن الأرض، أعداد لا تُحصى من الرجال الملتحين ذوي الجلابيب القصيرة والأزياء الغريبة التي لم تصادفها إلا على شاشات التلفزيون حين تعرض نشرات الأخبار لقطات لتلك البلاد الجبلية التي لا يكف أهلها عن التقاتل، قندهار ربما أو تورا بورا أو شيء كهذا، ما الذي أتى بهؤلاء إلى بلادنا التي لم تعرف تلك الثياب من قبل؟ كانت ملامحهم غليظة ثقيلة، كانوا يسيرون في المقدمة ومن خلفهم نساء كثيرات يغلب عليهن السواد، كتل هائلة من القماش

الأسود المعتم لا تظهر منها أي وجوه، فقط عيون قاسية كارهة وأصوات تردد ما يقوله الرجال بأصوات أقل جهورية، كانوا يملؤون الشارع الواسع في استعراض واضح للقوة أمام أهالي ذلك الحي الشعبي العريق، كانوا يريدون أن يوصلوا لنا رسالة مفادها أنهم باتوا يسيطرون على البلاد وأن لا مكان لنا بينهم بعد اليوم، كانت رسالتهم واضحة، الحكم سيكون للإسلام وسيأتون بشيخهم البدين ذي اللحية الطويلة ليصبح رئيسًا للجمهورية بعد ذلك الإخواني الذي لا يملأ مركزه، ثم لن تكون هناك أي جمهورية بعد ذلك، كانت خائفة كما أرادوها أن تكون، كان غالبية سكان الشارع خائفين، حتى المسلمون منهم كانوا خائفين، كانت عائدة من عملها منهكة متعجلة لتجهز طعام الغداء قبل أن يعود زوجها من عمله منهكًا هو الآخر، لم تعرف ما لفت نظرهم إليها فلم تكن يومًا فاتنة أو جذابة في أعين الرجال، هي امرأة عادية في أواخر الثلاثينيات ترتدي ما ترتديه موظفة متوسطة الحال في يوم عمل معتاد، لا ملابس مثيرة ولا مساحيق تجميل، شعرها متوسط الطول معقوص في حلقة صغيرة تتدلى أطرافه خلف رأسها كذيل الحصان، حتى عطرها الرخيص زال أثره بعد يوم طويل في العمل، رغم ذلك استفزهم مرورها بجوارهم، استفزهم ربما وجودها في حد ذاته، تصايحوا في وجهها وسبّوها بل وحاول بعضهم التحرش بها لولا أن ركضت هاربة لا تجد لها مخرجًا من تلك الحشود اللانهائية، ركضت مذعورة باكية، لم تعد ترى أين

تخطو قدماها من فرط الارتباك والخوف والبكاء، كان آخر ما تتذكره هو صيحات متداخلة لا تعلم مصدرها:

-حاسب.. حاسب..

***

دخلت إلى الغرفة في هدوء ممرضة صغيرة السن مرتدية ذلك المعطف الأبيض النظيف وبادرتها بالسؤال مبتسمة بحنان بالغ:

- القمر صحي؟ يا ألف نهار أبيض.

ردت بقلق وارتباك:

- هو أنا فين لو سمحتي؟ هو إيه اللي حصل؟ أنا جيت هنا إمتى؟

اقتربت منها وساعدتها ليعتدل ظهرها ثم وضعت خلفه وسادتين، ما إن اعتدلت حتى فوجئت بساقها اليمنى في جبيرة كبيرة وبآلام مبرحة في ظهرها وكتفها الأيمن فصرخت من الألم، هدأتها الممرضة وساعدتها حتى تجلس في وضع مريح ثم قالت:

- إنتي يا ستي في مستشفى الكنيسة، جيتي آخر النهار كده وكنتي مغمى عليكي، ولاد الحلال جابوكي هنا لما شافوا الصليب في رقبتك، الدكتور جبّس لك رجلك لغاية الركبة وعندك شوية كدمات في الكتف والدراع

اليمين بس دول هيخفوا علطول ببركة أم النور، ممكن الدكتور لما يشوفك تاني يكتب لك خروج على بكرة بس الجبس هيقعد ست أسابيع.

استمعت في هدوء فقد كانت قد استنتجت ذلك بنفسها بالفعل، لكنها سألت في حيرة:

– هو إيه اللي حصل؟ إيه اللي كسّرني كده؟

اتسعت عينا الممرضة في دهشة كبيرة وسألت بدورها:

– هو انتي مش فاكرة؟ ماحسيتيش بالخبطة؟

– خبطة إيه؟ هما ضربوني؟

– مين دول اللي ضربوكي؟ ده واحد ابن حرام كان سايق عربية بسرعة وانتي بتعدي، هما بيقولوا ان انتي برضه عديتي فجأة وكنتي بتجري ومش واخدة بالك، انتي كنتي بتجري ليه؟

تجاهلت سؤالها وسألتها:

– مين اللي خبطني؟ هو فين؟

زمت شفتيها في امتعاض وأجابت:

– هرب ابن الكلب، ماوقفش حتى يشوف جرالك إيه! تلاقيه واد صايع أمه هي اللي جايباها له ولا حرامي كان سارق العربية، ما هي سرقة العربيات انتشرت أوي بعد الثورة دي والدنيا مابقتش أمان زي أيام زمـ..

قاطعتها وقد اكتست ملامحها بالرعب:

- يعني هو تبعهم؟ كان بدقن؟ طب حد أخد نمرة العربية؟

ردت بعدم فهم:

- تبع مين مش فاهمة! إنتي شكلك لسه تعبانة يا حبيبتي ومحتاجة ترتاحي، أنا عارفة الخبطة دي بتأثر على التركيز، ممكن تكون دماغك خبطت في الأرض لما وقعتي، الدكتور قال هيعملك أشعة على دماغك.

استطردت بسرعة وبنبرة متلهفة:

- الناس اللي كانوا عاملين المظاهرة، كانوا بيجروا ورايا، هما اللي خبطوني؟

- لأ اللي قالوه الناس اللي جابوكي إنها كانت عربية ماشية بسرعة وانتي بتعدي، محدش لحق ياخد نمرتها بس قالوا انها عربية حمرا ونوعها حاجة كده من الأنواع الجديدة دي مش فاكراها بصراحة.

قالت وهي تحدق إلى الحائط بنظرة فارغة وكأنها توجه حديثها لشخص غير موجود:

- أنا عارفة انهم هما اللي خبطوني، أكيد واحد تبعهم، هما قالولي هندبحك، أنا كنت بجري منهم، أنا معرفش إيه اللي جرى في الدنيا! أنا عملتلهم إيه

عشان يطاردوني كده في كل حتة! في الشغل واحد زميلي بقاله في المكتب معايا فوق العشر سنين، أنا أقدم منه أصلًا، أنا اللي دربته أول ما جه ما يعرفش حاجة، أهو بقاله كام شهر مربي دقنه وجاي يقولي بلاش الصليب اللي انتي معلقاه في رقبتك ده عشان بيستفز مشاعر زمايلك المسلمين! قلتله أنا عمري ما قلعت الصليب ده، قاللي طب دخليه جوه الهدوم! تخيلي؟! دلوقتي بس بقى بيستفزه الصليب؟ مكانش بيستفزه وهو قاعد قدامي زي التلميذ بيتعلم الشغل؟

وضحكت في مزيج من السخرية والمرارة ثم أردفت ولا تزال تنظر في غير اتجاه الممرضة التي وقفت تطالعها فيما بين الذهول والإشفاق:

– ولّا الواد ابن جارتي اللي خبّط عليا وقالي لو سمحتي وطّي صوت الترانيم اللي بتشغليها في المطبخ! ومرة ندهت له عشان أبعت معاه حتة ديك رومي بتاع العيد عشان يديه لأمه راح قايللي بكل قلة ذوق إحنا بنحتفل بأعيادنا بس يا مدام! ده مولود على إيدي الواطي ده! أنا اللي شفت خلقته قبل أمه نفسها ما تشوفه! دي أمه ياما قالتلي علّي صوت الترانيم عشان اسمعها من شباك المطبخ، وأنا اللي طول عمري بحب اللحمة الضاني اللي أمه بتبعتهالي في العيد بتاعهم، منا الفريزر عندي مليان لحمة نشكر الرب، بس برضه بحب طعم لحمة أمه أكتر، عشان بيبقى طعمها محبّة، بتبقى فيها

ريحة العشرة، دي أمه حتة سكرة وابوه راجل طيب! أمال الواد ده طالع قليل الرباية كده لمين؟!

ثم انتبهت فجأة وكأنما أفاقت من حلم وقالت بجدية:

- هو انتو اتصلتوا بحد؟ كلمتوا جوزي؟

ردت الممرضة وقد عادت إليها الابتسامة الرائقة:

- أيوة يا قمر، الحب جالك يجري أول ما وصلتي هنا، الناس اللي جابوكي طلعوا نمرته من موبايلك وكلموه، آه صحيح حاجتك كلها في الدرج هنا على فكرة، الموبايل والشنطة، راجعي عليهم لا تكون حاجة ضاعت.

قالت شاكرةً وقد عادت إليها الطمأنينة:

- شكرًا، بس هو راح فين؟

- راح يجيب لك حاجة تاكليها، الدكتور قال له إنك هتنامي شوية عشان البنج، زمانه جاي دلوقتي، هسيبك ترتاحي شوية ولما ييجي معاد المسكّن هبقى أرجع لك، الحب زمانه جاي، هقوله يدخلك بس بلاش شقاوة ها؟

وضحكت في مرح وود ثم خرجت في هدوء ونعومة كفراشة ملونة وأغلقت الباب.

***

أراحت ظهرها على الوسادة وتنهدت بارتياح، شكرت الرب على نجاتها وتمتمت ببعض الصلوات في صوت هامس، كان لديها شغف لرؤية زوجها وطمأنته، لا شك في أنه مُلتاع عليها، ليس لها في هذه الدنيا غيره وبعض الأقارب البعيدين، مات أبوها وأمها منذ سنوات ولم تُرزق بأطفال، كان هو من عوّضها الرب بحنانه وحُبِّه عن الحرمان من الأمومة وعن فِقدان الأب والأم والحبيب القديم، لا تدري لم تذكرت ذلك الحبيب الآن، أو ربما لم تكن قد نسيته يومًا، كأنه كان معها بالأمس، في الجامعة، هناك تحت شجرتها المفضلة التي حفظا تفاصيل فروعها وعدد أوراقها، كانت الشجرة تعرفهما كذلك وتكاد تعاتبهما على الهجر عند أول لقاء بعد غيبة الصيف الطويلة، تشهد عليهما تلك الشجرة العجوز، لو قطعوها لوجدوا بداخل جذعها الضخم شريط ذكريات لا ينتهي، ذكرى لمسة اليدين الأولى، وذكرى معطفه الذي ألبسها إياه يوم المطر الغزير المفاجئ في السنة الدراسية الثالثة، ذكرى الهدية التي ادخرت لها كل ما حصلت عليه من مال من والدها لشهور، أهدتها له هناك عند تلك الشجرة وتمنت عندما رأت لمعة الحب في عينيه يومها لو ادخرت له من عمرها أعوامًا لا مجرد نقود، وذكرى الجرح الغائر على جبهته ونظارته المكسورة كذلك، فليست الذكريات كلها جميلة، بل إن بعضها أقسى من طلقات الرصاص، لا تزول قسوته ولو بعد حين، يوم أن اجتمع عليه هؤلاء الشباب الحمقى الذين يعرفها أحدهم من الكنيسة وقد أغضبته

تلك العلاقة بين فتاة من شعب كنيسته وشاب مسلم فاعتبر ذلك تعديًا من المسلمين على بنات دينه، كان متطرفًا بغيضًا، بعض الناس أوغاد بالفطرة، هكذا ولدتهم أمهاتهم، إنهم حتى لم يبذلوا جهدًا ليصبحوا كذلك! استطاع أن يجمع بعض أمثاله من المتطرفين الجهلاء وتهجّموا على حبيبها خارج بوابة الجامعة، قاومهم ولم يستسلم لكنهم تكاثروا عليه وكان وحده فكانت لهم الغلبة، خرج من المشاجرة بجرح كبير على جبهته وبنظارة مكسورة وكدمات وخدوش متفرقة في ذراعه، يومها كان بداية الزمن القصير الذي أدارت فيه الدنيا وجهها بعيدًا عنها، تلاحقت الأحداث بعد ذلك فعلمت الكنيسة بالأمر وحاول القس الطيب هناك أن ينصحها بالعدول عن ذلك الطريق المؤدي للمتاعب، ووجَّه بعض الراهبات لإشراكها في مهام التطوع الخيري التابعة للكنيسة لعلها تشغل فراغها وتطهر روحها، علم أبوها كذلك فثار وغضب وهدد بقتلها قبل أن يقتلها أقاربه في أسيوط، بكت أمُّها طويلًا وحمّلتها مسئولية موتها كمدًا إن هي جلبت العار لأبيها أمام عائلته الصعيدية المحافِظة، لم تكن تفهم – ولم تزل – ما العار الذي يستوجب التهديد بالقتل في حبها البريء لزميل يبادلها نفس الشعور، إنه لم يحاول حتى أن يلمس جسدها واكتفى بتلاقي أيديهما خلسة عندما تهدأ حركة الطلبة، لم يواعدها خارج أسوار الجامعة قط، صرّح لها بوضوح باستعداده للتقدم لخطبتها حتى قبل أن يتخرج، لكنها طلبت منه التمهل حتى تكون في حوزته شهادة جامعية تقوي

موقفه أمام والدها الموظف الحكومي العتيد الذي يراعي التقاليد في كل شيء ويدير البيت كما يدير قسم التوريدات الذي يرأسه في شركة القطاع العام العتيقة التي قضى بها عمره، لن يقبل أبوها بشاب لا يملك وظيفة محترمة وثابتة وحبذا لو كانت حكومية، لم تكن تدري وقتها أن تلك كانت أهون العقبات في طريقهما، لم تكن قد احتكّت كثيرًا بهذا العالم القاسي، ولم تكن قد واجهت تصنيفاته الحمقاء العمياء التي تضع ملصقًا إجباريًّا على جبهة كل إنسان يحمل تصنيفه الذي سيعامله المجتمع على أساسه أينما ذهب، كان الملصق الذي على جبهتها يحمل كلمات "أنثى – مسيحية – جامعية – قاهرية – من الطبقة المتوسطة"، ولم يخطئ المجتمع مرة واحدة في تعامله معها بناءً على تلك التصنيفات، يخطئ المجتمع ليل نهار وفي كل شيء، إلا في التعامل مع البشر على أساس تصنيفهم.

انتهت قصة حبها القديم سريعًا فقد ضغط أهل الشاب عليه من ناحية أخرى بعد توتر الأجواء والتهديدات المبطّنة ثم الصريحة اللي تلقتها الأسرتان من الأقارب تارة ومن رجال الدين من الطَّرفين تارة أخرى، ثم من رجال أمن الدولة تارة ثالثة، كانت تلك الثالثة هي التي وضعت كلمة النهاية على تلك القصة، فقد سافر الشاب إلى السعودية عقب تخرجه مباشرة بعقد عمل دبَّره له عضو البرلمان الذي توسط لوأد الأزمة في مهدها، لم تسمع عنه بعدها، لعله تزوج، بل الأكيد أنه تزوج وصار له أطفال كثيرون، فقد

كان يحب الأطفال، لطالما حلما معًا بإنجاب ولدين وبنتين، تبتسم في رضا وتفكر، الرب وحده يدبر هذه الأمور فربما لو كانت قد تزوجته لانتهت قصتهما بالطلاق لأنها لا تنجب والرجال كلهم يحبون الذرية، صحيح أن زوجها يحبها رغم أنها لا تنجب، لكنه غير كل الرجال، كان هدية السماء لها بعد أن بكت كثيرًا أمام العذراء الممتلئة نعمةً تلتمس منها بعض النور وهي أم النور، هو إنسان رقيق وهادئ والأهم من ذلك أنه يحبها لدرجة تخجلها من نفسها عندما تشعر أنها لا تحبه بنفس القدر، تحبه بالطبع لصفاته الطيبة ولأنه يغمرها بالحنان، لكن ليس كحبها القديم، ربما لأنها كانت صغيرة، ربما لأن حب الجامعة بلقاءاته المتباعدة ومغامراته وكل ما يحيط به من إثارة غير حب الزواج والمسئولية والعشرة، لا تعرف، هي زوجة سعيدة بلا شك، لم تكن لتطلب من الرب أكثر مما منحها، لكن الأمر لا يخلو من ذكريات تطلُّ من خلف جدران الواقع كل حين لتذكرها بعالم آخر ساحر وبأحلام غير مكتملة وبسماوات بعيدة حلَّقت فيها يومًا، وغمرها ذلك التحليق الخاطف بالبهجة لبقية عمرها.

***

عاشت سنواتها اللاحقة على خسارتها لحبها الوحيد في فراغ، لم يكن ثمة طعم لأي شيء، حتى نجاحاتها في الدراسة ثم في العمل لم تكن تسعدها،

كانت فقط تعينها لكي تستمر الحياة، حتى التقت بزوجها الذي غمرها بعاطفة فياضة أحيت فيها المشاعر الإنسانية التي كانت في سبات منذ زمن، مشاعر الاشتياق والفرح والغيرة والحنين، عادت إنسانة طبيعية، لم تعد جمادًا يمارس حركات ميكانيكية ليبقى موجودًا، بل أصبحت موجودة لكي تستمتع بمشاعر البشر الطبيعيين، لم تعد تذكر كيف كانت حياتها وملامحها قبل أن تلتقيه، لم يبقَ في ذاكرتها من حياتها السابقة إلا ذكريات مدفونة عن تلك الشجرة في الجامعة، عادت تخالط الزملاء وتكتسب صداقات جديدة، كانت صديقتها الأثيرة هي زميلتها في العمل، أحبتها وأحبت ولديها الصغيرين الذين شهدت مولدهما وكبرا تحت نظرها حتى صارت لهما أمًّا ثانية، استضافتهما في بيتها أحيانًا لأيام حين كانت صديقتها تريد اختطاف إجازة مع زوجها وحدهما دون إزعاج الصغار، كانت تلك أسعد أيام حياتها، ملأ الصغار أيامها مرحًا وبراءة وحياة، عاشت معهما مغامرات ورحلات كثيرة، يوم أن أنقذت الصغير من الغرق في حمام سباحة النادي حين لم يلتفت إليه المدرب وهو يضرب الماء بذعر، ألقت بنفسها في الماء وهي التي لا تعرف السباحة لتخرج الولد، لم ينقذها إلا قلة عمق الماء في المكان المخصص للصغار، ويوم ذهبوا إلى الرحلة النيلية بين الأقصر وأسوان اشترت كتبًا كثيرة عن آثار مصر القديمة وذاكرتها جميعها وقامت بدور المرشد السياحي للصغيرين طوال الرحلة، تشرح لهم تاريخ المصريين القدماء وحضارتهم،

وتحكي لهم قصة كل ما يمرون به من معابد ومقابر حتى ظنها الكثيرون من مرافقيهم في الرحلة مرشدة سياحية محترفة.

لكن أكثر أيامهم إثارة كانت ذلك اليوم الذي ذهبوا فيه إلى تلك القرية الريفية خارج القاهرة في يوم الجمعة المشهود ذاك، يوم تأخروا في الصباح على موعد المغادرة وظلت واقفة بجوار الحافلة تنتظرهم وتحاول دون جدوى الاتصال بأمهم، ظنت وقتها أن هاتفها أصابه عطب ما فأصابتها عصبية وغضب شديد خوفًا من أن تغادر الحافلة دون الصغار وأمهم، فلولاهم ما كانت لتذهب في رحلة كهذه، ما كانت لتذهب إلا بهم ومعهم ومن أجلهم، عندما شاهدت سيارة والدهم من بعيد أشارت لسائق الحافلة في سعادة فقد وصل من كانوا ينتظرون، كان يومًا لا يُنسى، بدأ بالقلق وانتهى بالرعب، وبينهما سويعات من المرح والسعادة في صباح مشمس دافئ وسط الحقول الشاسعة والريف الوديع حتى بدأت الأخبار تأتي من القاهرة، وكأن القاهرة لا تريد أن تترك لهم يومًا واحدًا بلا ضجيج وبلا أخبار مزعجة، بدأ الزملاء يتناقلون الأنباء عن المظاهرات التي تجتاح البلاد وعن المواجهات مع الأمن ثم احتراق الأقسام وانسحاب قوات الشرطة والمخاوف من انفلات أمني متوقع، ثم انتشار الجيش في الشوارع وأخيرًا بيان إعلان حظر التجول الذي استمعوا إليه عبر التلفزيون الصغير في البيت الريفي حيث تجمعوا واجمين غير مصدقين تسارع الأحداث التي يشاهدونها كأنما يتابعون فيلمًا سينمائيًّا من

النوعية الخيالية! لم يكادوا يمضون نصف يوم خارج حدود العاصمة حتى تحولت لمدينة أخرى، لم يتخيلوا بأي حال حين كانت الحافلة تغادرها بهم في الصباح أنهم لن يعودوا مطلقًا لتلك المدينة، لم يخطر ببالهم أنهم يشاهدون القاهرة كما هي للمرة الأخيرة وأنهم سيعودون لمدينة مختلفة كليًّا، وكأن مدينتهم كانت تنتظرهم ليخرجوا منها حتى تبدل جلدها وتتحول، ظلوا يتخبطون لساعات باحثين عن أكثر الطرق أمنًا، أو في الواقع عن أقل الطرق خطرًا لدخول مدينتهم، المدينة التي وُلدوا وتربوا فيها وألفوها لعشرات السنين يدخلونها اليوم متسللين من دروب خلفية كالجواسيس، صارحهم السائق بوضوح بأنه لن يستطيع العودة بهم إلى مقر الشركة حيث غادر بهم صباحًا؛ فالطرق غير آمنة، والحافلة مسئوليته الشخصية، ولن ينفعه أحد إذا قتله البلطجية أو استولوا على الحافلة التي يعمل عليها ولا يملكها، قال إنه سيوصلهم إلى أقرب نقطة آمنة داخل المدينة يمكنهم بعدها أن يتصرفوا كلٌّ بطريقته، بدا حديثه منطقيًّا فلم يكن من الممكن أن يخترقوا الشوارع إلى وسط المدينة في هذا الوقت من الليل، وفي تلك الظروف الخطرة، فكرت السيدتان فيما يمكن أن تفعلانه لتصلا بالطفلين إلى أقرب منزل لهما فيه قريب أو صديق، كما نصح زوج صديقتها في آخر اتصال استطاعت القيام به معه، بعدها باءت كل محاولات الجميع للاتصال بذويهم بالفشل منذ دخلوا حدود العاصمة، حين أنزلهم السائق في منطقة سكنية هادئة كانت هي وصديقتها والطفلان في

العراء بكل ما تعنيه الكلمة، في منتصف اللامكان، ليل مظلم، منطقة نائية، صوت طلقات رصاص من مصادر لا يمكنهم تحديدها، وأخيرًا اكتمل المشهد بقدوم ذلك الوحش المعدني الضخم، دبابة أو مدرعة، لا يعرفون بالتحديد، فلم يشاهدوا مثلها من قبل إلا في الأفلام، أنّى لهم أن يشاهدوا دبابة في القاهرة؟ كان صرير الجنازير المعدنية التي تجرح أسفلت الشارع وسط ظلام دامس وسكون مطبق يبث في نفوسهم الرعب، كان الطفلان يرتجفان في هلع حقيقي منعهم حتى من البكاء، سارتا بحذر تحمل كل منهما أحد الطفلين، كان لصديقتها خال يسكن تلك المنطقة لكنها من فرط الرعب والظلام لم تعد تميز الشوارع ولا البيوت، واصلتا السير تصم آذانهما أصوات طلقات الرصاص فتغطيان بكفيهما آذان الطفلين المرتعبين بما فيه الكفاية، يعلم الرب وحده كيف اهتدت صديقتها أخيرًا إلى بيت ذلك الخال فصعدتا الدرج بسرعة البرق كما لو كانت وحوش الأرض كلها تطاردهما، وما إن فُتح لهما الباب حتى تهاوتا على الأرض متجاورتين لاهثتين، تداخلت همهماتهما لا تدري أيتهما تردد الشهادتين؟ وأيتهما تتلو صلوات الشكر للرب؟ ثم انهارتا معًا في بكاء طويل.

(٥)

ديسمبر ٢٠١٢

بتثاقل شديد ينهض الجندي المكلف بتفتيش السيارات من على مقعده البلاستيكي الذي وضع عليه طبقات من الكرتون ممسكًا بلجام الكلب البوليسي الضخم، دار ببطء حول سيارة الأجرة البيضاء صينية الصنع المتخمة بملصقات وإضافات رديئة التصميم زاعقة الألوان تكاد تخفي ملامحها الأصلية، دون أن يتكلف عناء فتح فمه في هذا المساء البارد اكتفى بنقرات من إصبعه على غطاء الصندوق الخلفي للسيارة فهم السائق فورًا ما تعنيه، ففتحه له من الداخل، ثم ألقى إليه بنظرة نافذة الصبر عبر المرآة الجانبية حيث اكتفى بالجلوس في مقعده، لا يريد النزول لبرودة الجو أولًا ثم لخوفه من الكلب المخيف حقًّا، أغلق الجندي الصندوق بعنف يناسب باب سيارة أجرة قديمة في الأرياف وتقدم إلى نافذة السائق الذي كتم حنقه ورغبته في

سب الجندي بلفظ بذيء، ألقى الجندي نظرة سريعة داخل السيارة تفحص فيها الشاب الوسيم الأنيق الجالس بجوار السائق ثم قال بنبرة فارغة من أي تعبير، لا فيها ترحيب ولا تهذيب ولا حتى حزم:

- رخصك وتذكرة الأستاذ وجوازه.

لم يبدُ على الجندي أنه ميّز شيئًا في الورقة التي ناوله إياها الشاب باعتبارها تذكرة سفر، قلب الورقة وتصفّح جواز السفر بهدوء كمن يقيّمهما بالشكل فقط كإجراء روتيني يمارسه بحركات ميكانيكية بحتة أكملها بجملة لم يبدُ أيضًا أنه ينتظر عليها أي إجابة ولا أن أي إجابة سيكون لها عنده مردود يختلف عن غيرها:

- مسافر فين يا أستاذ؟

كان مدوّنًا في التذكرة الإلكترونية المطبوعة التي في يده بالطبع وجهة السفر وموعد الإقلاع وشركة الطيران وكل ما يريده من معلومات، لكن الشاب لم تكن به أدنى طاقة للجدال فأجاب مباشرة:

- دبي ان شاء الله.

أعاد الجندي للشاب أوراقه وللسائق رخصتيه ثم ذهب ساحبًا وراءه الكلب ليفتح البوابة المعدنية دون أن ينطق بأي كلمة.

كانت طائرة كبيرة تهبط إلى المطار في لحظة عبورهما لبوابة مواقف السيارات حاملة شعار عين حورس بلونه الأزرق السماوي الزاهي شاغلًا الجزء الأكبر من جسمها الانسيابي وقد أفلتت عجلاتها لتبدو كمخالب طائر هائل الحجم متحفزة لاحتضان الأرض، وسط أزيزها العالي قال السائق شيئًا لم يتبينه الشاب فهز رأسه مستفهمًا في ضجر، فردد السائق بصوت بدا أعلى من اللازم بعد أن مرت الطائرة واختفى ضجيجها وراء مبنى المطار:

– بقول ربنا يخرّجنا منها بقى زي الخلق دي كلها، يا بختك يا أستاذ.

أراد أن يجيب لكنه كان فارغًا من أي رغبة في النقاش، فاكتفى بأن أخرج محفظته وأعطى للسائق أكثر من القيمة التي ظهرت على شاشة العداد الرقمية بعشرين جنيهًا، دس السائق النقود في علبة كرتونية داخل المخدع المجاور له دون كلمة شكر بعد أن فحصها وقدّر قيمتها لحظة بنظرة خبيرة ثم قال للشاب الذي كان يهم بمغادرة السيارة حاملًا حقيبة سفر صغيرة:

– طب ما تشوف لي عقد عمل عندك في دبي يا مدير، أنا معايا معهد خدمة اجتماعية خد بالك يعني ممكن اشتـ..

لم يسمع الشاب بقية حديث السائق فقد كان قد غادر السيارة على عجلٍ، وهرول متجهًا إلى مدخل صالة المغادرين ساحبًا وراءه حقيبته الثمينة ذات العلامة التجارية العالمية على بلاط الرصيف العريض الأملس المبتل من أثر

المطر الخفيف الذي لم يزل يتساقط في خفة كان من المفترض أن تكون منعشة، لكنها بالنسبة له – في ذلك المساء بالذات – لم تكن كذلك.

***

كان الشاب الوسيم طويل القامة ذو الملابس الأنيقة التي يختارها بعناية من أرقى العلامات التجارية التي فتحت فروعًا لها في القاهرة في السنوات الأخيرة بعد أن اعتاد أن يجلبها من فروعها في دبي أحيانًا وفي لندن أو روما أحيانًا أقل، كان على الدوام أحد المشاهير أينما حل، في الكلية، في النادي، في الضاحية الهادئة الراقية التي يسكنها غربي العاصمة، حتى على تطبيقات التواصل الاجتماعي التي ازدهرت حديثًا مع انتشار الهواتف الذكية كان له عشرات الآلاف من المتابعين والمعجبين حتى أن بعضهم كان يستوقفه في الطريق أو في مركز التسوق ليلتقط معه صورة، لم يكن مشهورًا كناشط سياسي أو حقوقي كما هي الموضة التي ازدهرت بعد الثورة، بل كان مشهورًا بحياته المرحة السعيدة، كان أحد أشهر الملهمين أو المؤثرين، أو كما يُطلق عليهم في الفضاء الإلكتروني "influencers"، كان يبهر متابعيه بالصور التي ينشرها لأسفاره ومغامراته في بلدان كثيرة لم يسمع بعضهم بها من قبل، أو لجسمه الرياضي المتناسق الذي يعتني به كثيرًا، ويواظب من أجل إبقائه مشدودًا ومتناسقًا على برنامج شاق وصارم من التمارين اليومية التي اعتاد أن

ينشر صورًا له في أثناء ممارستها كذلك، فيُبهر متابعيه أكثر وأكثر، أو لسياراته الرياضية التي يهواها ويبدلها كثيرًا، كان نموذجًا ملهِمًا للشباب الطامح إلى ذلك النمط من الحياة، وكان كذلك نموذجًا لفتى أحلام المراهقات بوسامته وجسمه الفارع وأناقته وثرائه الواضح، كان يحب تلك الشهرة ويجد فيها بعض التعويض عما فقده من دفء الأسرة وحنان الأب، منحته الشهرة بعض الإشباع العاطفي، وجعلته محاطًا في كل الأوقات بالمحبين والمعجبين والمادحين، لكنها لم تمنحة السعادة قط.

كان قد قضى طفولته في الدمام على ساحل الخليج العربي حيث يعمل والده من قبل أن يولد بسنوات، وحيث ما زال يعمل بعد أن تدرج في الوظائف منذ بدأ مهندس بترول حديث التخرج إلى أن بات يشغل منصبًا قياديًّا في مؤسسة عالمية كبرى تعمل في مجال الصناعات البترولية ويتولى إدارة مشروعاتها في منطقة الخليج بأكملها، لم يعد الرجل يعرف شيئًا عن مصر التي هجرها منذ ما يقارب الثلاثين عامًا إلا مواقع أملاكه من عقارات وأراض يخزّن ويستثمر فيها أمواله بدلًا من إيداعها في البنوك التي يعتبر التعامل معها حرامًا، بات يمتلك من الأصول والعقارات ما يحتاج لشركة كاملة تتفرغ لإدارتها وتأجيرها وصيانتها وتحصيل ريعها ثم إعادة استثمار الريع في سداد أقساط عقارات جديدة وهكذا، لم يكن يحضر إلى مصر إلا كل عامين أو ثلاثة كلما اضطره الواجب الاجتماعي لحضور عزاء أو زفاف أو مناسبة مهمة، أيامًا

معدودة يقضي أغلبها متذمرًا من العشوائية والبيروقراطية وعدم الانضباط المروري وتراكم القمامة وتردي مستوى الأخلاق، لذلك فقد ترك شأن إدارة تلك العملية الاستثمارية المعقدة لابنه الأكبر الذي أَصَرَّ على الاستقرار بمصر بعدما أصبح شابًّا وسيمًا طويل القامة، ولم يعد يطيق الحياة المحافظة المقيّدة في السعودية، فالتحق بجامعة أجنبية خاصة غربي الجيزة، وأقام في إحدى شقق أبيه الفاخرة في أحد التجمعات العمرانية الجديدة القريبة من الجامعة، وتولى إدارة ممتلكاته المتناثرة ما بين القاهرة بضواحيها الجديدة غربًا وشرقًا، وبين منتجعات الساحل الشمالي وجنوب سيناء والبحر الأحمر، كَفَلَ له ذلك العمل نمط حياة حافلًا بالتنقل وأموالًا، غزيرة وحرية كاملة بعيدة عن أي رقابة، خاصة بعد أن أقنع والده باستثمار بعض أمواله في عقارات دبي التي أحب نمط الحياة فيها بما تقدمه من تفاعل مع جنسيات وثقافات متعددة فأراد أن يكون له ما يبرر قضاء بعض الوقت هناك بين الحين والآخر حيث انتقل إلى مستوى آخر من العلاقات والإمكانات، وازدهرت شهرته وقاعدة متابعيه ومعجبيه أكثر وأكثر.

لم يكن يفارقه شعور الوحدة رغم ما يحيط بحياته من هالات الشهرة والمال ورغم ما يملكه من أصدقاء وعلاقات متشعبة في مختلف الأوساط بحكم عمله في إدارة ثروة والده وبحكم شهرته الشخصية، فقد كانت له رغم عمره الصغير علاقات صداقة وعمل مع فنانين وإعلاميين وسياسيين

ورجال أعمال ومستثمرين وتجار ومسئولين حكوميين لا في مصر فقط بل وفي الخليج وفي بريطانيا وروسيا والهند ودول أخرى، كما كانت له بالطبع معجبات كثيرات وعلاقات نسائية عابرة في دول مختلفة، كانت حياته باختصار هي النموذج الأمثل لأحلام الشباب في تلك المرحلة من العمر، أموال غزيرة وسيارات رياضية وسفر ومظهر جذاب وفتيات والقليل من المكيفات بالقدر الذي لا يعرض مظهره الرياضي ولا مكانته الاجتماعية لأي ضرر، إلا أنه لم يعرف الحب قط، لم يجرب تلك المشاعر التي طالما سمع عنها في أغنيات الحب، وفي أفلام العشق والرومانسية، كان يعتبر تلك المشاعر على أي حال ضربًا من الوهم الذي يروجه منتجو الأعمال الفنية أو هي على أفضل تقدير كالتوابل التي توضع على الطعام فتمنحه مذاقًا مميزًا رغم أنه في الأصل بلا طعم مميز، كان قد أدرك بخبرته أن أجساد النساء جميعهنّ سواء، مهما اجتهدن في تجميل مظهرهنّ الخارجي بالملابس وبمساحيق التجميل وقصّات الشعر لتتميز إحداهنّ على الباقيات فالنتيجة النهائية في الفراش – وهو ما يهمه على أي حال – كانت واحدة، لذلك بات يؤمن بأن مشاعر الحب هي مساحيق التجميل التي يضعها الموسيقيون على ألحانهم لتصل إلى قلوب الناس ويضعها المخرجون على قصصهم لتصبح أفلامًا ناجحة، لكنه لم يعتقد قط بوجود ذلك العشق الذي لم ينفك شعراء وأدباء كل الأمم منذ قديم الأزل يتغنون به، لازمه هذا الاعتقاد طوال عمره، أو تحديدًا طوال عمره السابق على يوم شم النسيم الماضي، فقد كان ذلك اليوم هو نقطة

التحول الرئيسية في مسار حياته كمن كان يركب قطارًا ثم توقف في محطة ما ليركب قطارًا آخر في اتجاه مختلف، كان ذلك الصباح هو المحطة التي غيرت وجهة حياته.

كما هو المعتاد في يوم شم النسيم، عيد المصريين ورمزهم التاريخي المتفرد بين أعياد الأمم، عيد نهاية برد الشتاء وبداية الربيع الدافئ، عيد الحصاد وبشائر الخير بعد سنة زراعية مضنية، عيد قديم قدم حضارة المصريين، منذ حدد الأجداد القدماء موعده السنوي بيوم الانقلاب الربيعي الذي يتساوى فيه طول الليل بطول النهار، يوم الزينة، يوم جلوس قرص الشمس الخالد على قمة الهرم الأكبر، رمز تسامح المصريين وتعايشهم عندما أجّلوا موعد عيدهم الأشهر إلى اليوم التالي لنهاية صوم المسيحيين منهم حتى يحتفل أتباع الديانة الجديدة مع بقية المصريين بأكل السمك والبيض المحرّمين عليهم أيام الصوم، كما هو المعتاد في ذلك اليوم من كل عام ورغم التوتر السياسي والأمني سرت البهجة في أنحاء البلاد وسطعت شمس دافئة لتعوّض برودة شهور الشتاء، وطغت رائحة البصل والأسماك المملحة بأنواعها على هواء البيوت، كل البيوت.

في ذلك اليوم وقع بصره عليها للمرة الأولى، زاهية نضرة كشمس الربيع، مفعمة بالحياة، نابضة بالحرية، تغمر طاقتها الإيجابية أي حيّز يضمها

بين جوانبه ويشع حضورها بهجة حقيقية في المكان، في فستان قطني أبيض بسيط وقصير الكمَّين كفساتين نجمات أفلام الأبيض والأسود، ينتهي تحت ركبتيها وتزينه زهور كبيرة زاهية الألوان وتتوجه قبعة مستديرة كبيرة من الخوص يحيط بها شريط عريض سماوي اللون ينتهي بعقدة محكمة، كانت تبدو متناسقة تمامًا مع اللوحة البديعة التي رسمتها الطبيعة في ذلك اليوم، ما بين رمال الشاطئ البيضاء ومياه البحر الفيروزية وزرقة السماء الصافية وخضرة الشجر بأزهاره الصفراء الصغيرة التي لم تكد بعد تتفتح، لم تبدُ له غريبة على تلك اللوحة كما بدا الآخرون بأزيائهم المتكلفة وأجسادهم المترهلة وأصواتهم المزعجة، كما لو كانوا بقعًا عشوائية تلطخ تلك اللوحة البديعة، كان مدعوًا إلى فيلا صديق له بالساحل الشمالي غرب الإسكندرية لقضاء اليوم والتهام الفسيخ المرسل خصيصى له من رجل أعمال بإحدى محافظات الدلتا، يملك أبوه أيضًا فيلا مماثلة بالقرية السياحية ذاتها لكنها الآن بالتأكيد في حالة مزرية بعد شهور الإغلاق الطويلة منذ نهاية موسم الصيف السابق، ولم يكن لديه الوقت لإرسال من يفتحها وينظفها، تناولوا جميعًا الفسيخ والرنجة والبصل الأخضر والبيض الملون في الحديقة الكبيرة المطلة مباشرة على رمال الشاطئ، التفّوا في حلقة كبيرة للأكل على النجيل الأخضر حفاظًا على هواء الفيلا الراقية من الروائح القاتلة لتلك القائمة من الأطعمة، وشاء حظه السعيد أن تجلس هي بالذات في مواجهته تمامًا، هي صديقة لأخت صديقه ومضيفه، طالبة جامعية مثقفة وجميلة، رقيقة الملامح

ضعيفة الصوت لا يكاد يسمع ما تقول، ذات جسد صغير وشعر بني ناعم طويل تركته ينسدل على كتفيها في حرية وعيون واسعة صافية وبنية أيضًا، ليست صارخة الجمال، ولا متفجرة الأنوثة بدرجة فجة كغالبية صديقاته ورفيقاته، لا تبالغ في التزيّن ولا تتسوّل لفت الأنظار مثلهنّ، كانت ملاكًا شاردًا من جنة ما بالتأكيد، ثم إنها رمقته بنظرة ثابتة في قلب عينيه فانتبه إلى أنه ظل يحدق إليها منذ دقائق ولا يأكل شيئًا، أحسّ بالإحراج فحوّل بصره عنها وتظاهر بالانشغال في الأكل، بينما ظلت هي تتابعه ببصرها بطريقة غير مباشرة حتى قام قبل كل الباقين معتذرًا بأن تلك الكمية الهائلة من الملح والبصل ستجعله ينام لأسبوع كامل.

تجاذب معها أطراف الحديث وهما يرتشفان الشاي الأخضر الساخن أمام البحر بعد تلك الأكلة شديدة الملوحة، حدثته عن دراستها بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية وعن طموحها في استكمال دراستها الأكاديمية بفرنسا ثم العودة لامتهان العمل السياسي في مصر بشكل احترافي تطبق فيه ما درسته وما سوف تدرسه من نظريات، كان يستمع إليها بنصف عقل لأنه أولًا كان منشغلًا بتأملها وهي تتحدث، وهي تبتسم، وهي تضحك، وهي متحمسة، وهي غاضبة، وثانيًا لأنه لا يعرف شيئًا عما تتحدث عنه، ولم يشغل نفسه يومًا بأمور السياسة وتعقيداتها، كان يرى ما حدث في مصر منذ ما يقارب العامين محض تخريب وقطع للأرزاق وتدمير للمصالح، لم تنعكس تلك الثورة عليه إلا بافتقاد الأمن وبالمظاهرات التي لا تنفك تقطع الطرق وتعطله عن

ارتباطاته وبتدهور الحالة الاقتصادية للبلاد بشكل عام مما أضر باستثمارات والده خصوصًا في المناطق السياحية، جعله ذلك التدهور يتفاخر أمام والده في آخر مكالمة هاتفية بينهما بأن نصيحته له باستثمار بعض الأموال في دبي كانت نافعة، عندما نبهته بأن دوره قد حان ليحدّثها هو عن نفسه أجاب في استغراب:

– هو انتي مش عارفاني؟

رفعت كتفيها ومطت شفتيها وقالت ببساطة:

– لأ! ليه إنت مشهور؟

اندهش حقًّا لأنه كان على يقين من أنها لا تتصنع عدم معرفته، أدرك أنها لم تكن تعرفه بالفعل، وكانت تلك مفاجأة له، قال:

– آه! لحظة واحدة.

أخرج أحد هاتفيه المحمولين وتجول بإصبعه على شاشته الكبيرة حتى وصل لشيء ما ثم ناولها الهاتف قائلًا في زهو لم يستطع إخفاءه:

– ده حسابي على إنستجرام، أكيد تعرفيني!

تناولت الهاتف وألقت نظرة جادة ثم حركت إصبعها على الشاشة لتتصفح محتويات الحساب التي لم تخرج عن مجموعة صور له في سيارات مختلفة أو في دبي وشرم الشيخ ولندن أو في صالة الرياضة أو مع بعض الفتيات، كانت الصور كلها احترافية ذات جودة عالية، وكان يبدو من عدد

متابعيه وما تحصل عليه صوره من تفاعل أنه مشهور بالفعل، لكنها لم تكن تعرفه رغم ذلك، ناولته الهاتف قائلة في لهجة لا تخلو من إحباط:

– صور حلوة أوي، واضح إنك مشهور فعلًا!

أجابها بهمهمة غير مفهومة فلم يكن يجد – من فرط الإحراج – ما يقول.

ساد الصمت لبرهة قصيرة انشغلت هي خلالها بكتابة شيء ما على الرمال باستخدام ملعقة الشاي وظلت تحدق إلى البحر، أراد هو أن يكسر حدة ذلك التوتر غير المتوقع، وأن يعيد الحديث إلى الجريان فقام يقرأ ما كتبت:

– "كأني صوت النديم في ليلك يصحّي ناسك يشدوا حيلك".

كررها مرة أخرى بلهجة فيها بعض الاستفهام كأنه يطلب توضيحًا، ابتسمت ثم أكملت الكتابة ليقرأ هو:

– "كأني فلاح من جيش عرابي مات ع الطوابي وراح في بحرك".

ثم انتبه فجأة وقال في ظفر كأنما اكتشف حل اللغز:

– دي أغنية لمحمد منير بس قديمة شوية.

ضحكت ضحكة عالية حاولت أن تقلل من وقع السخرية فيها وقالت:

– دي قصيدة لأحمد فؤاد نجم غناها الشيخ إمام، وفعلًا قديمة بس أقدم بكتير من محمد منير نفسه.

أحس بالإحراج وببعض الإهانة، لكنه لم يُرد أن ينهي الحديث، كانت تجذبه إليها أكثر وأكثر كلما تحدثت وكلما ضحكت، كانت تأخذه معها لعالم لا يريد العودة منه، مرة أخرى حاول إبقاء الحديث دائرًا فقال:

– طب انتي اهتماماتك إيه غير السياسة؟

قالت وقد استعادت بعض حماستها فبدت أجمل وأجمل، كانت بشرتها تزداد نضارة عندما تدب فيها الحماسة:

– بحب السينما أوي، كان نفسي ابقى مخرجة، بس جيت في لحظة كان لازم اختار بين معهد السينما وبين كلية اقتصاد وعلوم سياسية، فقررت أضحي بحلم الإخراج واكتفي بالفرجة على الأفلام.

– طب قوليلي آخر فيلم شفتيه وعجبك أوي أو أثر فيكي.

شردت ببصرها قليلًا وتطلعت إلى السماء كأنما تتذكر شيئًا ما ثم قالت في حماسة:

– آه افتكرت، شفت فيلم حلو أوي من كام يوم اسمه indigènes – نطقتها بفرنسية متقنة – هو فيلم فرنسي بس المخرج والممثلين كلهم تقريبًا من أصول جزائرية، شوف مع إنه أصلًا فيلم عن الحرب وانا مش غاوية أفلام الحرب بس فيه مشاعر إنسانية حلوة أوي، فيه مشهد مثلًا وقفت قدامه كتير وقعدت أعيده يمكن عشر مرات، عساكر جزائريين كانوا بيحاربوا مع الجيش الفرنسي أيام الحرب العالمية، وداخلين مدينة فرنسية صغيرة بعد ما حرروها من الألمان والناس ملمومة حواليهم بيحدفوا عليهم ورد وكده،

شاب منهم بقى عمال يحكي لبنات المدينة دي بطولاته في الحرب وقد إيه هو حاسس ان فرنسا بقت بلده وبقى له حق فيها، قال لهم جملة حلو أوي:

"je libère une pays, c'est mon pays"، يعني البلد اللي أحررها تبقى بلدي..

كان يتأملها وهي تتكلم بشغف واضح متأثرة بما تقول ومصدقة له بكل جوارحها، كانت قد سيطرت على كيانه تمامًا وإن لم يكن قد سمع بذلك الفيلم ولا يعرف الفرنسية أصلًا، لكنه وجد نفسه مأخوذًا بهذه الفتاة، مغرمًا بكل تفصيلات شخصيتها المتفردة تلك، لم يعرف من قبل فتاة مثلها، لا في رقتها ولا في ثقافتها وإيمانها الشديد بما تقول، تتحدث عن عالم مختلف، عالم ليس مزيفًا كعالمه، لم تكن مصطنعة ولا سطحية كمن عرفهنّ، إنها لا تحاول حتى التباهي بجمالها ولفت الأنظار إليها رغم أنها إن فعلت لجذبت حولها الجميع، لو كان لها دهاء وكيد الفتيات اللاتي يعرفهنّ لأوقعت في حبائلها رجلًا جديدًا كل يومين على الأكثر، كيف لفتاة في مثل جاذبيتها أن تجلس مع شاب في مثل وسامته وشهرته وفي مكان يشع بالرومانسية كهذا لتحدثه عن الشيخ نجم ذلك وعن أفلام حرب فرنسية؟! أي فتاة ساحرة هذه وأي عالم عجيب تأخذه إليه؟

انتبه فجأة ليتبيّن أنها أنهت حديثها عن الفيلم الفرنسي، نظرت في عينيه مباشرة وقد لمع في عينيها بريق زادها جاذبية ثم قالت في رقة كأنها تصالحه:

- باين من صورك إنك بتحب السفر.

تنهَّد بارتياح فقد وصلا أخيرًا إلى موضوع مشترك يمكنهما الحديث عنه ويمكنه أن يستعرض فيه بعض خبرته، أجاب بحماسةٍ:

- آه! جدًا، رحتي لندن؟

***

توالت اللقاءات بينهما في الأسابيع التالية بعد أن ربط بينهما خيط ما، سحبته بشدة إلى عالمها الذي وجد فيها حياة حقيقية مفعمة بالواقعية، كان الطبيعي أن ينساق إلى عالمها لا أن تنساق هي إلى عالمه، كان عالمها هو الأثقل والأغنى، كان عالمها حقيقيًّا نابضًا بالحياة، وكان عالمه الافتراضي الذي عاشه وسط تطبيقات التواصل الاجتماعي فارغًا، لا وزن له، كان عالمه تخيليًّا، أشخاص افتراضيون يحادثون أشخاصًا افتراضيين، ليسوا حتى بأشخاص بل هي مجرد حسابات إلكترونية، مجرد أرقام وحروف ونبضات من الكهرباء لا حياة فيها، لا تدري فيه هل تتعامل مع شخص حقيقي أم مع روبوت مبرمج مسبقًا ليقوم بالرد عليك، لا يمكنك الجزم بأن من تحادثه هو فعلًا من تظن أنك تحادثه أم أنه أحد حسابات متعددة لشخص ثالث، لا شيء مؤكد هناك، لا يمكنك تمييز الصادق من المدعي، ليس بوسعك تحديد الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال، يريد الجميع أن يظهروا كما لو كانوا سعداء، ينشرون صورًا لهم في أماكن جميلة، وهم يضحكون، وهم يأكلون، ينشرون

صورًا لطعامهم وسياراتهم وكلابهم وبيوتهم والشواطئ التي يستلقون أمامها والفتيات اللاتي يصاحبونهن، يبدو لك الجميع كما لو كانوا يرفلون في نعيم الجنة بينما لم يعد هؤلاء يستمتعون أصلًا بما يصيبون بالفعل من ملذات الحياة من فرط ما يهدرون تلك اللحظات الممتعة في محاولة توثيقها، يمرون بمنظر بديع فبدلًا من أن ينعموا بجماله ويتأملوه لحظات يتهافتون إلى هواتفهم وكاميراتهم لتسجيل تلك اللحظة وبثها عبر وسائل التواصل، يهمهم أن يعرف الناس أنهم يستمتعون أكثر مما يهمهم أن يستمتعوا بالفعل، يحرصون على الحصول على صك الاعتراف بسعادتهم من الآخرين، يبالغ البعض حتى ليجعلوا الصور أجمل من الواقع، هذه الكاميرات الحديثة وتطبيقات الهواتف الذكية يمكنها أن تجعل من أي منظر – قبيحًا كان أو جميلًا أو بلا أي ملامح – لوحة فنية مبهرة يجزم من يراها أنها التُقطت في مكان أسطوري وأن الذي التقطها – بلا شك – يستمتع بوجوده في ذلك المكان، كان يدرك ذلك تمامًا بخبرته مع تلك الوسائل وكان يعرف جيدًا كيف يوصل ذلك الانطباع لمتابعيه، مجرد صورة لرمال أي شاطئ لو التقطها بكاميرته الغالية بإعدادات مدروسة بدقة من زاوية بعينها وفي وقت محدد من النهار تكون فيه الشمس في الموقع المناسب، ثم أضاف بعض اللمسات الفنية عبر تطبيقات معالجة الصور لحصل على صورة مبهرة تجتذب آلاف المعجبين الذين يفترضون سلفًا أنه لا يمكنهم أن يكونوا هم أنفسهم قد داسوا رمال

ذلك الشاطئ بعينه مرارًا ولا يدركون أنه لم يكن – ولن يكون – بهذا السحر في الواقع، رأى بعينيه في أسفاره حول العالم أن ما يظهر في صور الدعاية للأماكن السياحية لا يمكنك كسائح عادي أن تراه من الزاوية نفسها ولا بالجودة نفسها، فتلك الصور الساحرة التي يمكنك أن تراها على الشاشة لڤينيسيا الإيطالية مثلًا بما تحمله من أجواء رومانسية حالمة تغفل تمامًا ما ستجده في الواقع من زحام ورطوبة ومزيج خانق من روائح عوادم محركات القوارب وزفارة مياه البحر الراكدة في القنوات الضيقة، تبهرك الصور الأيقونية لتاج محل بشموخه وفخامة قبابه الرخامية مع انعكاس الشمس عليها والحدائق المنسقة ونافورة الماء الممتدة أمامه بينما في الواقع لن تتمكن حتى من التقاط صورة لك أمامه دون أن يتداخل معك عشرات العابرين، ولن يمكنك الدخول إلى المبنى الأسطوري إلا بعد الانتظار في طوابير لا نهائية قد تستغرق منك النهار بأكمله، ولن تعطيك الصور بالطبع أي لمحة عما ستكابده للوصول إلى ذلك الأثر البديع من المرور في طرقات عشوائية ضيقة ومغبرة تتقافز فيها عربات التوكتوك وسط قطعان البقر أو عن ذلك النهر كريه الرائحة الذي يطل عليه المكان بضفته الأخرى التي تغسل فيها النساء الملابس ويستحم الأطفال عراة، ينطبق ذلك أيضًا بشكل أو بآخر على أهرامات الجيزة وعلى أبراج دبي الشاهقة وعلى كل مكان، لن ينقل لك المصور إلا ما يريدك أن تراه، لن يختار لك من هذه العناصر كلها إلا ما يخدم الانطباع المسبق الذي يريد توصيله إليك أو تثبيته في مخيلتك، هذه

هي الخدعة التي يكاد الجميع يعرفونها، لكن يكاد الجميع أيضًا ينخدعون بها مرارًا وتكرارًا كما لو كانوا يحبون تلك الخدعة أو يتظاهرون بتجاهلها، يريد كل شخص أن يبدو سعيدًا كما لو كان قد ضمن السعادة بما أنفقه من مال ليوجد في مكان ما، يقنع البعض أنفسهم بأنهم سعداء لكي لا يندموا على ما دفعوه ويتظاهر البعض الآخر بالسعادة لمجرد ألَّا يفوته إعجاب متابعيه على وسائل التواصل الاجتماعي، ربما يعوضه ذلك الإعجاب عن السعادة الحقيقية التي لم يشعر بها في الواقع، فعند كثير من الناس أن يراك الناس سعيدًا هو أهم من أن تكون سعيدًا بالفعل، هذا العالم الافتراضي كاذب ومضلل، كل ما تراه فيه هو محض وهم، لا يمكنك تمييز الحقيقي من المصطنع، أما على أرض الواقع، وسط البشر الحقيقيين من ذوي اللحم والدم في هذه الشوارع المفتوحة وتحت هذه السماء الواسعة فكل شيء تراه بعينيك هو الواقع بذاته، هو عين الحقيقة، كل شيء ينطق بالحياة، بجمالها وبقبحها، بخيرها وبشرها، وبوقاحتها في أحيان كثيرة، كانت هي من فتحت أمامه أبواب هذا الواقع فلم يعد ينتمي لعالمه الافتراضي كما كان سابقًا، تُشكل بينه وبين عالمه السابق حاجزًا بدأ واهنًا ثم ازداد وضوحه يومًا بعد يوم حتى لم يعد يجد في نفسه أي انتماء للفضاء الإلكتروني الذي طالما امتلك مفاتحه وأسراره وسخرها لخدمة صورته المثالية التي زرعها في وجدان آلاف المعجبين والمتابعين ورعاها بعناية لسنوات، بات ينتمي الآن للشارع، يشعر به ويتجاوب معه، وكان

يقترب منها ويفهم حديثها بشكل أفضل لكنه لم يصل لمرحلة القدرة على مناقشتها فيما تطرح من أفكار فلم تكن قد تشكلت له أفكاره الخاصة به بعد، ما زال يحبو في ذلك العالم ولا يفهمه بالقدر الكافي ليكون له رأيه الخاص، كان يتبعها فحسب متأثرًا بحماستها لأفكارها وبقدرتها على التأثير فيه، كان يحبها، أدرك ذلك أخيرًا في لحظة تاريخية من عمره، نعم كان هناك بالفعل حب، لم يكن توابل ولا مساحيق تجميل، بل كان حقيقة ساطعة لا يمكنك أن تخطئها، كان يحب تلك الفتاة الساحرة، لم تكن تلك غريزة أو شهوة، لم يكن يسعى وراء جسدها، بل وراء روحها، كانت روحه تشتاق لروحها.

***

كان ذلك اليوم مشحونًا منذ الصباح، ساد التوتر سائر أنحاء البلاد بعد الصدام الذي حدث بشكل أسرع من المتوقع بين جماعة الإخوان الحاكمة وبين المعارضة بأطيافها المتباينة والمتصارعة بدورها، بات الانقسام في الشارع واضحًا وعنيفًا كما لم يكن يومًا من قبل، كانت فتاته بالطبع في صف المعارضة وبكل جوارحها، حدثته كثيرًا عن مخططات الإخوان لطمس هوية الدولة وتطويعها لما يناسب فكر جماعتهم وعن تغلغل الجماعة منذ عقود في نسيج المجتمع حتى النخاع، لم يكن يدرك أبعاد ما تخاف منه بوضوح، ولم يكن لديه هو شخصيًّا أي اعتراض على الرئيس الحالي، أو بشكل أدق لم

يكن شخص من يحكم البلاد يشكل له فارقًا كبيرًا فقد كانت دائرة تعاملاته وعلاقاته دون ذلك المستوى بدرجات، بل كان على العكس يميل إلى تفضيل استقرار الأوضاع بأي شكل حتى تعود الأعمال إلى طبيعتها، وتمر تلك المرحلة الضبابية من الفوضى بأسرع ما يمكن، كانت الفوضى هي هاجسه الأكبر، تكررت حوادث سرقة السيارات والشقق والسرقة بالإكراه لكثير من معارفه حتى صار يتجنب بعض المناطق ويقلل من الخروج في أوقات متأخرة من الليل بعكس طبيعته المنطلقة التي تنفر من كل ما يقيد الحرية، لم يشهد أو يسمع في محيطه القريب بحوادث كتلك التي كانت تحكيها له عن تعرُّض بعض ذوي اللحى لفتيات أو سيدات غير محجبات أو عن مضايقات يتعرض لها المسيحيون، ربما لأن محيطه القريب هذا لا يسهل على أي غريب اختراقه، فللمجمع السكني المنعزل الذي يسكنه أسوار وبوابات لا ينفذ منها إلا سكانه أو زوارهم ومن يعملون لديهم بعد استئذان الأمن للسكان، وهو نفس الحال تقريبًا في كل مكان يتردد عليه، لا يعرف كيف هي الأوضاع في الأحياء الشعبية أو في الجامعات الحكومية؛ لذلك فقد كان يُجاريها ويصدقها باعتبار أنها تعرف تلك الأمور بشكل أفضل، كان اليوم موعد مظاهرة كبيرة تخرج من نقاط تجمع مختلفة قاصدة قصر الاتحادية حيث يقيم رئيس الجمهورية وحيث وقعت منذ أيام مصادمات عنيفة بين أفراد جماعته وبين المتظاهرين والمعتصمين من المعارضين وانتهت بمقتل عدد منهم

وإصابة الكثيرين، كانت تلك المظاهرة تهدف – كما شرحت له باختصار – إلى حشد الناس من مناطق شعبية مختلفة وتوجيههم إلى القصر كرسالة تفيد غضب الشارع من ممارسات الرئيس وجماعته، كانت تتحدث عن موجة ثورية جديدة تصحح مسار الموجة الأولى التي أخطأت مسارها، كانت كلمة "ثورة" في حد ذاتها كفيلة بإثارة قلقه وتخوفه، لم يكن بأي حال من الأحوال يريد ثورة جديدة، بل إنه لم يكن يريد الثورة الأولى، حاول مناقشتها في الأمر وأوضح لها مخاوفه على سلامتها هي أولًا ثم على استقرار البلاد ثانيًا، طمأنته بنبرة واثقة لم تتسلل إليها ذرة من خوف:

– أنا مش نازلة لوحدي، إحنا بنحشد بقالنا فترة وهيبقى فيه أعداد كبيرة.

رد بتشكك:

– أعداد كبيرة يعني ناس ماتعرفش بعضها، ممكن يطلع عليكم بلطجية أو متحرشين أو حتى ناس عادية من اللي حالهم وقف بسبب المظاهرات اللي مش عايزة تخلص دي.

تغير وجهها عند سماع الجملة الأخيرة فأجابت في عصبية:

– إحنا ماوقفناش حال حد، إحنا بنعمل كل ده ومالناش مصلحة غير الناس!

قال بحنان بالغ شابَهُ بعض الشك الذي لم يكن قد زال:

– طب والأمن والإخوان والناس اللي بدقون دول اللي طلعوا عليكم قبل كده عند الاتحادية؟ الناس دي معاها سلاح!

ردت في نفس العصبية مع بوادر غضب:

– إحنا مابنخافش على فكرة، لو كنا بنخاف ماكناش قعدنا سنين ننزل ضد اللي قبله واللي قبله من أيام ما كنا خمسين واحد بالكتير، لو كنت حضرت تمانية وعشرين يناير ماكنتش اتكلمت عن الخوف، البنت الضعيفة اللي قدامك دي حضرت كل الاشتباكات اللي حصلت من خمسة وعشرين يناير ومن قبلها كمان، لا خافت من داخلية ولا من جيش ولا من إخوان ولا من سلفيين، ساعات اللي معاه سلاح هو اللي بيبقى خايف..

ثم ترددت لحظةً ووجهت نظرها إلى الفراغ وقالت في أسى:

– اللي بخاف منهم فعلًا هما الناس العادية، دول اللي لما بيطلعوا علينا بيضربونا بغل كإننا أعداءهم، مع إننا والله ما عايزين إلا مصلحتهم، هو احنا يعني غاويين ننضرب؟

رد بثقة وقد أكدت هي بنفسها وجهة نظره:

– ماهو ده اللي بقولك عليه، الناس دول مضرورين في لقمة عيشهم وشايفين ان المظاهرات هي اللي واقفة حالهم، اللي بيدافع عن لقمة عيشه بيبقى أشرس من العسكري اللي بيأدي مهمة متكلف بيها وخلاص لكن معندوش عداوة شخصية معاكم.

ابتسمت في رقة وردت:

– إيه التحليلات العميقة دي؟ إحنا اتطورنا أوي!

ثم غيرت لهجتها إلى الجدية وقالت:

- أنا جاهزة، يالا بينا، يدوب نلحق معاد المسيرة.

انطلقت سيارته الحمراء الجديدة مخترقة الطريق الضيق المصطفة على جانبيه أشجار عتيقة تتشابك فروعها الكثيفة لتظلل الشارع بالكامل، اختار هذه السيارة متوسطة الحجم ليستخدمها عند الذهاب لوسط المدينة حيث لا تتناسب طبيعة الشوارع ذات الأسفلت الرديء والمطبات والتكدس الشديد مع سيارته الرياضية المفضلة ذات الارتفاع المنخفض جدًّا عن الأرض بما لا يجعلها ملائمة إلا للشوارع ذات الأسفلت الناعم المستوي حيث يسكن وحيث تقع غالبية الأماكن التي يتردد عليها في الضاحية الجديدة الراقية غربي الجيزة، قاد السيارة محاولًا إخفاء توتره، بينما جلست هي بجواره هادئة تمامًا، لمست أيقونة تشغيل الأسطوانات في الشاشة الكبيرة بلوحة تحكم السيارة فأتاها صوت الشيخ إمام عبر تسجيل قديم مشوش:

يا اسكندرية.. يا مصراوية.. على سنّ باسم.. على ضحكة هالّة..

البحر شبّاك.. ومشربية.. وانتي الأميرة ع الدنيا طالّة..

حولت إليه طرف عينها بهدوء دون أن تتكلم وتفحصته بنظرة تحمل الكثير من الإعجاب، والفخر، والدهشة.

***

يكاد يطير بالسيارة، يزعق صوت محركها القوي كما لو كان يستغيث، لا تكاد إطارات عجلاتها العريضة تلمس أسفلت الكوبري الواسع الذي

يخترق مناطق عشوائية متكدسة المباني بلا أي تنسيق أو جمال، يتصاعد الأدرينالين إلى رأسه يكاد يفتك به، يتشبث بعجلة القيادة بكل قوته لكي يبقي على تحكمه بالسيارة الجامحة لكنه لا يكاد يدرك معالم الطريق، بلغت عصبيته ذروتها عندما ألقى عليها نظرة خاطفة ليطمئن فإذا هي متكومة على المقعد المجاور له ضامّة ركبيتها إلى صدرها، دافنة وجهها بينهما، وساكنة تمامًا إلا من ارتعاشات لا شعورية خفيفة تتكرر مع نشيجها المكتوم، لم يجد ما يقول، أدرك أن أي دفاع لن يجدي نفعًا معها الآن، لم يكن له ذنب فيما حدث إلا أنه يخاف عليها، لقد ظهروا فجأة، وكأنما خرجوا من ثقب أسود، جحافل من الرجال ذوي اللحى الطويلة في جلابيب بيضاء قصيرة وثياب أفغانية يحملون هراوات غليظة وجنازير، كان بعضهم يخفي في ثيابه أسلحة نارية كذلك، رآهم بعينه يطلقون منها النار على المظاهرة في وضح النهار، رأى أكثر من شاب وشابة من النشطاء الذين تعرف إليهم مؤخرًا عن طريقها، وقد سقطوا تحت أقدامهم الغليظة وهم ينهالون عليهم ضربًا، ماذا كان عليه أن يفعل غير أن يحملها رغمًا عنها ويضعها في السيارة ثم ينطلق بأقصى سرعة ممكنة ليبتعد بها عن ذلك الفخ الذي لا شك أنه نُصب لها ولرفاقها؟ كانت لحظة واحدة تلك التي خطف فيها نظرة ناحيتها ليطمئن على أنه لم يصبها شيء من تلك المعركة الغادرة، لحظة واحدة تحولت عينه الخبيرة في القيادة عن الطريق الذي كان خاليًا، متأكد هو أن الطريق كان خاليًا قبل لحظة

واحدة، قبل أن يسمع صياحًا قلل من حدته زجاج سيارته المغلق العازل للصوت يقول:

- حاسب.. حاسب..

لا يعرف متى اندفعت تلك السيدة المجنونة قاطعة الطريق ليجدها أمام السيارة مباشرة وهو على سرعة لم تسمح له حتى بكل خبرته وإمكانات سيارته إلا بتفادي صدمها بمقدمة السيارة، ارتطمت بجانب السيارة المواجه لمقعد فتاته التي شهقت في رُعبٍ، تدحرجت السيدة على الأرض قبل أن تسقط بلا حراكٍ، لمح كل ذلك بطرف عينه عبر مرآة الجانب الأيمن من السيارة وهو قابض على عجلة القيادة بثبات ودون أن يتوقف، كان آخر ما استطاع تمييزه هو أشخاص يُهرعون نحو جسد السيدة ذات الشعر متوسط الطول المعقوص خلف رأسها كذيل حصان وهي ملقاة بلا حراك على الأسفلت، وفي الخلفية كان صوت الشيخ العجوز يردد بصوت مشوش قديم عبر سماعات السيارة:

كل عين تِعشق حليوة.. وانتي حلوة في كل عين..

يا حبيبتي قلبي عاشق.. واسمحيلي بكلمتين..

كلمتين يا مصر يمكن همّا آخر كلمتين..

حد ضامن يمشي آمن أو مآمن يمشي فين..

(٦)

ديسمبر ٢٠١٢

كانت نسمات تلك الأمسية الشتوية لطيفة، كان الجو باردًا، لكنه منعش ومحبب لأمثاله من عشاق الشتاء والليل وشوارع وسط المدينة، كان احتساء كوب السحلب الدافئ وتدخين شيشة المعسل في الليالي الباردة على رصيف ذلك المقهى خاصة هما متعته الوحيدة في هذا العالم، لم يكون زبونًا عاديًّا كآلاف العابرين والغرباء المترددين على وسط المدينة الذين يعجُّ بهم المقهى منذ أول ضوء من النهار وحتى ساعات الليل الأخيرة، بل إنه لم يكن زبونًا في الواقع، أو لم يعد كذلك منذ سنوات طويلة، كان كمن يمتلك المكان بشكل مجازي، فهو أقدم رواده وأقربهم سكنًا، يسكن شقة كبيرة في الطابق الثالث من العمارة القديمة ذاتها التي يقع تحتها المقهى، وُلد في هذه الشقة التي كانت لوالده وتربى وكبر ورعى فيها إخوته حتى كبروا بدورهم وتخرجوا

في كليات جامعية مختلفة، وتزوجوا جميعهم، وغادروا شقة الأب الذي تُوفي منذ زمن طويل، بقيَ وحيدًا في الشقة الواسعة ذات الجدران العتيقة والنوافذ الطويلة والسقف المرتفع والشرفتين الصغيرتين المطلتين على الشارع الحيوي المزدحم دومًا، طالما أثار دهشته ذلك التناقض الذي لا يمكن أن تخطئه عين ولا أذن بين ضجيج الشارع وزحامه الدائمين وبين صمت الشقة وخوائها الدائمين أيضًا، كان باب الشرفة الطويل ذو الضلف الخشبية الأربع التي تشقق دهانها الأخضر القديم يفصل بين عالمين متضادين، كان يفصل في الحقيقة بين حياة وموت، كان يقضي ساعات في تأمل أعمدة الضوء الرفيعة المتوازية التي نجحت شمس النهار في تهريبها من عالم الحياة في الخارج إلى عالمه الميت عبر الفتحات المائلة التي تتخلل الشيش المغلق، تخترق أشعة النور الرفيعة ظلام الغرفة في فضول كأنما يرسلها من الخارج مستكشفون يبحثون عن كشف أثري مدفون، يكاد يقوم من مكانه لينصحهم ألا يضيعوا وقتهم فلا شيء مما يبتغونه هنا، لا ذهب الفراعين ولا سيوف المماليك، لا شيء بالداخل إلا الموت والفقد والوحدة، كان يحدق باهتمام إلى ذرات الغبار المتراقصة في عشوائية صاخبة داخل أعمدة الضوء المتسللة إلى غرفته وكأنها كائنات خرافية، كل هذه الحياة في شريط رفيع من النور، فماذا لو فتح باب الشرفة بأكمله؟ هل ستتداعى عليه مليارات من تلك الكائنات المجهرية المتخبطة في الضوء؟ كان ضجيج الشارع الذي لا ينتهي بمتاجره

ومقاهيه وسياراته ومارته وبائعيه يشكل خلفية غير منطقية وغير متناغمة مع مشهد الشقة الواسعة الفارغة من الناس ومن الروح، كان المشهد عبثيًّا كفرقة موسيقية تعزف في المقابر، لذلك كان يهرب إلى المقهى حيث توجد الحياة، حيث يوجد التناغم والاتساق المنطقي بين ضجيج الشارع وصخب الجالسين، بين عوادم السيارات وأدخنة الشيشة، بين تحديق المارة في واجهات المحال وتحديق الجالسين على المقهى إلى المارة أنفسهم، هنا يجد ذلك التفاعل وذلك التأثير المتبادل بين البشر الذي يفتقده في الشقة، كان المعلم الكبير مؤسس القهوة صديقًا لوالده ثم صار صديقًا له هو بعد وفاة الوالد، ثم صار ابن المعلم معلمًا جديدًا بعد وفاة المعلم الكبير، فأصبح للزبون القديم صديق المعلم الكبير مكانة مميزة في المقهى، لا يُحاسب كالغرباء ولا كالزبائن المعتادين، بل يدفع مبلغًا ثابتًا للمعلم في بداية كل شهر ولا يراجعه أحد في ما يطلبه هو وضيوفه القلائل طوال الشهر، وكان يحضر في بعض الأحيان نوعًا مخصوصًا من البن أو التبغ لاستعماله الشخصي ولضيافة الأصدقاء النادرين الذين يقضون معه بعض الأمسيات من وقت لآخر.

كان الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة له في المقهى يبدو مألوفًا لكنه لا يذكره، تمر عليه عشرات الوجوه في الساعات التي يقضيها يوميًّا بالمقهى منذ ما قبل المغرب بقليل حينما يستيقظ من قيلولته القصيرة التي تعقب عودته من المصلحة وما بعد منتصف الليل بساعات تحدد طولها ظروف الجو

العام في المقهى، لا يعلق بذاكرته إلا القليل من الوجوه المتكررة للزبائن من سكان المنطقة ومن روابط الأصدقاء والرفاق المنتظمين ولو لم يواظبوا على الحضور بمعدل ثابت، كانت الشهور الأخيرة بكل ما حملته من جنون قد شهدت تضاعف الزبائن وخاصة من الشباب والمثقفين والصحفيين لقربها من مناطق الأحداث الساخنة التي غيرت وما زالت تغير وجه الحياة في هذا البلد الذي لم يعرف التغيير منذ زمن.

كان الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة أربعينيًّا طويل القامة واضح الأناقة في معطف صوفي أدكن طويل، وكان يبدو مثله مستمتعًا بالهدوء وبنسائم الليلة الشتوية اللطيفة، التفت إليه الرجل بينما هو يحدق إليه محاولًا تذكره فالتقت أعينهما، ابتسم الرجل وقال في وقار يناسب هيئته الأنيقة:

– مفيش في الدنيا دي أجمل من ليل القاهرة.

رد عليه بابتسامة تحمل من الأسى أكثر مما تحمل من الود:

– ماهو معادش لنا فيها غير ساعتين الليل دول يا أستاذ!

***

كان أقدم الموظفين في هذا القسم من المصلحة الحكومية العتيقة؛ ولذلك كان هو رئيس القسم، بلغ ذلك المنصب منذ بضع سنوات بالأقدمية البحتة،

لم يكن يجيد مهارات التسلق والتآمر اللازمة للترقي في مثل هذا الهيكل الحكومي العقيم ولولا أقدميته المطلقة على باقي موظفي القسم لظل كما كان لسنوات طويلة مجرد موظف عادي في وظيفة كتابية منقرضة لا مجال فيها ولا حافز لأي إبداع، في حقيقة الأمر لم يكن في المصلحة كلها مجال لأي من ذلك، كانت كغالبية الدواوين الحكومية المعقدة والمتهالكة كشبكة عنكبوت عجوز، مجرد هيكل موروث فارغ من أي قيمة فعلية إلا تبرير استمرار بقاء هذا الجيش من الموظفين في وظائفهم وضمان حصولهم على رواتبهم آخر كل شهر كما جرت العادة منذ أسس القدماء هذه الدولة ووضعوا تلك النظم، وظائف شكلية يشغلها موظفون لا يفعلون شيئًا ذا قيمة، أو للدقة يفعلون في شهر ما يمكن أن يفعله برنامج على أي حاسب آلي في دقيقة، بل إن المصلحة كلها يمكن استبدالها بثلاثة حواسب آلية على أقصى تقدير، الفارق الوحيد هو أن الحواسب الآلية ستؤدي العمل بكفاءة أعلى وبلا أخطاء وبلا ضوضاء وبلا ابتزاز، لن تتسبب الحواسب في اكتظاظ وسائل المواصلات ولا ازدحام الشوارع ولا تلويث الهواء ولن تستهلك ذلك القدر من الكهرباء والمشروبات والأوراق والأثاث، ولن تبتلع هذا الكم الهائل من أموال دافعي الضرائب في صورة رواتب شهرية، كان يدرك كل ذلك جيدًا، ويعلم أن وجوده ووجود كل هؤلاء الموظفين على مكاتبهم كل صباح ما هو إلا تمثيلية كبرى، تمثل المصلحة أنها تسند للموظفين أعمالًا، ويمثل الموظفون أنهم يعملون، وتمثل

الدولة أنها تمنحهم رواتب، لكن لا شيء في هذه المعادلة حقيقي، فلا يوجد ما يعملونه فعليًّا بعد أن تجاوز الزمن وجود المصلحة ذاتها والغاية منها، ولم يعد أحد بحاجة إليها مع تطور نظم المعلومات والاتصالات، ولا يعملون هم أي شيء غير مجرد الحضور وقضاء ساعات العمل الرسمية على مكاتبهم كما تقتضي قواعد التمثيلية، ولا تمنحهم الحكومة رواتب فعلية تمكنهم من الوفاء بالتزامات الحياة الكريمة بل مجرد جنيهات زهيدة تزيد بمعدل بضعة قروش كل عام، إلا أن تلك المعادلة ظلت على الرغم من ذلك مرضية للجميع، فالحكومة تلقي إليهم بالرواتب تفاديًا لما يمكن أن يسببوه من إزعاج هي ليست مستعدة لمواجهته، والموظفون يقبلون بالجنيهات الزهيدة حفظًا لمراكزهم الاجتماعية كموظفين حكوميين في وظائف ثابتة في مقابل تغاضي الدولة عن بقائهم بلا عمل حقيقي.

كان هو الوحيد في هذا القسم الذي شهد إزالة صورة رئيس الجمهورية الكبيرة المعلقة في إطار قديم على الحائط المواجه للمدخل في صدر القسم مرتين لا مرة واحدة كباقي الموظفين، فقد استلم عمله هنا في أواخر السبعينيات قبل ثلاثة أعوام من الحدث الأهم في تاريخ القسم، يوم أن قام العمال برفع صورة الرئيس الذي تحول لقبه إلى الشهيد ووضع صورة أخرى للرئيس الجديد – أو الذي كان جديدًا في تلك الأيام – ظلت ثابتة في موقعها ثلاثين عامًا حتى أُزيلت هي الأخرى منذ شهور، وظل مكانها الذي تغير

لون الجدار خلفه خاليًا، فيما عدا ذلك لم يتغير شيء في القسم عبر كل تلك السنوات إلا بإضافة مكتب معدني جديد كل عدة سنوات حتى أصبح في القسم اثنا عشر مكتبًا بعد أن كانوا أربعة يوم استلم عمله، بقي كل ما عدا ذلك ثابتًا على الدوام، أحاديث النميمة والمؤامرات والشكوى المستمرة، الخزانات المعدنية الرمادية التي استقرت عليها طبقات فوق طبقات من الركام الأسود من عوادم السيارات المتسربة من الشارع المزدحم بالخارج، وتكدست فوقها أكوام فوق أكوام من ملفات ومجلدات لم يعد يذكر أحد ما تحويه، ولا من وضعها هناك، بلاط الأرضية من الموزايكو الأبيض العاري من أي غطاء، وقد نحتت فيه أرجلُ المكاتب المعدنية أخاديد وخدوشًا دكناء بفعل تجمع الأتربة داخلها، النوافذ الخشبية التي لم يعد زجاجها شفافًا، ولم يعد بالإمكان رؤية الشارع بوضوح من خلاله لتراكم الغبار الأسود عليه من الخارج وقد بقي من الستائر الحصيرية التي كانت تغطيها في الزمن القديم آثار مسامير وقطع معدنية طمستها طبقات الدهان كنقوش المعابد القديمة، مروحتا السقف اللتان كانت إحداهما متوقفة عن العمل من قبل أن يأتي هو ذاته وكانت الأخرى تصدر صريرًا يثير أعصاب من لم يتعود عليه، مصابيح الإضاءة الرديئة، صفوف الأوعية الزجاجية التي ربما كانت في الأصل مخصصة للعسل أو المربى لكنها صارت الآن نصف ممتلئة بالسكر والشاي والبن والأعشاب مع بعض الأكواب الزجاجية والفخارية والملاعق

الصغيرة، شيء وحيد ظل التغيير فيه مستمرًّا عبر السنين، وإن كان بمعدل بطيء، شيء أقل أهمية من المراوح والخزانات المعدنية، البشر، تغيرت وجوه الجالسين على المكاتب كل بضع سنين حتى صار هو أقدم الباقين في القسم، سبقه الكثيرون ممن التحقوا بالعمل بعده بسنوات وترقوا في السلم الوظيفي لمراكز أعلى من مركزه أو أحيلوا إلى التقاعد أو إلى الدار الآخرة وتركوا مكاتبهم لوجوه جديدة وهكذا، وظل هو يتقدم ببطء في الوظيفة ويرعى إخوته في البيت، لم يتزوج ولا يعرف لماذا لم يفعل، ربما لانشغاله برعاية إخوته وربما نسي فقط أن يتزوج، ظل زملاؤه يتجاوزونه كما ظل إخوته يغادرونه حتى انتهى به الأمر وحيدًا في البيت وغريبًا في العمل ليس له صديق من هؤلاء الصغار الذين لا تجذبه أحاديثهم، ولا تشغله اهتماماتهم، ولا يربطه بهم أي هم مشترك، انتهى به الأمر كمن نسيه الزمن في دورانه، كمسافر فاتته كل القطارات، فظلَّ منتظرًا اللاشيء في محطة بلا قطارات، صار خارج إطار الزمن، يعيش في عالم لا يناسبه ولا يليق به.

دار ببصره بين موظفي القسم يتأملهم، أقدمهم بعده سيدة بدينة ترتدي على الدوام خمارًا طويلًا يغطي صدرها، كانت ترتدي الملابس نفسها كل يوم لكن بألوان مختلفة، والألوان هنا لا تخرج عن درجات الرمادي والبني، كانت كل ألوان ملابسها محايدة وحائلة كأنما تفصح دون قصد عن كونها امرأة بلا شخصية، مجردة من أي صفة مميزة، هي فقط واحدة من ملايين

النسخ المتكررة من نساء هذه المدينة، أغلب ظنه أنه لو صادفها خارج العمل لم يكن ليتعرف إليها من بين مثيلاتها من النسخ، لم يرها قط منذ التحقت بالعمل ربما منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا في ملابس زاهية أو ذات ألوان واضحة، ربما فقط اتسعت الملابس بالتدريج مع مرور السنوات لتستمر في إخفاء جسدها الذي ظل بالتأكيد يزداد سمنة ولو أنه لم يلحظ ذلك في حينه، لكنه يمكنه القطع بأنها كانت في نصف وزنها الحالي على الأقل حين جاءت إلى هنا للمرة الأولى، كانت أيامها شابة ريفية خجولًا ومحافظةً وعلى قدر مقبول من الجمال حتى أنه فكر في الارتباط بها لولا أن علم مُصادفةً من حديثها مع زميلة أخرى أنها بالفعل متزوجة، تعجّب لحظة عندما قارن تلك الصورة القديمة في ذاكرته بهذه السيدة السمينة الجالسة على المكتب المجاور التي تبدو أكبر من عمرها – الذي يعرفه بحكم وظيفته – بأعمار كاملة، لا تفعل السيدة أي شيء حقيقي فيما يخصُّ العمل لكنها تشغل وقتها في أمور متعددة ما بين تجميع وصفات الطبخ في أجندة كبيرة وصناعة مشغولات من الصوف، وفي أحيان قليلة تجهيز وتقطيع بعض الخضراوات التي تشتريها من السوق القريبة، كان شراء الخضراوات أيضًا من الأعمال اليومية الثابتة التي تؤديها بمثابرة واضحة.

ثم كان ذلك الرجل ذو اللحية التي صارت أطول بكثير هذه الأيام مما كانت عليه لسنوات طويلة، لم يكن ملتحيًا في سنواته الأولى بالمصلحة، لكنه

بدأ في وقت لا يذكره بالتحديد يطلق لحيته على استحياء ويحرص على تهذيبها وعدم إطالتها للحد الذي يمكن أن يحمل أحدًا على مناداته "يا شيخ"، كان يحرص دومًا على الوقوف عند ذلك الخط الرفيع بين الالتزام الديني الظاهري الذي يمنحه احترام الجميع وتوقيرهم وبين التشدد المُنفِّر الذي قد يجلب عليه كموظف حكومي ويلات يعرف أنه لا قبل له بها، ثم تخلى قليلًا عن ذلك الحرص بعد الثورة، لكنه لم يكن في الواقع شخصًا سيئًا، ولم يتدخل قط فيما لا يعنيه ولم يحاول لعب دور الواعظ كما يفعل الكثيرون من الملتحين، لذلك ظلَّ يحظى بالاحترام والتوقير اللذين استحقهما لحُسن أخلاقه، كان يقضي أوقاته في الصلاة وفي قراءة كتب تراثية ضخمة من ذلك النوع الذي يستغرق قراءة مجلداته الكثيرة سنوات من عمره، كان قد انتهى من قراءة صحيح البخاري بالكامل فيما يزيد قليلًا عن عامين، ثم بدأ في قراءة مجلدات زاد المعاد، لم يكن يتحدث كثيرًا لانشغاله بقراءاته الموسوعية الممتدة، لكنه لم يُخف سعادته بصعود تيار الإسلام السياسي بعد الثورة ثم وصوله لحكم البلاد، كان يعتبر ذلك معجزة إلهية أرسلها الله لنا ليذكرنا بقدرته وتعويضًا لهؤلاء الرجال المجاهدين الذين ظُلموا وسُجنوا طوال أعمارهم؛ لأنهم أرادوا إعلاء كلمة الله على حد تعبيره المقتضب الذي لا يفصح عنه إلا إذا طُلب منه التعليق.

كان يجاور رئيس القسم في مكتب معدني رمادي اللون ذلك الرجل الأصلع الذي لا يكف عن شيئين، التهام السندوتشات والحديث في هاتفه

المحمول بصوت مسموع للجميع، كان يتسلى بالأكل بينما يناقش أدق تفاصيل حياته الشخصية على الملأ عبر الهاتف، يحادث زوجته ويتشاجر معها على كلمة قالتها له أمام خالها البخيل العائد من الكويت دون أن يتذكره بهدية، ثم يحادث أمه ليتغزل في جمال صينية البطاطس باللحم التي صنعتها له والتي لن تجيد زوجته صنع مثلها حتى تموت، ولا يفوته أن يقصَّ عليها تفاصيل المشاجرة السابق ذكرها ثم يطلب نصيحتها في التعامل مع تلك العائلة الدنيئة التي قاده حظه العاثر إلى مصاهرتها، ثم يبدأ في إدارة أعماله التجارية التي تتشعب لتشمل تنظيم الرحلات وتجارة الملابس والوساطة العقارية وكل ما يمكن أن يُدرَّ عليه ربحًا، كان الرجل مصدر إزعاج شديد حتى أن المشاحنات بينه وبين باقي موظفي القسم لا تكاد تنقطع، إلا أن ما كان يصبرهم عليه هو ندرة بقائه على مكتبه فقد كان بحكم عمله – عمله الخاص بالطبع فلا عمل له في المصلحة إلا التوقيع بالحضور والانصراف – دائم التنقل داخل المصلحة وخارجها، كان أيسر حالًا من جميع الموظفين لما كانت تدرّه عليه تلك الأعمال من دخل إضافي لا يتوفر للباقين، حتى أنه كان يُقرض الكثيرين من زملائه، كان شخصًا محبوبًا وخفيف الظل إلى حدٍّ كبير رغم الإزعاج الذي يسببه أينما ذهب.

ثم كان هناك ذلك الموظف الخمسيني اللزج الذي تستحوذ عليه كليةً فكرة أنه العالم ببواطن الأمور والسابر لأغوار الأسرار الكونية الخطيرة التي

لا يدركها إلا القليلون الذين هو أحدهم بالطبع، برغم أن ثقافته العامة كانت شديدة الضحالة، ولم يقرأ في حياته كتابًا، يُمضي يومه في جدالات متكررة وعقيمة حول المؤامرات التي تُحاك للوطن من أعدائه الذين هم تارة في الشرق وتارة في الغرب وتارة ثالثة في داخل الوطن نفسه، لا يكف عن محاولة إقناع كل من قاده حظه العاثر إلى التورط في تجاذب أطراف الحديث معه بنظرياته المتهافتة التي يستقيها من كتابات لا تستند إلى دليل أو منطق اختلقها بعض الهواة والأفَّاكين على مواقع التواصل الاجتماعي أو الصحف الصفراء، كان كغالبية أبناء ذلك الجيل يتعامل بقدسية وثقة مطلقة مع أي نصٍّ مطبوع ومنشور حتى ولو كان على صفحات جريدة فضائح من النوعية التي تجذب عناوينها المثيرة شهوات المراهقين أمام أكشاك الصحف، قضى ذلك الجيل معظم حياته أمام مصدر واحد للأخبار والمعلومات والمعرفة بشكل عام وهو الإعلام الحكومي من صحافة وإذاعة وتلفزيون فلم تتطور لديه مواهب النقد واستنباط الحقائق من المصادر المتعددة للمعلومات، كان لما يذاع أو ينشر في الإعلام صفة القداسة بالنسبة لهم حتى انتشرت المقولة المعبرة بحق عن سطوة الإعلام في تلك الحقبة بأن من لم يُنشر نعيه في جريدة الأهرام فهو لم يمت، كان الرجل الخمسيني يلقي نظرياته الساذجة ويطيل في شروحها وتفصيلاتها التي يرتجلها من مخيلته، ثم يُنهي الحديث بما يظنُّ أنه الضربة القاضية التي ستُفحم مُحدِّثَه وتُخرسه:

– مش مصدقني؟ دي اتنشرت في الجرايد!

أما على الطرف البعيد من الغرفة الواسعة قرب الباب فقد قبع الموظفون الجدد من الشباب بلا مكاتب مخصصة لأي منهم، لم يكونوا بحاجة إلى مكاتب فلم يكن هناك ما يفعلونه سوى الاستغراق مع هواتفهم المحمولة الحديثة ذات الشاشات الكبيرة البراقة، وقد وضعوا سماعات صغيرة في آذانهم، يمضون الساعات في نقر شاشات الهواتف بأصابعهم أو تمريرها عليها كمن يقلب صفحات كتاب أو يتبادلون النظر في شاشات بعضهم البعض وتتعالى ضحكاتهم على ما يشاهدونه، كان هؤلاء أقل الفئات اندماجًا مع جو المصلحة الرتيب الذي لا يناسب الشباب فلم يكونوا يطيقون البقاء على مقاعدهم بل كانوا دائمي الطواف بين الأقسام بحثًا عن أي جديد يشغل تلك الساعات الثقيلة، موظفةٍ شابةٍ يترددون إليها أو موظفٍ في عمر يقارب أعمارهم يتبادلون معه الحديث عن الكرة أو الأغاني أو فرص السفر للخارج أو أحدث الهواتف المحمولة التي صارت تشغل حيزًا رئيسيًّا من عقول الشباب في هذه الأيام.

بعد شهور قليلة من قيام الثورة بدأ بعض الموظفين المشهورين بالتمرد في الترويج للدعوة إلى الاعتصام من أجل زيادة رواتبهم وصرف الحوافز المتأخرة وتثبيت الموظفين الجدد الذين يعملون بعقود مؤقتة كما فعل موظفو مصالح حكومية عدة كالضرائب العقارية والكهرباء، وبدأ النقاش حول الموقع الأنسب لذلك الاعتصام وهل يكون أمام مبنى المصلحة أو في ميدان

التحرير أو أمام مجلس الوزراء أو البرلمان، لم يكن أغلب الموظفين متحمسين للفكرة بدوافع مختلفة، فالبعض رأى أن الوضع الأمني غير المستقر في البلاد لا يسمح بالصدام مع السلطة الحاكمة، والبعض يرى أن يتم منح فرصة أخرى للتفاوض مع الوزير الجديد، والكثيرون لا يريدون تعريض أنفسهم لمهانة الجلوس على قارعة الطريق تحت خيام قماشية كالمهجرين ولا لتطفل الإعلاميين وأولئك الشباب الذين انتشروا بعد الثورة يحملون الكاميرات عند أي تجمع والذين قد ينشر أحدهم صورة لأحد الموظفين في الصحف أو وسائل التواصل الاجتماعي يمكنها أن تسيء إلى مكانته الاجتماعية كونه موظفًا حكوميًّا محترمًا، أما هو، رئيس القسم، فكان يعجب حقًّا لتلك المطالب، فرغم أن راتبه الهزيل لا يكاد يغطي نفقاته فإنه لم يستسغ كيف يطالب هؤلاء العاطلون فعليًّا الذين تمنحهم الحكومة إعانة شهرية أقرب للرشوة مقابل ألَّا يُثيروا المشكلات بزيادة تلك الرشوة بل المطالبة بصرف حوافز إضافية كالتي يحصل عليها موظفو المصانع والشركات المنتجة عندما يزيد إنتاج مؤسساتهم، أي شيء ينتجه هؤلاء المتفرغون للنميمة واحتساء المشروبات لكي يطالبوا بحوافز؟ وعلى ماذا يُفترض أن تحفزهم الحكومة؟ على بذل جهد أكبر في الجلوس بلا عمل؟ وأولئك الحمقى من الشباب اللاهث وراء التثبيت ألا يدركون أنهم يدفنون أنفسهم أحياء في هذا القبر الجماعي المظلم المسمى بالمصلحة؟ أي مستقبل يسعون وراء بنائه داخل تلك الجدران

الكئيبة وهم يدركون جيدًا أن أقصى ما يمكنهم الوصول إليه هو الحصول على مكتب معدني خاص بعد أن يحال أحد الموظفين إلى التقاعد أو الوصول في نهاية المطاف إلى منصب رئيس القسم ليظفروا ببضعة قروش إضافية بعد أن تشيب شعورهم وتنحني ظهورهم وتتلاشى فرصهم في الحياة؟ لم تعد المصلحة كسابق عهدها، ولم تعد للوظيفة الحكومية رونقها ومستقبلها كيوم التحق هو بها، كان راتبه آنذاك يكفي لإعالة أسرة كبيرة، وكانت المصلحة في أوج رونقها، أما الآن فلا تكفي رواتب هؤلاء الشباب لتغطية تكلفة ما يدخنونه من سجائر، والمصلحة باتت أقرب إلى الأطلال حتى أنه لا يستبعد أن تتحول قريبًا إلى متحف يقصده السياح للتعرف إلى أسلوب العمل في الدواوين الحكومية عند القدماء، ربما لا يفهم هؤلاء الصغار ذلك لكن لا بد أن الكبار يدركونه، نهض حاملًا تساؤلاته وغضبه إلى الموظفة ذات الخمار باعتبارها أقدم مَن في القسم بعده والأجدر بأن تقدّر الأمور بحكمة، قال لها في استنكار:

– زيادة إيه وحوافز إيه اللي عايزين يعتصموا عشانها دي؟ هما مش واخدين بالهم ان الحكومة بتدفع لنا حسنة كل شهر واحنا ما بنعملش حاجة؟

تطلعت إليه السيدة بوجهها السمين في استياء ظاهر وردت في حدة:

– إحنا موظفين حكوميين يا حاج ودي حقوقنا ولازم نطالب بيها، محدش بيدينا حسنة، إحنا بنعمل اللي الوزارة بتكلفنا بيه، لو الوزارة مش عارفة تدير المصلحة دي تبقى مشكلتها مش مشكلتنا.

كان الجميع في المصلحة يلقبونه بالحاج رغم أنه لم يمتلك قط المقدرة المادية لأداء فريضة الحج، لكن باعتبار عمره الكبير وهيئته الوقورة وذهابه مرة واحدة إلى العمرة، شعر ببعض الوجاهة في رأيها فأجاب في لهجة هادئة:

– أيوة بس يعني إحنا شايفين ظروف البلد وبنعاني منها، كل يوم مظاهرات واعتصامات وقطع طرق لما بقينا مش عارفين نرجع بيوتنا، نقوم احنا الموظفين الحكوميين اللي بنفهم في الأصول واللوايح نعمل اعتصام ونعطل مصالح الناس كده؟

شعرت السيدة بأن الحاج لا يدرك معاناتهم واحتياجهم الشديد لزيادة ما يتحصلون عليه من قروش، فقالت بلهجة حذرة بحكم العشرة الطويلة:

– يا حاج الدنيا بقت نار والمعايش صعبة، اللي عنده عيلين دلوقتي مش عارف يكفيهم أكل وشرب ومواصلات وتعليم وكسوة وعلاج، كل حاجة بتغلى والمرتبات زي ما هي! ودي فرصة مش هتيجي تاني، المجلس العسكري عايز يراضي الناس عشان الأمور تعدي على خير، شفت بتوع الضرايب العقارية لما عملوا اعتصام وطلعوا في التلفزيون؟ صرفولهم كل اللي طلبوه مع إنه مش حقهم بيني وبينك بس هي الدنيا اليومين دول بقت كده، اللي صوته عالي هو اللي بياخد حقه.

أدرك الرجل ما تلمّح إليه بأدب زميلته القديمة، ماذا يعرف هو عن معاناة الموظفين وهو الذي يحصل على راتب أكبر منهم، ويعيش وحيدًا في

شقة كبيرة بوسط المدينة، ولا يتحمل مسئولية أسرة ولا يربي أبناءً؟ يكفي راتبه لحاجات معيشته البسيطة، وما يدفعه شهريًّا للمقهى، فلماذا يلومهم على المطالبة بما يكفي احتياجات أسرهم الكبيرة وبيوتهم المفتوحة طالما أن الوضع الحالي قد جاد عليهم بتلك الفرصة؟ فليفعلوا ما يشاؤون طالما سيبقى هو بعيدًا عن تلك "البهدلة" التي لا تليق بشيبته ولا بمكانته الاجتماعية، ليذهبوا وليبيتوا في العراء على قارعة الطريق، وليتعرضوا لسخافات الإعلاميين المتطفلين ومزايدات السياسيين الانتهازيين وسيبقى هو جالسًا بكرامة على المقهى يتابعهم من بعيد.

حاز الاعتصام الذي استقر رأيهم على إقامته أمام مبنى المصلحة الواقع على شارع رئيسي بوسط المدينة على اهتمام بالغ من وسائل الإعلام بعد أن روّج له عدد غير قليل من النشطاء السياسيين والحقوقيين على وسائل التواصل الاجتماعي، كان المزاج العام والحالة الثورية الطاغية على البلاد بيئة مثالية لإنجاح المسعى الذي سعوا إليه، امتدت لهم يد العون من جهات وأفراد يسعى كل منهم لتحقيق مكاسب تضيف إلى رصيده في السباق المحموم على اقتسام الكعكة الكبرى التي باتت فجأة غنيمة لكل من يستطيع اقتطاع جزء منها، حقوقيون ونقابيون ونشطاء وإعلاميون وحركات ثورية وهيئات أجنبية وأحزاب جديدة ومنتفعون ومتسلقون وأفاقون التقت مصالحهم جميعًا على رصيف المصلحة الحكومية العتيقة التي لم تطأها قدم أحدهم من

قبل، وربما لم يعلم بوجودها قبل أن يبرز اسمها مؤخرًا، حظي الاعتصام قبل أن ينقضي أسبوع واحد على بدايته بساعتين كاملتين من البث المباشر مع إعلامي شهير على قناة فضائية جديدة دُشِّنت بعد الثورة، استضاف البرنامج اثنين من قادة الاعتصام من الموظفين، وأربعة من خارج المصلحة لا يعرفهم أحد من الموظفين، ناشط سياسي ممن اصطلح على تسميتهم بشباب الثورة وصحفي ومحام حقوقي من المختصين بالقضايا العمالية وشخص مجهول كان دائم الوجود في الاعتصام مقدمًا نفسه كمواطن حريص على حقوق أهل الدائرة، كان الحاج يتابع البرنامج باندهاش عبر شاشة تلفزيون المقهى، كان يستمع إلى المناقشات المطولة والمصطلحات المعقدة محاولًا استيعاب الكيفية التي تحولت بها هذه المصلحة المهملة إلى حديث الساعة ومثار النقاشات والتحليلات السياسية والاقتصادية، كان واضحًا على زميليه المستضافين في الحلقة عدم استيعاب الأمر كذلك، لم يترك لهما مقدم البرنامج مجالًا كافيًا للحديث، ولم يكن لديهما ما يقولانه على أي حال، كانت الحلقة بالكامل موجهة بشكل واضح لأهداف سياسية، تحدث الناشط والحقوقي بإسهاب عن فلول النظام السابق ومحاولاتهم لإجهاض الثورة وعن تواطؤ المجلس العسكري الحاكم وعن انعدام ثورية الوزراء الذين جاءت بهم الثورة وعن عقود من الإفقار والتجهيل المتعمد للشعب المصري، لكن أحدًا لم يتطرق إلى طبيعة عمل تلك المصلحة وما تقوم به من عمل كمبرر لمطالب موظفيها.

قبل نهاية البرنامج بدقائق تلقى مقدمه مداخلة هاتفية من الوزير المختص بنفسه، قال الرجل إنه تابَعَ اللقاء باهتمام وتفهّم مطالب إخوانه الموظفين وأبنائه شباب الثورة، وأنه سيصدر بمجرد وصوله إلى مكتبه صباح اليوم التالي قرارًا بتطوير العمل في المصلحة تطويرًا شاملًا، ووعد بمناقشة موضوع زيادة الرواتب في مجلس الوزراء كجزء من ذلك التطوير المقترح مناشدًا الموظفين الشرفاء فض اعتصامهم بعد أن وصلت مطالبهم إلى أعلى سلطة في الدولة مخاطبًا فيهم الروح الوطنية التي تراعي مصلحة الوطن وضمان استقراره واستمرار عجلة إنتاجه في الدوران في هذه الظروف العصيبة، تلقّى الجميع تلك المداخلة بالترحيب حتى أن ممثلي الموظفين أعلنا على الهواء فض الاعتصام فورًا فيما شكّك الناشط الثوري بشدة في مصداقية الوزير، وطعن في تاريخه، ولمّح إلى علاقاته الوثيقة بالنظام السابق.

كان الحاج يضرب كفًّا بكفٍّ وهو يتابع هذا الهراء، كان على يقين بأن ذلك الوزير يسجل موقفًا سياسيًّا لا أكثر بعد أن تعرض للابتزاز والمزايدة طوال ساعتين على الهواء، فلم يزر هذا الوزير المصلحة منذ تولى مسئولية الوزارة قبل شهور قليلة، وأغلب الظن أنه لا يعرف عنها شيئًا وإلا لما تحدث عن تطويرٍ أو عجلةِ إنتاج، هذه المصلحة لا تنتج شيئًا بل هي محض عبء على كاهل الدولة والتطوير الوحيد الذي يمكن أن يحدث لها هو إلغاؤها تمامًا.

في الصباح التالي صدر بالفعل قرار وزاري بتشكيل لجنة برئاسة الوزير بنفسه لتطوير العمل بالمصلحة، كان الحاج ضمن المختارين لعضوية اللجنة بصفته أحد أقدم رؤساء أقسامها، دُعيت اللجنة للانعقاد والاجتماع بديوان الوزارة في الأسبوع المقبل لمناقشة خطة العمل المقترحة، كان ما يزال تحت تأثير الصدمة، ولم يكد يعرف ما سيقوله لذلك الوزير الذي لا يعلم شيئًا وينتظر بالقطع رأيه كونه موظفًا قديمًا ورئيس قسم، طلب من أحد الموظفين الشباب أن يبحث له في الإنترنت عن معلومات حول الوزير الجديد الذي لم يعرف عنه من قبل غير اسمه، ولم يكن يهمه وقتها سوى ذلك فقد تعاقب عليه أحد عشر وزيرًا منذ التحق بهذا العمل وكانت آخر زيارة قام بها وزير للمصلحة منذ عشرين عامًا على الأقل، كان الوزير حسب ما تُشير المعلومات عنه أنه أستاذ جامعي مرموق، دَرَسَ وعاش فترة طويلة في ألمانيا، وكانت سيرته الذاتية مُشرَّفة وحافلة بالإنجازات العلمية والأكاديمية، كان يبدو كشخص بعيد كل البعد عن الأخطبوط المعقد الذي يدير الجهاز الحكومي وسيصعب عليه بالتأكيد تقييم حالة المصلحة بشكل واقعي، هذه الأشياء لا يدركها إلا من قضى سنوات داخل هذه المنظومة وعايشها بنفسه فترة كافية، وتعامل مع اللوائح الوظيفية ودار بين دهاليز الدواوين، وملأ رئتيه غبارُ الملفات العتيقة، لا يمكن لشخص قادم من خارج تلك المنظومة أن يُدرك خباياها هكذا ببساطة، فهذه المنظومة أقدمُ وأعقدُ من أي شيء رآه خارجها،

وفي كل مواجهة كانت المنظومة تخرج فائزة، في كل مرة كانت المنظومة السيئة تهزم الأشخاص الجيدين.

في الاجتماع الأول على طاولة الاجتماعات الطويلة بالغرفة الملحقة بمكتب السيد الوزير الذي يدخله للمرة الأولى في حياته رأى ما توقعه بالضبط، كان الوزير مهذبًا ومثقفًا، وبدا عليه بوضوح وقار العلماء، لكن لم يبدُ أن له سابق خبرة بتعقيدات ذلك الجهاز البيروقراطي العقيم الذي يتحكم في أطراف الجسد الحكومي بأكمله، كان يريد – بصدق – أن ينفض الغبار المتراكم على الملفات العتيقة، لكنه لم تكن لديه أدنى دراية بما سيفعله بذلك الغبار بعد أن ينفضه، ليت الأمر كان بتلك البساطة التي تتخيلها أيها الوزير المثقف.

طرح مساعدو الوزير من كبار الموظفين العالمين بدهاليز المصالح الحكومية حلولًا وسطية واقعية تكشف عن خبرة عميقة بلوائح النظام الحكومي، حلولًا ترضي الموظفين الغاضبين، ولا تُحمِّل الوزارة أعباءً إضافية باهظة، كانت تلك الحلول مرضية لهم كونهم ممثلين للمصلحة، إلا أن الوزير وقف فجأة وخبط بكفه على طاولة الاجتماعات، وقال بحدة موجهًا الحديث إلى مساعديه:

– أنا ماينفعنيش الكلام ده! أنا مش جاي عشان أكنس التراب واخبيه تحت السجادة، أنا جاي بتكليف من المجلس العسكري عشان اعمل إصلاح شامل في الوزارة، مش جاي اطبطب على حد!

توتر جو الاجتماع وتطلع الحاضرون إلى بعضهم البعض في وجوم، لم ينتظر الوزير ردًّا من أحد فأردف في لهجة أهدأ:

– اسمعوا يا أساتذة، إحنا دلوقتي في عهد جديد وأظن كلنا عايزين نفتح صفحة جديدة عشان مصلحة البلد، اللي كان بيحصل زمان مليش دعوة بيه ومش هكمل على حاجة غلط، دي مسئوليتي وانا اللي هتحاسب عليها قدام القيادة السياسية وقدام التاريخ كمان، أنا هعمل اللي يرضي ضميري كراجل أكاديمي، ولو فشلت أو لو القيادة السياسية شافت حاجة مختلفة هستقيل وارجع الجامعة، لكن مش هستمر في حاجة غلط.

سرت همهمات غير واضحة بين الحاضرين، كان أغلبها من طرف مساعدي الوزير تأييدًا لخطته التي لم يعلنها بعد، استطرد الوزير:

– أنا درست حالة المصلحة بتاعة حضراتكم بنفسي، المصلحة دي باختصار بقت خارج الزمن، إحنا طبعًا يهمنا الموظفين بتوعنا لكن يهمنا كمان تطوير المصلحة عشان تواكب العصر وترجع مفيدة ومؤثرة زي زمان، بس أنا محتاج تعاون منكم عشان ننجح كلنا، أنا عندي تصور مبدئي لخطة تطوير المصلحة وتحويلها بالكامل لتكنولوجيا رقمية حديثة هترفع من مستوى أداءها زي ما حصل للهيئات المماثلة في أوروبا، أنا شخصيًا اشتغلت في مشاريع تطوير مشابهة في ألمانيا وسويسرا والنمسا، يعني النموذج موجود وجاهز للتطبيق، فاضل بس ان الموظفين يبقوا جاهزين، قلتوا إيه حضراتكم؟

قال الجملة الأخيرة وهو يوجه بصره ناحية مدير عام المصلحة الذي ارتبك لبرهة من جراء السؤال المفاجئ ثم أجاب بتردد:

– مش فاهم معاليك تقصد إيه بالضبط يعني الموظفين مطلوب منهم إيه؟

أجاب الوزير بسرعة كأنما كان ينتظر تلك الإجابة:

– مطلوب منهم يشتغلوا يا فندم.

رفع المدير العام حاجبيه بدهشة وأجاب:

– معاليك إحنا بنعمل الشغل المطلوب مننا ومفيش تقصير من ناحيـــة..

قاطعه الوزير قائلًا ببطء مؤكدًا على مخارج ألفاظه:

– مطلوب منهم يشتغلوا على نفسهم يا سيادة المدير، مطلوب منهم يساعدونا نطور مهاراتهم وندربهم، التطوير مش هيجيب نتيجة لو الموظفين نفسهم مش عايزين يتطوروا.

ردَّ المدير العام بتلعثم محاولًا التملص بعد أن أدرك أنه قد تم استدراجه لمعركة لم يكن مستعدًّا لها:

– يا معالي الوزير الموظفين مطالبهم كانت بسيطة يعني مجرد زيادة عادية في المرتبات زي ما حصل في المصالح المشابهة ومش طالبين أكتر من كده،

أنا حتى ممكن اتكلم معاهم في تأجيل موضوع الحوافز دلوقتي لو ميزانية الوزارة لا تسمح.

ابتسم الوزير في ظفر وقال بلهجة المنتصر:

– إحنا تجاوزنا موضوع الرواتب ده يا سيادة المدير، وانا وعدت اني هناقشه في مجلس الوزراء، اللجنة دي مهمتها تطوير المصلحة، وزي ما قلت لسيادتك مفيش تطوير هيجيب نتيجة لو الموظفين نفسهم مش عايزين يتطوروا، السؤال دلوقتي يا أساتذة: الموظفين بتوعكم عايزين يتطوروا ولا نقفل الموضوع ده كله ونفضّها سيرة؟

قال الجملة الأخيرة مُقلِّبًا بصره بين أعضاء اللجنة من موظفي المصلحة بينما كان مساعدو الوزير يبتسمون في شماتة، رد المدير العام وهو يجفف عرقه بمنديل:

– أفهم من كده ان معاليك بتخيّرني بين تنفيذ خطة التطوير وإلغاء المصلحة؟

أجاب الوزير بنفس اللهجة الهادئة الواثقة:

– لا يافندم أنا لا أملك إلغاء المصلحة، لكن زي ما مشاكل الوزارة بقت بتتناقش على الهواء في التلفزيونات أنا كمان ممكن اروح التلفزيون واقول ان الموظفين رافضين التطوير وعايزين يفضلوا كده يقبضوا مرتبات من غير شغل وكمان بيطالبوا بعلاوة، خلينا نشوف الرأي العام هيقول إيه.

هنا تدخل الحاج ونطق للمرة الأولى قائلًا في حماسةٍ:

– إحنا موافقين على التطوير يافندم، أنا أول واحد مستعد للتدريب.

نظر إليه المدير العام في غضب بالغ من ذلك التجاوز الفادح لسلطته، وقد كان زميلًا قديمًا له، لكنه سبقه بالمهارات التسلقية اللازمة للترقي في الهيكل الحكومي، ثم نظر إلى الوزير وقال بلهجة المهزوم:

– تمام يا معالي الوزير، اللي تشوفه معاليك.

***

جلس الحاج ينتظر الوزير بصالة المغادرة في المطار، حاول الوصول إليه بشتى الطرق في الأسابيع الأخيرة لكنه لم ينجح في مقابلته، كان في كل مرة إما في اجتماع بمجلس الوزراء أو في القصر الجمهوري أو في البرلمان، كان قد مضى ما يقارب السنة منذ أن اجتمعت اللجنة للمرة الثالثة والأخيرة برئاسة الوزير، ذلك الوزير الذي أعاد إليه الحياة وأيقظ في نفسه الأمل مرة أخرى بخطته لتطوير تلك المصلحة الميتة ككل من يعمل فيها وهو أولهم، منحته تلك الخطة الأمل في عودة النور إلى الشقة الخالية والمصلحة المهملة وإلى قلبه هو شخصيًّا، أصبح له أخيرًا غاية يسعى لتحقيقها، ليست غاية شخصية فحسب بل غاية وطنية ستعود بالنفع على الجميع، وسيخلد اسمه في تاريخ المصلحة باعتباره الفارس الذي أنقذها من الموت بعد أن كاد يغادرها بعد

عشرات السنين من الخدمة دون أن يترك أثرًا يتذكره به أحد، كانت الخطة تتلخص في تحويل الأرشيف الورقي الضخم الذي تمتلكه المصلحة ويمثل كنزًا من المعلومات والوثائق مدفونًا تحت طبقات الغبار داخل خزانات صدئة إلى نسخة إلكترونية رقمية مبوّبة ومصنّفة حسب النظم العالمية المعتمدة في قواعد بيانات يمكن البحث داخلها ثم إتاحة الدخول إلكترونيًّا إلى هذا الأرشيف الرقمي بالمجان للوزارات والهيئات الحكومية ومراكز صُنع القرار وللجامعات والمراكز البحثية المحلية، ثم في مرحلة لاحقة يمكن إتاحة الدخول إلى الأجزاء التي لا تمسُّ الأمن القومي منه بمقابل مالي لأي جهة خارجية تطلب ذلك لتعويض ما سيتم إنفاقه على التطوير؛ ولخلق مصدر دخل للمصلحة يمكّنها من تمويل زيادة الرواتب دون الحاجة إلى دعم من الوزارة.

أنهى الوزير الاجتماع الأخير بتأكيده على أن دوره انتهى هنا بوضع الخطة الكاملة واعتماد الميزانية اللازمة، وأنها مسئولية اللجنة الآن أن تستكمل الإجراءات التنفيذية حسب الجدول الزمني المعتمد.

تكررت بعد الاجتماع الأخير مع الوزير اجتماعات روتينية لا تتخذ قرارات ولا تتابع تنفيذ الخطة التي وضعها الوزير بنفسه، كانت مجرد سد خانة، تسجيل للحضور من أجل قبض المكافأة المالية وتناول الشاي

والكعك ثم الانصراف، ذهب القسط الأكبر من الميزانية التي اعتمدها الوزير للتطوير في تمويل شراء حاسبات آلية عن طريق مناقصة جرى إرساؤها على شركة مجهولة قامت بتوريد أجهزة ظهر بعد استلامها أنها قديمة الطراز، وربما تكون مستعملة، لكن تلك الشركة كانت قد قدمت العرض الأقل في المناقصة فقُبِلَ عرضُها حسب اللوائح، ثم ذهب القسط الباقي في تمويل برنامج تدريب الموظفين الذي فازت به شركة مصرية واعدة اشترك في تأسيسها شباب طموحون نجحوا في إقناع الوزير واللجنة بمهاراتهم، كما أنهم قدموا عرضًا ماليًّا مغريًا، لكنهم اصطدموا منذ اليوم الأول للتدريب بحقيقة أن الحاسبات المشتراة لا تتناسب إمكاناتها مع ما تتطلبه برامجهم، لجأ المدربون الشباب إلى أعضاء اللجنة لإيجاد حلٍّ ينقذ البرنامج التدريبي الذي استغرق شهورًا في إعداده وإعادة ضبطه ليلائم استخدام المصلحة ونوعية العمل المطلوب منها أداؤه، لم تستطع اللجنة الوصول إلى قرار، ولم يكن من الممكن مصارحة الوزير بأن الميزانية الكبيرة التي حارب في مجلس الوزراء من أجل تدبيرها لشراء الحاسبات قد أُهدرت، ثم كعادة الموظفين الروتينيين خرج مدير عام المصلحة باقتراح أن يتم استكمال البرنامج التدريبي بشكل نظري فقط حتى تتم إعادة النظر في موضوع الحاسبات لاحقًا، لاقى ذلك الاقتراح العقيم كما هو متوقع رضا غالبية أعضاء اللجنة؛ لأنه كان يعفيهم – ولو مؤقتًا – من المساءلة أمام الوزير أو يؤجل تلك المساءلة لوقت لاحق كما

تقتضي قواعد الأخطبوط الحكومي الذي لا يعنيه عامل الوقت في شيء، بل إنه دائمًا ما يراهن عليه، فربما يذهب الوزير نفسه وتذهب خطته إلى غياهب الأرشيف، كما ذهبت خطط سابقة، ويخرج الأخطبوط الحكومي سالمًا كما كان يخرج في كل مرة.

سانَدَ الحاج الشباب القائمين على التدريب في اعتراضهم على قرار اللجنة، وفي محاولتهم إقناع أعضائها بأن ذلك ليس ممكنًا، فهم لا يلقون محاضرات في القانون يمكن شرحها نظريًّا وإنما يدربون الموظفين على نظم معلومات وقواعد بيانات متطورة تستلزم وجود جهاز مناسب لكل مُتدرِّب، لكن اللجنة قررت ولم يكن هناك بُدٌّ من الخضوع لقرارها، تحايل المدربون الشباب على تلك العقبة بقدر الاستطاعة فأحضروا حواسبهم المحمولة الشخصية ليشرحوا برامجهم من خلالها، وليدربوا الموظفين عليها بالتناوب، لكنهم اصطدموا بالعقبة الثانية وهي عدم استجابة المتدربين أنفسهم، وعدم رغبتهم في بذل أي مجهود، كان الموظفون يرون الأمر كله ورطة أوقعهم فيها الوزير جزاءً لتمردهم وقيامهم بالاعتصام ضده، فقرَّر معاقبتهم بهذه الطريقة، كان كل ما يريدونه كما صرّحوا لمدربيهم بكل وضوح هو الحصول على الشهادة التي تثبت اجتيازهم للتدريب حتى يصبحوا مؤهلين للحصول على العلاوة التي أقرها مجلس الوزراء فقط لمن يجتاز البرنامج التدريبي بنجاح حسب توصية الوزير، لم يكن الأمر كله بالنسبة لهم إلا ورقة جديدة يضمونها إلى

ملفاتهم القابعة في خزانات قسم شئون العاملين مثلها مثل أي ورقة أخرى، كانت عقلياتهم التي مسختها أتربة الملفات العتيقة ورطوبة حوائط الدهاليز الحكومية رديئة الإضاءة لا تعرف إلا الأوراق التي كانت محور حياتهم، يتسلمون وظائفهم بورقة، ويقبضون رواتبهم الشهرية بورقة، ويمرضون بورقة، ويتزوجون بورقة، يعاقَبون ويكافَؤون بورقة، يترقون ويُنقلون بورقة، ويموتون بورقة، لم تكن لديهم الرغبة ولا الاستعداد لبذل أي مجهود إلا من أجل الحصول على ورقة.

أبدى اعتراضه في كل مرة، غضب وخبط بكفه على طاولات الاجتماعات، صاح في وجه زملائه الكسالى عديمي الطموح الذين عطلوا التدريب لخوفهم من أن تؤدي تلك الخطة إلى الاستغناء عنهم، فقد كانوا يدركون تمامًا أن حاجة العمل بعد التطوير لن تتعدى ربع عددهم، ومِن ثمَّ ستقلل الوزارة أعداد الموظفين تدريجيًّا، وسيفقد غالبيتهم وظيفته في نهاية المطاف، هدَّدهم باللجوء إلى الوزير وكشف الأمر أمامه، لم يُعره أحد انتباهًا، حاول الاتصال بالصحف والقنوات الفضائية لفتح القضية مرة أخرى، لكنه لم يستطع إثارة اهتمام أيٍّ من أصحاب المصالح الذين لم يكونوا يغادرون الاعتصام طالما كانت هناك كاميرات وأضواء، استطاع الوصول إلى بعض من هؤلاء النشطاء عن طريق زبائن المقهى من العاملين بالإعلام لكنهم لم يكونوا متحمسين للقضية التي لم تكن واعدة بأي مكاسب سياسية أو شعبية، لا إضرابات ولا اعتصامات ولا إحراجٍ للحكومة أو للرئيس الجديد وجماعته،

بل على العكس كانت تصبُّ في صالح الوزير وهو ما قد يؤخذ عليهم كونهم نشطاء معارضين لا يصح لهم "التطبيل" للحكومة على حد تعبير أحدهم، لم تكن قضية شعبوية من النوعية التي تحقق لهم الشهرة، بل كانت على العكس تفضح فساد المواطن لا فساد السلطة، من ذا الذي يغامر باستفزاز ملايين الموظفين من أجل وزير غير تابع للجماعة التي باتت تحكم البلاد، وقد يغادر منصبه في أي وقت؟ لم تكن بضاعته رائجة ولم يستطع تسويقها وسط تجار القضايا هؤلاء.

حَسَمَ أمره وقرر أن يذهب إلى الوزير شخصيًّا، لقد أثبت ذلك الوزير في الاجتماعات الثلاثة التي حضرها معه أنه شخص شجاع وقوي الشخصية وراغب في الإصلاح بالفعل؛ لذلك فلن يرضيه هذا المصير المزري الذي تردّت إليه خطته العلمية الطموح، كانت الحالة السياسية في مرحلة انتقالية غير واضحة بعد انتخابات رئاسية أسفرت عن تنصيب رئيس جديد، كانت البلاد في مرحلة إعادة هيكلة شاملة، وكان لقاء الوزير في تلك الأجواء أمرًا شبه مستحيل، ظل يسعى للقائه بديوان الوزارة دون جدوى حتى قرر أن يبحث عن محل سكنه، ذهب إليه يطلب اللقاء لكن ضابط الحراسة في الكشك الخشبي المقام أمام المنزل أوضح له بأدب بعد أن عرف بمنصبه وعضويته للجنة يرأسها الوزير بنفسه أن معالي الوزير قد سافر في رحلة قصيرة إلى ألمانيا ضمن الوفد المرافق لرئيس الجمهورية، وأنه سيعود في خلال أيام.

بعد انقضاء أسبوع تابع خلاله عبر تلفزيون المقهى زيارة رئيس الجمهورية والوفد الوزاري المرافق له إلى ألمانيا وشاهد الوزير باهتمام وهو يناقش المسئولين الألمان الذين بدوا وكأنهم أصدقاء له ثم يشرح للرئيس بعض الأمور، كان يعرف أن الرئيس الجديد أستاذ جامعي هو الآخر ولا شك أنه سيقدر المنهج العلمي الذي ينتهجه الوزير، كان متفائلًا بعصر جديد قادم، ثم تأكد من عودة الوفد إلى البلاد فترك للوزير بضعة أيام أخرى يستريح فيها وينعم بنجاح رحلته الواضح قبل أن يشغل باله بالأخبار السيئة التي يحملها، قضى تلك الأيام في شقته عاكفًا على إعداد تقرير مُفصَّل عن مصير خطة الوزير استعان فيها بخبرته الطويلة بالأعمال الكتابية الحكومية، استغرق تمامًا في تفصيل كل الوقائع وتدعيمها بالمستندات حتى أنه لم يذهب إلى المصلحة، ولم ينزل إلى المقهى طوال أربعة أيام كاملة للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، أكمل تقريره وذهب به إلى منزل الوزير مساءً فلم يجد كشك الحراسة، سأل حارس العمارة عن الوزير فأخبره أنه غادر المنزل منذ دقائق متجهًا إلى المطار حيث سيلحق بالطائرة المغادرة إلى ألمانيا بعد ثلاث ساعات، لم يكن هناك مَفرٌّ من مقابلة الوزير بأي شكل قبل سفره، فلا يعلم كم سيمكث هذه المرة، أوقف سيارة أجرة وانطلق إلى المطار، جلس في صالة المغادرة ينتظر قدوم الوزير ثم فكر لحظةً أنه بحكم منصبه ربما سيغادر من صالة كبار الزوار التي يسمع عنها، نهض ليسأل عن مدخل تلك الصالة حتى ينتظره هناك،

لكنه بمجرد نهوضه شاهد الوزير قادمًا في معطف ثقيل وطويل وعليه كوفية صوفية أنيقة يدفع أمامه عربة عليها حقائب كثيرة وكبيرة وبصحبته سيدة راقية المظهر وبنتان في سِنِّ المراهقة، بدا له أن الوزير مسافر في عطلة عائلية وربما لذلك لم يستخدم صالة كبار الزوار، توجه إليه مسرعًا وهو يحمل الملف الذي يحتوي على التقرير المفصل، سلم عليه فرد الوزير السلام بطريقة استنبط منها أنه لا يذكره، ذكّره بنفسه وباللجنة والمصلحة فتذكره الوزير بسرعة وحيّاه بابتسامة، ثم همّ باستكمال سيره إلى الداخل فاستوقفه قائلًا:

– يا معالي الوزير، أنا جايب لسعادتك تقرير مفصل عن فساد في عمل لجنة التطوير، الخطة اللي معاليك حطيتها مش ماشية في الطريق الصحيح.

التفت إليه الرجل في مزيج من الدهشة والاستنكار ورد عليه وهو يكمل سيره:

– أنا مليش علاقة بالموضوع ده خلاص.

اندهش الرجل بشدة وهرول وراء الوزير محاولًا استيضاح الأمر قائلًا:

– يافندم طيب أعدي على معاليك في الوزارة لما ترجع بالسلامة؟ هو معاليك هتطول في الزيارة دي؟ ولا أسلم التقرير لسيادة وكيل الوزارة؟

التفت إليه الوزير وهو يواصل سيره مع أسرته وقال في هدوء مشوب بالأسى:

– سلمه للوزير الجديد، ده لو كان مهتم بالموضوع، إنت ما بتقراش جرايد؟

أكمل الوزير السابق سيره نحو موظفة تسجيل الحقائب التي أضاءت فوقها لافتة تحمل علامة شركة الطيران الألمانية تتبعه أسرته بينما تسمّر الحاج في مكانه محدقًا إليهم برهة بغير فهم، ثم استدار واتجه نحو البوابة في صمت متأملًا أفواج القادمين إلى الصالة في طريقهم لمغادرة البلاد، بدا له لحظةً أن موجة هجرة جماعية قد بدأت، وكأن البلاد على شفا حرب أو مجاعة، بدا له غالبية المغادرين من الطبقات المتيسرة، عائلات كاملة تحمل حقائب كبيرة كما لو كانوا قد حزموا بداخلها عالمهم كله لينتقلوا به إلى أرض جديدة، عند خروجه خُيّل إليه أنه رأى ذلك الشاب الوسيم الأنيق طويل القامة الذي يهرول ويجر حقيبة تبدو غالية جدًّا على بلاط الرصيف العريض الأملس المبتل من المطر الخفيف الذي لم يزل يتساقط، لا يذكر هل رآه في تلفزيون المقهى أم في مكان آخر، ربما كان أحد الممثلين أو المطربين الجدد، بدا له متعجلًا كما لو كان يفرّ من شيء ما، بدا له أن الجميع يفرون من السفينة، فهل اقترب موعد غرقها إلى ذلك الحد دون أن يشعر؟ بدت له صالة المغادرة كلها كأحد أعمدة الضوء المتسللة من الخارج إلى شقته، وبدا له الجميع كما لو أنهم يتراقصون فيها بعشوائية صاخبة كذرات الغبار هاربين من الظلام المطبق، ومن الموت.

(٧)

ديسمبر ٢٠١٢

منتصف الظهيرة في دبي، في درجة حرارة لا تتناسب أبدًا مع هذا الشهر من السنة، شمس ساطعة تخترق حرارتها الواجهة الزجاجية التي تغطي جدار المبنى الخارجي بالكامل فتفرض عليك إبقاء جهاز التكييف طوال الوقت على وضع التشغيل، يتأمل عبر الزجاج من مكتبه في طابق مخيف الارتفاع الأبراج الشاهقة المتراصة فيما بدا له سباقًا محمومًا نحو السماء عبر تصميمات مبتكرة حقًا، من خلفها تبدو مساحة شاسعة من مبانٍ منخفضة، فيلات ومدارس وحدائق لا تحجب منظر البحر الممتد وراءها حتى خط الأفق الذي لا يبدو واضحًا، لا يمكنك أن تميز بالضبط أين ينتهي البحر بلونه الرمادي وأين تبدأ السماء بلونها الذي هو رمادي كذلك، تخفي ذلك الحد الفاصل بينهما غلالة من ضباب بعيد غامض، يفصل منطقة الأبراج

عن منطقة الفيلات الشارع العريض الذي لا تهدأ عليه حركة السيارات والمترو، يفصل ذلك الشارع بين عالمين مختلفين وكأنما يمثل سدًّا منيعًا ظاهره فيه منطقة الأعمال التي تضجُّ بالحركة منذ ساعات الصباح الأولى حتى بداية الليل، وباطنه من قِبَله منطقة السكن والنزهة الهادئة طوال اليوم العامرة بالحياة منذ المساء، لا يفهم لماذا يصرون على تغليف المباني بواجهات زجاجية في بلاد شديدة الحرارة كهذه البلاد التي لا يبدو أن الشتاء يعرف طريقها، في الصيف تتجاوز الحرارة الخمسين درجة في بعض الأيام، وتتخطى نسبة الرطوبة الحدود الآدمية فتزيد من الشعور بالقيظ، في الصيف يصبح البقاء خارج الأماكن المغلقة المكيفة لدقائق مغامرة غير مأمونة العواقب.

قطع رنين الهاتف ملل الصمت، أتاه صوتُ السكرتيرة الهندية متحدثة الإنجليزية بلكنة لا علاقة لها بالإنجليزية لكنها صار يفهمها بالتعود، أو يفهم معظمها على الأقل، أبلغته بحضور شخص يسأل عنه، عرف اسم الشخص بحدسه فقط فلم يكن لما نطقته أي علاقة بالاسم العربي الذي يصعب عليها نطقه لكنه كان ينتظر قدومه، طلب منها أن تدخله، انفتح الباب بعد طرقات خفيفة، ودخل في أدب شابٌّ نحيل أسمر حليق الذقن بدقة يرتدي بدلة رمادية رخيصة لكنها نظيفة ومكوية بعناية وربطة عنق قديمة الطراز، لكن ألوانها متناسقة مع لون البدلة، كان الاضطراب والارتباك باديين عليه بوضوح مما دعا الرجل الأربعيني الأنيق الجالس خلف المكتب لطمأنته

بابتسامة عريضة وإشارة من يده يطلب بها منه الجلوس على المقعد المقابل، ثم قال له بلهجة ودودة:

– أهلًا يا بطل، اتأخرت ليه؟ ماعرفتش توصل للعنوان علطول؟

ارتبك الشاب مرة أخرى وقال بنبرة اعتذار:

– أنا آسف والله يافندم حضرتك أنا عرفت المكان من خريطة جوجل بس أخدت وقت في المشي من محطة المترو عشان كان فيه إشارات و..

قاطعه بابتسامة هادئة:

– إوعى تكون عديت الشارع والإشارة حمرا، الغرامة ٢٠٠ درهم خد بالك.

ردَّ مباشرة:

– لا لا يا فندم أنا راجل ملتزم، أنا آسف بس على التأخير ده.

طمأنه بإشارة من يده وأردف في نفس اللهجة الودود:

– أنا بهزر معاك، مفيش مشكلة دي كلها عشر دقايق.

ثم تحولت ملامحه إلى الجدية واعتدل في جلسته وقال:

– شوف، أنا اتكلمت مع الإدارة بخصوص موضوعك، إنت ممكن تبتدي معانا من يوم الحد ان شاء الله، الرقم اللي قلتلك عليه المرة اللي فاتت

هما وافقوا عليه، زي ما شرحت لك هما مكانوش هيدفعوا أكتر من كده، وعلى كل حال لما تشتغل وتثبت كفاءتك ممكن يعيدوا التقييم بعد كام شهر.

تهلَّل وجه الشاب الأسمر ولمعت عينه بالفرحة، هَبَّ واقفًا بحركة لا إرادية، ومَدَّ يده لمصافحة الرجل الوقور بحرارة قائلًا في انفعال وشكرٍ بالغين:

– أنا مش عارف اشكر سيادتك إزاي على وقفتك جنبي وعلى المجهود اللي عملته عشاني، حضرتك غيرت مسار حياتي.

صافحه قائلًا في ودٍّ:

– يا سيدي مفيش مجهود ولا حاجة، انت شاب كويس ومؤهلاتك مناسبة للوظيفة اللي احنا محتاجين حد يشتغلها، الموضوع كله عرض وطلب، والأرزاق دي بإيد ربنا مش بإيد حد.

ردَّ مُؤمِّنًا على كلامه:

– ونعم بالله.

– يالا روح جهز أوراقك وتبقى تنزل بدري ربع ساعة عشان توصل في معادك، الوقت هنا مهم أوي، خد بالك الصبح المترو بيبقى زحمة مش زي دلوقتي، ولّا استنى شوية لما أعرفك على الزملاء.

***

كل شيء في هذه البلاد كبير لدرجة مخيفة، الأبراج، السيارات، الشوارع، كل شيء سريع، وكل شيء فاحش الغلاء، إيجار شقة صغيرة في سنة واحدة يعادل ثمن شقة متوسطة في مصر، كاد يُصاب بالجنون في أيامه الأولى هنا عندما كان يحسب سعر كل شيء بالجنيه المصري، تذكرة المترو بعشرة جنيهات، مشوار قصير بالتاكسي بمائتي جنيه، كشف عادي عند طبيب في مستشفى بألف جنيه، تكلفة استخراج رخصة القيادة تتجاوز التسعة آلاف جنيه، فقد ما يتجاوز نصف مدخرات عمره في شهوره الأولى فقط، استأجر شقة صغيرة من غرفة واحدة وصالة بعد أن كان يضيق بشقته الواسعة ذات الغرف الثلاث في أرقى مناطق الإسكندرية، اشترى سيارة صغيرة مستعملة بعد أن كان يقود سيارة ألمانية حديثة في مصر، كان هو الخاسر الأكبر بالتأكيد من هذه الثورة، لم تصبه مكاسب الموظفين الحكوميين من تثبيت أو زيادة رواتب، لم يشتهر ولم يجد له مكانًا في دائرة الضوء الإعلامي كالكثير من الثوار والنشطاء الذين تحولوا إلى إعلاميين وصحفيين وضيوف دائمين على البرامج الحوارية، لم يحصل حتى على نفوذ أدبي أو سياسي كمن أصبحوا نوابًا برلمانيين وقيادات حزبية، لم يكن أيٌّ من ذلك هدفه يومًا ولم يسعَ إليه على أي حال، لكنه لم يستطع تجنب انهيار عمله الخاص الذي تحوَّل بسرعة مذهلة من مكاسب معقولة إلى خسائر قاصمة، لم يعد يُجدي الاستمرار في الخسارة، ولم يعد يلوح أي أمل في مستقبل مشرق، كانت كل الظروف – على المستوى الشخصي وعلى المستوى العام – تدفعه إلى الانسحاب، فانسحبَ.

هذه بلاد مواكبة للعصر، بل إنها تسابقه وتتفوق عليه في أحيان كثيرة، بلاد منفتحة على العالم، يمكنك بجولة قصيرة في شوارعها أن تشاهد كل أجناس البشر، هنود بمختلف طوائفهم أصبح كثير منهم الآن يشغل وظائف مرموقة بعد أن ارتقى بهم تطور التعليم في بلادهم، باكستانيون وأفغان وبنغال ما زالوا يسيطرون على سوق العمل في المهن الشاقة، ولم يبرؤوا بعد من جلافتهم الجبلية وقلة تحضرهم، شوام تجار بالفطرة يبيعون المدينة كلها ويشترونها في كلمتين ونصف، مغاربة يرطنون بلهجات شديدة الوعورة لا يمكنك تمييز كلمتين متتاليتين منها، وتوحي هيئتهم بالريبة دون سبب مفهوم، أفارقة لا تستطيع تمييز بلدانهم ولا تعرف بالضبط ماذا يعملون، فلبينيون وتايلانديون يملؤون الشوارع ويشغلون معظم الوظائف المتاحة في المحلات والمطاعم برغم لغتهم الإنجليزية غير الواضحة ومخارج حروفهم الملتبسة تمامًا، مصريون وسودانيون وعراقيون أصحاب مؤهلات عليا في الغالب، ولهم نصيب كبير من وظائف الطب والهندسة والإدارة، أوربيون وأستراليون أغنياء يسيطرون على المناصب العليا في الشركات، ويأتون إلى هذه البلاد الحارة هربًا من الضرائب العالية في بلادهم، وأخيرًا القليل من المواطنين أصحاب البلاد الأصليين بزيهم التقليدي الذي يميزهم، ربما كان أهم أسباب التزامهم الصارم بزيّهم التقليدي – للنساء العباءة السوداء فوق أي نوع آخر من الملابس، وللرجال الكندورة البيضاء أو القمحية

والشماغ بربطاته الرسمية أو غير الرسمية – هو الحرص على إظهار هويتهم كأصحاب للأرض، إنه ما يميزهم عن أمواج البشر المتدفقة من مشارق الأرض ومغاربها، يحافظ سكان البلاد الأصليون على مظهرهم بشكل بالغ الوضوح، لا يخلو شارع من صالون تجميل أو صالة تدليك للرجال والنساء، الرجال ذقونهم الخفيفة مرسومة بعناية خبير ومهذبة بشكل يومي، والنساء دائمًا في كامل زينتهن سواء كن في العمل أو خارجه مع الحفاظ بالطبع على العباءة السوداء التقليدية فوق الملابس المنتقاة بعناية من أرقى الماركات العالمية.

لا يحب هذا المكتب، لا يحب الأدوار العالية بوجه عام، لا يحب هذه الوظيفة كذلك، لكنه يحب الإقامة في هذه البلاد، يسكن في دبي ويعمل بها بعكس مئات الآلاف ممن يسكنون الشارقة، المدينة الملاصقة لدبي، لكنه يحب دبي بطرقها المنظمة الواسعة وأحيائها السكنية المخططة باحترافية توفر الخصوصية للسكان والسيولة للمحاور المرورية، يحب نظامها الصارم وتفاصيلها الخاضعة حتى النخاع للمواصفات القياسية الضامنة للسلامة والكفاءة، السكن والحياة في الشارقة بشكل عام أرخص منهما في دبي، لكنه لم يكن يومًا ممن يتبعون الموجة الرائجة ويسيرون كما يسير الناس، كانت له دومًا شخصيته المستقلة، لن يضيع من عمره ساعات الانتظار اليومية على الطريق المتكدس ذهابًا وإيابًا، يعود إلى منزله في عشرين دقيقة متأملًا بشفقة طابور

السيارات الممتد لكيلومترات في الاتجاه المعاكس، مساكين هؤلاء المنهكون العالقون في طريق العودة إلى بيوتهم في الشارقة بعد يوم عمل طويل، سيعود هو إلى بيته وينعم بحمامه الدافئ، ويتناول الغداء ويشرب الشاي وربما يخرج للتريُّض حول المنزل بينما سيظل هؤلاء المساكين قابعين في سياراتهم يحلمون بوجبة منزلية ساخنة لا تبدو قريبة، هل تساوي بضعة الدراهم التي كان بإمكانه توفيرها ما كان سينزفه يوميًّا على هذا الطريق من ساعات العمر؟ لم يعد يمتلك رفاهية تضييع الوقت في مثل عمره هذا، لقد نزف ما فيه الكفاية من الساعات، بل من السنوات.

ينطلق في الطريق إلى منزله في المساء بعد يوم طويل وشاق في العمل، كانت حركة المرور طبيعية في هذا اليوم من أيام العمل الأسبوعية الروتينية، يسكن شقة صغيرة في أحد المشروعات الجديدة بضاحية ليست ببعيدة عن مكان عمله، عمارات قصيرة لا يتعدى ارتفاعها ثلاثة طوابق، تحيط بها مساحات كبيرة من الخضرة والممرات المخصصة للمشي والجري والدراجات، معظم السكان من الأوربيين والشوام والمصريين، جيرانه في غاية الهدوء، لا يعرفهم بشكل شخصي ولا يعرف حتى أسماءهم أو ماذا يعملون، ولكنه مرتاح لتحضرهم وهدوئهم، فقط كان ذلك الجار الروسي الأعزب هو من يسبب أحيانًا بعض الضجيج عندما يستضيف أصدقاءه ويشربون في نهاية الأسبوع وعندما يصطحب في بعض الليالي فتيات مختلفات لكن كلهن روسيات

بالتأكيد، كان يعرف ذلك، لا توجد نساء بهذا الطول وبهذه النحافة إلا في روسيا.

كانت تفصله إشارة مرورية واحدة عن دخول الضاحية التي يسكنها، وكان راديو السيارة مضبوطًا بشكل دائم على محطة ناطقة بالإنجليزية تذيع أغاني ومنوعات خفيفة والقليل من عناوين الأخبار، كانت إشارة المرور هذه مملة بعض الشيء لوقوعها في تقاطع مسارات أربعة تُفتح لها الإشارة بالتتابُع، عبث في شاشة هاتفه دون هدف معين، كان ربع عقله مع شاشة الهاتف وربعه مع الراديو والنصف الباقي ينتظر فتح الإشارة، انتهت الأغنية في الراديو لتعلن الساعة السابعة وعناوين الأخبار، عودة نائب رئيس الدولة وحاكم الإمارة من زيارة لبريطانيا، مقتل ستة وثلاثين في اشتباكات بين الجيش النظامي السوري وكتائب معارضة على أطراف مدينة حلب، استمرار الاشتباكات في القاهرة وعدة محافظات مصرية بين أنصار جماعة الإخوان والمتظاهرين المطالبين برحيل محمد مرســي..

تحولت الإشارة إلى الضوء الأخضر، انتبه فجأة إلى أنه لم يكن ينتبه، وفاجأه ذلك كثيرًا، مرّت عليه أخبار الاشتباكات في القاهرة كما لو كانت لا تعنيه، انتبه لحقيقة أن "الوطن" قد اختُزل رغمًا عنه في كلمات مقتضبة من عناوين أخبار يتابعها بربع عقله في انتظار إشارة مرور في بلاد غريبة، كيف

انكمشت الآمال التي كانت بعرض الكون قبل أقل من عامين إلى ثوانٍ معدودة تختصر أحوال الوطن في تظاهرات هنا وهناك لإسقاط ذلك الذي جلس على عرش مصر في غفلة من التاريخ؟ كيف ضاعت أحلام الثورة كما ضاعت سنوات عمره بلا طائل؟ هل كان الأفضل ألا تقوم تلك الثورة من الأصل؟ أليست مرارة فقدان الحلم أقسى بكثير من مرارة اليأس؟ وقديمًا قالوا: "اليأس إحدى الراحتين"!

لقد تجاوز الأربعين، مضى أكثر من نصف عمره بافتراض أنه سيعيش ثمانين عامًا وهو ما لم يعد شائعًا، لم يكن يتمنى أن يعيش حتى الثمانين، لم يعد يتبقى الوقت الكافي لتعويض ما حدث بالفعل من إخفاقات وإحباطات وفرص ضائعة واختيارات خاطئة، لا يمكن تغيير الماضي ولا يوجد الزمن الكافي – وربما لا توجد القدرة – للاستدراك! لقد مرّ بالكثير من التجارب، تعامل مع مئات البشر، سافر إلى بلاد كثيرة، اكتسب ما يكفي من الخبرات أكاديميًّا وعمليًّا، حقق من النجاح ما يستحق أن يحسده عليه الكثيرون، استقرّت حياته وأنشأ أسرة، قطع شوطًا كبيرًا من المشوار التقليدي لأي شخص طبيعي، نعم كان لديه الكثير مما يستوجب شكر الله وحمده حمدًا كثيرًا بلا شك، يمتلك كما يبدو ظاهريًّا الكثير من مقوّمات السعادة، لكن هل يمتلك السعادة ذاتها؟ هل هو حقًّا سعيد؟ أم يظن فقط أنه سعيد؟ أم أنه يدّعي – حتى أمام صورته في المرآة – أنه سعيد؟ أو فليضع السؤال بطريقة

أخرى فربما لا يوجد على هذا الكوكب اليوم من هو سعيد فعلًا، فهل هو راضٍ عن وضعه الحالي؟ هل هو اليوم الشخص الذي تمنّى أن يكونه عندما كان يحلم منذ عشرين سنة؟ مع ملاحظة أنه ببلوغه محطة منتصف العمر هذه فقد القدرة على الحلم، الآن يمكنه فقط اجترار ما كان يحلم به وقت أن كانت لديه رفاهية الحلم، فهل ما زال بالإمكان تحقيق الأحلام؟ وهل بقي في العمر ما يكفي لذلك؟ ليست الإجابة بهذه البساطة، فقد بات في محطة منتصف العمر هذه بالغ الحساسية، شديد التقلّب المزاجي، شديد الحنين إلى تفاصيل الماضي البسيطة كأنما يتشبث بآخر الخيوط الواهنة التي تثبت انتماءه لذلك "الزمن الجميل"، الذي لم يكن بالضرورة جميلًا وقت أن عاشه لكنه أصبح كذلك في مخيلته مع تراكم طبقات الغبار على ذكرياته التي أصبحت بمرور السنوات ضبابية، وذلك بالتحديد هو ما يجعلها جميلة ومثيرة للشجون.

في عُمرِه هذا ربما صار يتصرف أحيانًا – وعلى غير عادته – بتهوّر، ربما يرتكب حماقات ليست من طَبْعِه ولا تناسب شخصيته، قد يسميها البعض "مراهقة متأخرة"، وربما هي كذلك فعلًا، لكنها قد تكون مجرد محاولة للتشبث بالحياة الجميلة، محاولة يائسة للبقاء في دائرة الشباب بعد أن غزت حياته مؤشرات خروجه الحتمي من تلك الدائرة، فالشعيرات البيضاء القليلة والمتناثرة هنا وهناك والتي سعد بها في البداية قد تكاثرت على شعره ولحيته، بدأ قوامه الرياضي الرشيق يتحول تدريجيًّا إلى النموذج التقليدي للموظف

المصري رغم مقاومته الشديدة لذلك، يُصدم أحيانًا حين يرى وجهه في مرآة مصعد أو حمام ويتساءل ما الذي أوصل شاب الأمس اليافع إلى هذا الرجل المهموم الواقف أمامه؟ كيف حدث ذلك؟ وأين كان هو عندما حدث؟ وهل من سبيل لوقف ما هو مستمر في الحدوث؟ كان قد فقد بالتدريج اهتمامه أو وَلَعه القديم بكل ما كان يملأ عليه حياته في الماضي، يتابع مباريات الكرة المصيرية بوقار وبأدنى حد من الانفعال وهو مسترخٍ على أريكة ونصف عقله مع شاشة هاتفه، لا ينفعل كثيرًا مع الأهداف وكأنما قد شاهد المباراة من قبل، رغم أنه كان في العمر الماضي يرتّب لحضور المباريات في الملعب من الشهر السابق لها، لم يعد يستهويه الجديد من إنتاج الموسيقا والسينما كما كان منذ سنوات إلا ما يذكره منها بزمنه الجميل، لا يعرف أصلًا معظم الأسماء التي صارت لاحقًا مشهورة، ينظر للشباب اليافع الممتلئ حماسةً لأي شيء بمزيج من الإشفاق والحسد، حتى مواقفه السياسية أصبحت أهدأ وأقل راديكالية، أصبح يتقبل الحلول الوسطية، بل يفضّلها، صار يقيّم المواقف من بعيد ولا ينشغل بالتفاصيل، تزعجه كثيرًا مناقشة التفاصيل، باختصار لم يعد في هذا العالم ما يثير دهشته، وما أدراك كيف هو فقدان الدهشة!

صار ببلوغه هذه المحطة مكبّلًا بكل ما في العالم من قيود، مضى زمن الحريّة، صارت الحياة الآن قائمة طويلة من الالتزامات والاحتياطات والاشتراطات الصارمة، لا يمكنه إلا أن يكون قطارًا ملتزمًا بمساره المحدد

سلفًا، ينطلق ويصل في مواعيد ثابتة لا يمكنه تجاهلها لأن هناك من يعتمد عليه وتسير حياته طبقًا لذلك الالتزام، لا يمكنه بالطبع فقدان ثقة من يعتمدون عليه لمجرد رغبته الصبيانية في ممارسة القليل من المراهقة، لا يمكنه ذلك أبدًا.

إن أقسى ما في الحياة هو منتصفها، فلا أنت في البدايات حيث الدنيا بأسرها أمامك ولا أحد معلّق برقبتك والأحلام مجّانية، ولا أنت قرب النهاية متقاعدًا بلا التزامات تستنشق نسمات الحكمة وتنظر للماضي كفيلم سينمائي متكامل وتستعد للرحيل، بل أنت في منتصف الفيلم الذي تقوم أنت نفسك فيه بدور البطولة، لا يمكنك العودة للخلف لتغيّر مسار الأحداث، لا يمكنك التغيير إلا من النقطة اللي أنت متوقف فيها بالفعل، ولا تعرف كيف تفعل ذلك، أو ربما لا تجرؤ.

***

كان آخر قرارٍ مصيري اتخذه في حياته هو الهروب، قرر في لحظة فارقة أن يتخلى عن أحلام الثورة والتغيير الجذري بعد أن أحبطت تلك الآمال عند أول اختبار حقيقي، كفر بفكرة تغيير العالم، بل كفر بالعالم ذاته وبرموزه ونخبته ومنظّريه وكهنة معابده بعد أن امتلكوا أيامه ولياليه لسنوات، بعد أن دار في فلكهم وسار خلف مواكبهم معصوب العينين، اتبّع تقاليدهم وصدّق

خرافاتهم، ابتهل أمام محاريبهم وذُبح على أنصابهم وحجّ إلى أوثانهم، أضاع شطر عمره هائمًا في دروبهم لا يعصي لهم أمرًا، فإلامَ أوصلوه؟ وجد نفسه فارغ القلب والوجدان، فارغ الروح كترس صغير في آلة أسطورية عرضها محيط خط الاستواء، ترس يدور فقط ليبقى داخل الآلة، لا يملك رفاهية التوقف عن الدوران وإلا دهسته التروس الأكبر ونثرته غبارًا مهملًا في الفضاء، يدور ويدور حتى ينسى من أين بدأ وإلى أين ينتهي، ليست للدائرة نقطة بداية ولا نقطة نهاية، كل نقاط الدائرة متطابقة، لا يوجد ما يميز نقطة عن مثيلاتها، كلها بلا لون ولا طعم ولكلها نفس البعد عن مركز الدائرة، لكن لا طريق يوصلك إلى ذلك المركز، ستظل تدور في الدائرة حتى تبتلعك، لن تصل أبدًا إلى أي نقطة خارجها، عفوًا، لا شيء يمكن فعله لتغيير قوانين الهندسة.

قرر الهروب إلى هنا، لم يبتعد كثيرًا ربما لأنه كان يريده هروبًا مؤقتًا، كان يريد أن يبقى على بعد يسمح له بالعودة، في أثناء انتظاره أمام بوابة المغادرة في المطار أخرج ورقة بيضاء من حقيبته وكتب فيها:

"لم أكن أنتوي، هكذا قال الرئيس السابق في أكثر خطاباته عاطفية قبل أن يرحل، كذلك أنا لم أكن أنتوي، لقد حدث ذلك كله بالإكراه، لم يخطر ببالي قط أن أهجر الأرض التي فيها وُلدت وتربيت وتعلمت ووقعت في الحب وبنيت أسرة وجنيت المال، أنا بطبيعتي كائن محبٌّ للسفر، أجد متعتي

في التجوال، لطالما عرّفت نفسي كرحالة قبل أي صفة أخرى عندما كان يُطلب مني تقديم نفسي باختصار، تصفني كلمة رحالة بشكل أفضل من محاسب أو قارئ أو ثائر، لكنني لم أنتوِ قط استبدال "مغترب" بـ"رحالة"، لمن تكن الإقامة خارج البلاد في يوم من الأيام على قائمة آمالي.

لطالما كنت أفاخر بأنني أجوب العالم حتى أقصى نهاياته، أشاهد كيف يعيش الناس وأتجول في شوارع مدن غريبة ثم أعود لأستقر في البيت، لم أستخدم كلمة "البيت" لوصف أي مكان على هذه الأرض إلا بيتي في الإسكندرية، لم أتخيَّل قط أن يكون لي بيت في أي مكان آخر ولو بشكل مؤقت.

لكن هأنذا، جالس على هذا المقعد المعدني البارد ذي الكسوة الجلدية الزرقاء أمام البوابة رقم ستة في مطار برج العرب منتظرًا طائرة مصر للطيران المغادرة إلى دبي بعد دقائق، باحثًا عن ملاذ محتمل، عن ملجأ مؤقت حيث يمكنني الإبقاء على أسرتي آمنة وقادرة على أن تعيش وتتعلم وتمرح وأن تستمر بها الحياة حتى إشعار آخر، أو حتى أقطع نهائيًّا خيط الأمل الواهن الباقي وأقرر الهجرة إلى وطن بديل دائم يمكنني أن أطلق على مسكني المستقبلي فيه لقب "البيت"، رغم أنه بالقطع لن يكون بالنسبة لي كذلك.

كتب أديب مصري يدعى عمر طاهر في كتاب ما: "وطن المرء ليس مكان ولادته، ولكنه المكان الذي تنتهي فيه كل محاولاته للهروب"، وأنا على يقين

تام بأن محاولاتي للهروب ستنتهي يومًا ما أسفل ذلك الكوبري البديع على رمال شاطئ ستانلي، في الإسكندرية".

قرر الهروب عندما انطفأت لمعة الحماسة والأمل في عيون المارة في الشوارع، عندما ذبلت شحنة الوطنية الجارفة التي كان يلمحها بوضوح في نبرة صوت كل مصري، عندما سيطر الإحباط واليأس على الجميع بدرجة أسوأ بكثير مما كان قبل الثورة، كان أكثر الناس قبل الثورة مستسلمين للأمر الواقع، يعيشون ويربون أطفالهم بلا طموح وبلا أمل في صَلاحِ أحوال البلاد السياسية والاقتصادية، لكن بعد نزولهم للشارع وإسقاطهم للنظام وتنسمهم لهواء الحرية للمرة الأولى ارتفع سقف طموحهم بشكل غير مسبوق، فالمواطن الذي كان يتجنب مجرد المرور أمام قسم شرطة أصبح يشارك في تظاهرات ضد الداخلية أمام مديرية الأمن ذاتها، المواطن الذي كان يخشى الحديث في السياسة أصبح ينتقد أكبر رأس في النظام جهارًا نهارًا، وذلك الذي لم يكن له أي دور في انتخاب من يمثله ولو في اتحاد ملاك عمارته صار يشارك في تأسيس حزب سياسي وينخرط في العمل الحزبي، لذلك كانت جرعة الإحباط أشد كثيرًا من ذي قبل، قد تحتمل انعدام الأمل ما دُمتَ لم تجربه، لكن لا مرارة تعادل أن تعيش الأمل وتراه بعينيك وتلمسه ثم تفقده.

لقد أضاع هؤلاء الحمقى حلمه وحلم الشعب كله، بل أضاعوا أحلامهم هم ذاتهم، أضاعوها برعونتهم وغرورهم، بنزقهم وسذاجتهم، ظنوا أنهم قد استحوذوا على السلطة، وصارت لهم الكلمة العليا، توهموا أن الشعب رهن إشارتهم يأتمر بأمرهم فتعالوا عليه، وسخروا منه، واستهانوا برغبته في الاستقرار، لم يعرفوا أين تنتهي الثورة وأين تبدأ الدولة، لم يفرقوا بين ما هو ثوري وما هو سياسي، لم يتخيل قط أن ينخرط الأصوليون والتكفيريون في أحزاب سياسية وهم من يؤمنون بأن الديمقراطية ذاتها كفر بينما ينزلق المثقفون الثوريون والنخبة السياسية إلى مستنقعات موحلة من التنظير الأيديولوجي والخلافات والمؤامرات.

لا يزال يذكر ذلك الاجتماع العبثي الذي جمعه بنشطاء ثوريين شباب من أطياف مختلفة خلال اعتصام أقاموه في الإسكندرية، كانوا يعتصمون بالحديقة المطلة على الكورنيش تحت تمثال الزعيم سعد زغلول عند وسط المدينة، ويغلقون الطريق الحيوي ساعاتٍ حتى يتشاجر معهم سائقو عربات الميكروباص ويفتحوا الطريق عنوة ثم يعود النشطاء لإغلاقه وتتكرر المشاجرة وهكذا، حاول أن يقنعهم بأن ذلك كله عبث لا طائل من ورائه ولن يسفر إلا عن ازدياد نفور الناس منهم ومن الثورة ذاتها فتقول إحداهن في إصرار:

– لو سيبنا الطريق مفتوح محدش هيسمعنا ولا يهتم بينا، هيسيبونا قاعدين في الجنينة لغاية ما الناس تزهق وتمشي!

ويقول آخر:

– لازم يكون فيه خطة للتصعيد بعد كده، قطع الطريق مش كفاية، لازم مطالبنا توصل ولازم نضغط أكتر من كده!

كان يستمع إلى ذلك الهراء بصبر نافد فصاح فيهم مُحوِّلًا بصره بين وجوههم:

– هو انتو بتعملوا كده عشان مين؟ عشان الناس صح؟ الناس اللي انتو قاطعين أهم طريق في اسكندرية ومانعينهم يروحوا مشاويرهم وأشغالهم؟ الناس اللي كل كام ساعة ييجوا يضربوكم عشان يفتحوا الطريق؟ الناس اللي بقوا بييجوا يتفرجوا عليكم من بره الجنينة كإنهم بيتفرجوا على سيرك؟ إنتو لو كملتوا كده هييجي يوم الناس دول يحدفولكم موز وفول سوداني ويضحكوا شوية وبعدين يمشوا! لأ الحقيقة انتو بتعملوا كده عشان نفسكم، عشان ترضوا غروركم وتفضلوا حاسين بالسيطرة والزعامة!

سرت همهمات اعتراض تعالت بالتدريج حتى قام شاب فارع القامة يعقد شعره المجعد الطويل من الخلف برباط مطاطي وقال بتحدٍ واستفزاز:

– حضرتك مزعل نفسك ليه؟ إحنا عيال طايشة وأجندات ومولين، ممكن تسيبنا نتخانق مع سواقين الميكروباص لوحدنا وتروّح انت تريّح على الكنبة وتنام وتصحى تروح شغلك عادي عشان عجلة الإنتاج ما تتعطلش.

قال العبارة الأخيرة بحركة مسرحية والتفت إلى زملائه كالممثل الذي ينتظر تصفيق الجمهور بعد أدائه لمشهد مؤثر، ضَجَّ الحاضرون بالضحك فعلًا وهمّوا بالتصفيق فوقف الرجل في مواجهة الشاب ناظرًا في عينيه بثبات وقال بهدوء:

– مفيش داعي للمزايدة يا بني، أنا راجل سبت اللي ورايا واللي قدامي يوم خمسة وعشرين يناير ونزلت قعدت في القاهرة ونمت التمنتاشر يوم في الميدان لغاية التنحي، كنت عيان ولافف نفسي في بالطو وكوفية صوف عشان أفضل في الميدان، لو مكانش فيه بنات هنا كنت قلعت هدومي ووريتك الإصابة اللي في ضهري من يوم الجمال ما دخلت علينا الميدان والخرطوش اللي في كتفي الشمال من يوم تمانية وعشرين، وطول الفترة دي اتخرب بيتي طبعًا عشان أنا راجل مسئول عن أسرة ومحدش بيصرف عليا، إنت طبعًا ماخسرتش حاجة، بالعكس يمكن تكون كسبت شوية شهرة وشوية أدرينالين طلعوا في دماغك وكام صورة حلوة كده تحطها على فيسبوك، معنديش مشكلة في كل ده، بس دلوقتي أنا بقولك فيه وقت للثورة ووقت للسياسة، واللي انتو بتعملوه ده بيضيّع كل اللي احنا كلنا عملناه في يناير وبيسلم البلد للإخوان والسلفيين، إنتو اتجننتوا من بعد التنحي عشان الأضواء ابتدت تتشال من عليكم شوية شوية، اخترعتوا مواجهات مالهاش معنى عشان تفضلوا عايشين جو الاشتباكات والنضال، بس احنا مش في لعبة فيديو جيم يابني،

الواقع غير كده، إحنا في تحدي كبير هيحدد مستقبل البلد، في نفس اللحظة دي اللي انت واقف للناس في مصالحهم وأكل عيشهم فيه جماعات احنا كلنا عارفينها كويس بتلف عليهم في البيوت توزع مساعدات وتوعدهم بحكم الإسلام، تفتكر لما نروح للصندوق هيختاروك انت ولا هما؟ أنا عارف انك مش عايز تروح للصندوق ودي قضية تانية خالص، بس الفوضى مش حل يابني، الفوضى مش حل!

ثم استدار وتركهم في ذهولهم، انصرف في هدوء وقد ساد الصمت التام حتى عبر شريط الترام وابتلعته الشوارع الضيقة المظلمة في طريقه إلى حيث ترك سيارته.

كان هدفهم الوحيد هو الحشد، فقط الحشد، أي حشد وبأي شكل ومن أي نوعية، كان هاجسهم الأكبر هو فقدان الحشود التي قادوها بالمصادفة البحتة يومًا ثم انصرفت عنهم بالتدريج عندما لم يعد لديهم ما يقنع تلك الحشود باتباعهم، لماذا غضبوا إذًا عندما استخدم الآخرون سلاحهم؟ تمتلك تلك الجماعة العتيدة بتنظيمها العنقودي الضارب في جذور المجتمع قاعدة جماهيرية ضخمة، تعرف قيادتها كيف تجمع الناس وتحركهم دون حتى أن يشعروا أنهم مسيّرون، لقد صارت ميزة الحشد في يد تلك الجماعة الآن، فلماذا غضب الثوريون؟ ألم يضعوا هم تلك القاعدة التي تنصُّ على أن الأمر لمن معه الحشد، وأن الغلبة لمن صوته أعلى؟ قديمًا، في هذه البلاد المنكوبة

ذاتها، وضع قائد عسكري منتصر قاعدة تقول إن: "الحكم لمن غلب" فألقى بمصر في دوامة سحيقة من التقاتل على السلطة بين المماليك وانتقل الحكم ممن غلب إلى من غلبه ثم إلى من غلب من غلبه وهكذا، لا يمكنك أن تشتكي من استفادة غيرك من القاعدة التي وضعتها أنت بنفسك، فليتركوا الأمر والغلبة إذًا لمن معه الحشد الآن ولمن صوته الآن أعلى، فما هي إلا بضاعتهم رُدّت إليهم!

يشعر أحيانًا بالعار كجندي هرب من المعركة، لكنه لم يهرب إلا بعد أن أيقن أن المعركة نفسها عبثية، هذه معركة لا يحارب الجيش فيها أعداءه بل يترك العدو يظفر بما يريد وينشغل أفراده بالتصارع على الزعامة! لقد حاول، لم يترك أرض المعركة دون أن يحاول، كان مؤمنًا بأن الوقت وقت السياسة، هذه أرض خصبة، أرض جديدة وجاهزة لغرس بذور الديمقراطية، شارك في تأسيس حزب سياسي يمثل الأفكار الأقرب إلى قناعاته، عانى بشدة مع قلة من المؤمنين بنفس الفكرة ليؤسسوا ذلك الحزب ويمولوه بجهودهم الذاتية، لم يصدّق أن زعيم الحزب صاحب الأفكار التنويرية العظيمة والمؤهلات الأكاديمية الرفيعة والشهرة الإعلامية الجارفة لم يستطع إقناع خمسة آلاف من المصريين بتحرير توكيلات له ليؤسس حزبًا يعبر عنه وعنهم، لماذا يستمر في العمل السياسي إذًا؟ وما جدوى تأسيس حزب سياسي يفترض أن غايته هي الوصول إلى السلطة إذا لم تكن له قاعدة جماهيرية؟ وحتى عندما تم التأسيس

بعد معاناة شديدة إذا بالحزب يتعثر، لا يوجد مرشحون للانتخابات، لا يوجد تفاعل من الشارع، لا توجد رؤية للمستقبل، كان الوضع كله عبثيًّا ومثيرًا للغثيان، فانسحب في هدوء.

***

منذ حَطَّ رِحاله هنا وهو مشغول بسؤال كبير هو: لماذا نعيش؟ ما ذلك الدافع الخفي الذي يجعلنا ننهض من تحت أغطيتنا الدافئة في الصباح الباكر لنصطف خلف طوابير الذاهبين إلى العمل يوميًّا مهما تكن حالتنا الصحية أو النفسية أو المزاجية؟ لماذا نستمر في ذلك سنوات وسنوات دونما انقطاع؟ هل فقط لنعيش؟ هل نعمل حقًّا من أجل أن نعيش؟ ومتى سنعيش إذًا والعمل يلتهم أوقات حياتنا؟ أم أننا نعيش من أجل أن نعمل؟ وما الفائدة من ذلك إذًا؟ هل نعمل لكي نغطي نفقات حياتنا ونربي أبناءنا كما ربانا آباؤنا، ولكي يكبر أبناؤنا ويصبحوا قادرين على العمل، لكي يربوا أبناءهم بدورهم هم كذلك؟ هل هذا التناسل هو كل الهدف مما نفعله؟ نتكاثر ونربي ذريتنا ليتكاثروا ويربوا ذريتهم وهكذا؟ هل لكي نعمر الأرض؟ هل نعمرها فقط لنموت وندفن تحتها؟ متى سنستمتع بالحياة إذًا؟ متى سنقرأ كل تلك الكتب التي نريد قراءتها؟ متى سنشاهد كل تلك الأفلام التي فاتتنا؟ متى سنسافر إلى كل تلك البلدان التي نحلم برؤيتها؟ لم يخلق الله كل ذلك الجمال قطعًا ليظل كل منا مسجون في حدود بيته وعمله والطريق بينهما ولا يرى العالم

خارج تلك الحدود، كان يرنّ في أذنيه دائمًا صوت صلاح جاهين الأجش الذي يقطر حكمة وهو يقول:

إقلع غُماك يا تور وارفض تِلف..

إكسر تروس الساقية واشتم وتِف..

قال بس خطوة كمان.. وخطوة كمان..

يا اوصل نهاية السكة يا البير تجف..

جاء – أخيرًا – اليوم الذي انتظره حتى ظنّ أنه لن يأتي أبدًا، حان أخيرًا موعد إجازته التي اشترط على مديره قبل توقيع عقد العمل أن يحصل عليها قبل مرور عام كما هو المتبع هنا، كان يعرف أنه لن يطيق البعد لعام كامل، سيذهب ليجدد خلايا روحه بهواء بحر الإسكندرية ثم يعود، كان يقتله الشعور بالغربة، كان في الحقيقة يشعر بالغربة في أي مكان خارج حدود الإسكندرية، كان الوطن بالنسبة له هو ذلك الهواء المحمّل برائحة البحر، بحر الإسكندرية لا سواه، لم يعجبه بحر دبي، وجده بلا روح، لا يذكّره بشيء، لا يحدّثه ولا يفقه حديثه، ليس حميميًّا كبحر الإسكندرية التي لا يدرك أسرار جمالها إلا من تربّى فيها، لا يعرفها إلا من تعلق بقضيب معدني على باب ترام الرمل الأزرق ذاهبًا إلى مدرسته في صباح شتويّ بارد، لا يلمس سحرها إلا من راقب تفتّح الزهور الصفراء الصغيرة بأعدادها الكثيفة في أوائل الشتاء بين قضبان الترام والزهور الحمراء الزاهية وهي تبزغ على

أشجار الشوارع أواخر الربيع، لا يفهم روحها إلا من افترش رمال الشاطئ يلتهم سندويتشات الفلافل من المحل الصغير العتيق الذي لا يعرفه غير أبناء المدينة أو من هُرع ليختبئ في مدخل عمارة أو تحت محطة حافلات عند هجوم المطر المفاجئ، كان لمدينته في كل شهر شكل، لكل فصل فيها مذاق ورونق، ولكل فاكهة قصة، طعم التين الذي ينتظره بشوق العاشق حتى يطيب في أواخر أغسطس، لون المشمش ذو الموسم القصير الذي يُضرب به المثل، رائحة الجوافة التي تعبق الشوارع والبيوت إيذانًا بدخول موسم المدارس وإطلالة الشتاء على استحياء، كان ذلك التنوع هو ما يمنح الحياة بهجتها، ذلك الاختلاف هو ما يعينك على ملل الحياة، أما هذه البلاد فأيامها سواء، شهورها متشابهة، سماؤها لا تتغير، فاكهتها متوافرة دائمًا ومتراصة بعناية طوال العام في الهايبر ماركت، حتى الطعام هنا كان بالنسبة له بلا طعم، بلا روح، أدرك هنا فقط لماذا تُعتبر النباتات كائنات حية، ذلك لأن لها أرواحًا، أما هذه الفاكهة المرصوصة بعناية مبالغ فيها فلا روح لها، ليست بكائنات حية، كيف جرؤ هذا العامل على رص ثمار البرتقال هكذا ببساطة بجوار البطيخ؟ أي ازدراء لقوانين الطبيعة ولسنن الكون هذا؟! البرتقال رمز الشتاء الذي لا يؤكل إلا في الليالي المظلمة الباردة تحت طبقات من الأغطية الثقيلة كيف يجتمع بالبطيخ فاكهة الصيف المرحة التي تُلتهم في الشرفة أثناء البحث عن نسمة رطبة في ساعات العصاري الصيفية؟ لا تعرف في هذه البلاد خريفًا من ربيع، لا تدرك بدون أجهزة إلكترونية في أي يوم أنت، كلها أيام متكررة

بلا نهاية، بلا معنى، بلا طعم ولا لون، كأنما هو يوم واحد توقفت عنده آلة الزمن وظلت تعيده وتعيده بلا انقطاع كشريط فيلم سينمائي تالف، صحيح أنه يحب نظام هذا البلد وانضباطه لكن لهذا النظام الصارم الدقيق مضارّه أيضًا، وضرره الأساسي هو الملل، تشتاق أحيانًا إلى بعض الفوضى لتشعر بأنك بشر، البشر يخطئون ويملّون ويرتكبون الحماقات، وحدها الآلات هي التي لا تمل، ولم يخلقنا الله آلات، فلماذا نتخلى عن إنسانيتنا ونعيش مثل الجماد؟

لم ينقطع حنينه إلى الوطن قط، كان ينشغل فقط في العمل وفي الانخراط داخل إيقاع الحياة الجديدة لكنه لا يلبث أن يعيده شيء ما إلى الوطن، تمرُّ فوقه طائرة مصر للطيران هابطة إلى المطار القريب من بيته حاملة شعار حورس بلونه الأزرق الزاهي وعينه المقدسة، فيكاد يُدقِّقُ النظر في نوافذها الدقيقة البعيدة لعله يرى شيئًا من رائحة الوطن، تأتي ذكرى المولد النبوي فيفتك به الشوق إلى قطعة من حلوى المولد التي لا تعرفها هذه البلاد، يحضر فريق رياضي مصري ليلعب مباراة ما فيحمل العلم الذي أتى به من مصر ويذهب ليجلس في الصفوف الأولى ويحدق في وجوه اللاعبين وكأنما يستشفّ من وجوههم أحوال الوطن، يدق قلبه وهو يتفحص المنتجات المتراصّة على رفوف الهايبر ماركت عندما يصادف وعاءً من المربى أو علبة عصير أو بعض الفاكهة المستوردة من مصر، يشعر كأنه هو صانعها، ويكاد يقف مهللًا كالباعة في الأسواق الشعبية داعيًا الناس إلى شرائها، يكاد يستوقف

المتسوقين الأجانب ويقول لهم: انظروا، هل تذوقتم الجوافة المصرية من قبل؟ لا مثيل لها، أتشمّون رائحتها؟ هذه المنسوجات من القطن المصري، إنه الأجود في العالم، المربى المصرية بنصف ثمن مثيلتها السويسرية ولا تقل عنها في الجودة، صدقوني!

تقترب الطائرة من الوصول إلى القاهرة التي قرر أن يزورها أولًا، يستعيد ذكريات الميدان ويستنشق عبير دماء الشهداء الطاهر، يقابل الأحبة والرفاق على مقاهيهم الأثيرة بوسط المدينة ثم يعود إلى "البيت"، فلم يزل لم يعرف له بيتًا آخر حتى اللحظة، تهبط الطائرة إلى ارتفاع يمكنه من أن يرى النيل بوضوح، شريان مقدس يحمل روح الحياة إلى تلك الأرض القاسية العطشى، لا يمل هذا العجوز الأزلي من العطاء، لا يغضب مما يتعرض له من إهانة وجحود، بل يستمرُّ في إمداد من يهينونه بسر الحياة، يستمر في تهاديه الوقور من عمق الجبال الخصبة البعيدة، يظل يتلوى ويعتدل قاطعًا البلاد تلو البلاد حتى تصدمه فجأة تلك الغابة الأسمنتية المتوحشة التي تشقه نصفين وتكسر بجفائها وغلظتها كبرياء ذلك النهر القوي فيبتعد عنها هاربًا في اتجاهين، هذه المدينة القاسية قادرة على قهر أي شيء، لا عجب أن سمّاها بُناتها القدماء "القاهرة".

تنخفض الطائرة أكثر وأكثر ليشاهد معالم المدينة بوضوح، دائمًا ما يغطيها الغبار وكأنما هناك مَنْ يلقي عليها الغبار من السماء عمدًا كل صباح، أو لعل ذلك من أثر ما تضمه بين جدرانها المتعبة من هموم تنضح إلى الخارج،

لعله نتاج تبخر عرق أبنائها الكادحين منذ عصور، هذه المدينة لا تتغير أبدًا، لن يلوي مخلوق ذراع هذه المدينة المخيفة أبدًا، ساذج من يظن أنه قادر على إخضاعها، بل ستخضعه هي كما أخضعت من قبله، سيرحل ويطويه النسيان كما رحل أسلافه، وستبقى هي لتواصل شق نهرها القديم إلى نصفين.

***

على مقهاه المفضل في وسط المدينة جلس مستمتعًا بالهدوء وبنسائم الليلة الشتوية اللطيفة منتظرًا رفاق الميدان وأصدقاء العمر، كانت الليلة هادئة والمقهى القديم شبه خالٍ إلا من قليل من المسنين المنزوين من البرد في الأركان، كان الرجل الأشيب الوقور الذي اعتاد رؤيته في المقهى منذ سنوات جالسًا في صمت إلى الطاولة المجاورة، كان يجلس في المكان ذاته الذي تركه جالسًا فيه قبل أن يغادر الوطن، وجده جالسًا في ذات المكان في كل مرة أتى فيها إلى هنا، لكنه كان يبدو الليلة أشد همًا وأكبر عمرًا بكثير وكأنما تذكرته الشيخوخة فجأة في الشهور السابقة، عندما نظر الرجل ناحيته التقت أعينهما، كان مشتاقًا للثرثرة بقدر اشتياقه للوطن فبادره قائلًا:

– مفيش في الدنيا دي أجمل من ليل القاهرة.

ردَّ الرجل المسن بابتسامة تحمل من الأسى أكثر مما تحمل من الود:

– ماهو معادش لنا فيها غير ساعتين الليل دول يا أستاذ!

(٨)

أبريل ٢٠١٢

تتوقف سيارة الميكروباص المتهالكة بفعل كثافة الاستخدام رغم حداثة طرازها النسبي في منتصف الشارع المزدحم شبه المتوقف دونما اكتراث لاحتجاج سائقي طابور السيارات من خلفها، كان جو القاهرة خانقًا، وزاد الزحام من ضيق نفوس المارة والركاب على حد سواء، يُهرع إلى السيارة مسرعًا شاب حديث العهد بالرجولة كما يبدو من لحيته الخفيفة التي لم تكد تنبت على كامل ذقنه بعد لكنه ترك هذه الشعيرات الضعيفة تطول عمدًا ربما لأنه أراد أن يبدو ملتحيًا قبل الأوان، يرتدي جلبابًا أبيض خفيفًا يُظهر فانلته الداخلية ذات الحمالات، ويبرز من جيبه العلوي عود سواك وقلم حبر جاف أزرق وكتيب صغير، ويغطي رأسه بطاقية بيضاء مشغولة بالخيط كالتي اعتاد المعتمرون الريفيون أن يجلبوها من الأراضي المقدسة كهدايا

لذويهم، كان يقبض بإحدى يديه على رزمة من الأوراق تفوح منها رائحة الحبر كأنما خرجت لتوها من مطبعة ما ويفتح باب السيارة بيده الأخرى، صعد في رزانة مقصودة وقال بنبرة تحمل الرزانة المفتعلة نفسها وهو ينظر إلى الأرض:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردَّ معظم الركاب السلام بطريقة آلية وبصوت منخفض عدا الرجل ذي اللحية الكبيرة في المقعد الخلفي الذي ردَّ السلام بصوت جهوري متعمد كما لو كانت شفرة يطمئن بها الراكب الجديد بوجود مساند له أو كأنه يوجه رسالة لشخص ما في السيارة، وما لبثت رسالته أن وصلت فخفض السائق صوت الأغنية الشعبية الصاخبة التي كانت دائرة ثم أوقفها وأدار مؤشر الراديو إلى إذاعة القرآن الكريم، سرت غمغمات غير واضحة ثم انشغل كل راكب بهاتفه المحمول حتى وقف الشاب الذي ركب قبل قليل وقال موجهًا حديثه لشابة محجبة تجلس في الصف الذي أمامه دون أن ينظر إليها مباشرة وبنبرته المصطنعة نفسها التي يتعمد أن يُظهِر فيها الوقار والتقوى، وكأنه إمام مسجد يلقي خطبة جمعة أو داعية من أولئك الشباب الجدد في الفضائيات:

– لو ممكن بس أختنا تنقل جنب الحاجّة اللي في الصف ده يكون أكرم لها وأَغضّ لبصر الرجال.

وأشار إلى سيدة ممتلئة ومحجبة أيضًا تجلس بجانب النافذة في الصف التالي للفتاة التي استدارت في انزعاج شديد وحدقت إليه باستغراب، ثم لبثت جامدة لحظات قليلة كأنما تفكر في رد فعل مناسب ثم قالت:

- إنت بتكلمني؟

أجاب وهو ما زال يتحاشى النظر إليها:

- أيوة يا أختي بالله عليكي لإن الاختلاط ده منهي عنه والأحسن انك تتفضلي تقعدي جنـ..

قاطعته بلهجة هادئة لكنها شديدة الحزم:

- خليك في حالك!

ساد صمت حذر لبرهة قصيرة ثم عاد الجميع مرة أخرى للانشغال بهواتفهم، أو بالأحرى للتظاهر بالانشغال بهواتفهم لامتصاص التوتر الذي صنعه الموقف، لكن الشاب لم يستسلم، أخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه الجانبي وقلّب فيه لحظات ثم بدأ يتلو بصوت مرتّل أراده أن يكون مسموعًا للكل:

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ

تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

رد عليه الملتحي من الصف الخلفي بصوته الجهوري:

– وقرن في بيوتكنّ! لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا قوة إلا بالله! شوف ربنا سبحانه وتعالى بيقول للحريم إيه وشوف هما إزاي ماليين الشوارع ومزاحمين الرجال في كل مكان!

استدارت إليه السيدة الجالسة بجوار النافذة في الصف الذي أمامه قائلة بضيق:

– أمال نروح أشغالنا إزاي يا أستاذ؟ مش ورانا مسئوليات؟

تجاهل النظر إليها واستمر موجهًا حديثه للشاب الملتحي في الأمام:

– كمّل يا شيخ، كمّل كلام ربنا، ما هو العيب مش على الحريم، العيب على الرجالة اللي سايبالهم الحبل ع الغارب ونايمة في العسل!

فجأة يلتفت إليه بحدة شاب نحيل أسمر حليق الذقن بدقة يرتدي بدلة رمادية رخيصة لكنها نظيفة ومكوية بعناية وربطة عنق قديمة الطراز لكن ألوانها متناسقة مع لون البدلة ويقول له بلهجة صعيدية جنوبية يطل منها غضب مكتوم:

– ماليهش لزوم الكلام ديّا يا أستاذ الله يهديك، إعمل حساب للرجالة اللي قاعدة دي ياخي!

ارتبك الرجل الملتحي قليلًا إثر هذه اللهجة التحذيرية ورد بنبرة متراجعة:

– أنا ماتكلمتش عليك يا بلدينا!

رد الشاب وقد انفلتت أعصابه قليلًا كطبع أهل الجنوب بدمائهم الحارة:

– ياخي مايصحش تقول الرجالة سايبة حريمها ونايمة في العسل والكلام ديّا، عاد انت ترضى راجل غريب يقول كده عليك وعلى حريمك؟

غمغم الرجل في خزي:

– يعني انت عاجبك كده يعني؟ ده يرضي ربنا؟

جاء صوت الشاب ذو الجلباب من الأمام لنجدة حليفه في نبرة عالية ومتحدية:

– كل شيء هيتصلح إن شاء الله وكل إنسان هيعرف حدوده قريب جدًّا، كلها شهرين والبلد دي تتحكم بشرع الله، أظن الشرع مايزعلش حد.

أجاب الملتحي بسرعة وقد عاد له صوته الجهوري بعدما وجد النجدة:

– حاشا لله يا شيخ مين ده اللي يزعل من شرع الله؟ إدعي بس ربنا يتم لنا النصر والتمكين وشوف البلد دي هيبقى حالها إزاي.

وكأنما كان في انتظار تلك الإشارة، نهض الشاب ذو الجلباب واقفًا حتى التصق رأسه بسقف السيارة وبدأ يوزع الأوراق التي معه على الركاب قائلًا في حماسةٍ:

– يا اخواننا ده ملخص مشروع النهضة، برنامج الإخوان المسلمين في انتخابات الرئاسة، إن شاء الله هنحكم بالشرع وهنحقق النهضة في كل المجالات، يعني هنرضي ربنا سبحانه وتعالى وهنعيش في رخاء.

تناول الملتحي الورقة منه مغمغماً في خبث:

– أيوة بس منهج الجماعة بتاعتكم دي عليه ملاحظات شرعية والشيوخ قالـ..

ثم تدارك مسرعًا مع نظرة الشاب المعاتبة:

– لكن احنا متفقين على الحكم بشرع الله، اللي هيحكّم الشرع إحنا مستعدين نبايعه على السمع والطاعة.

لم يهتم غالبية الركاب بقراءة الورقة فطواها بعضهم وأمسكها البعض الآخر بعدم اكتراث، لم تتناول الفتاة المحجبة الورقة من يد الشاب الممتدة أمامها فتركها تهوي ناحيتها وتركتها هي الأخرى وأعادت وضع السماعات في أذنها ولم تلتفت إليه، عاد الشاب لتوجيه حديثه الخطابي إلى الركاب:

– يا جماعة بالله عليكم لازم تقدّروا الخطر اللي بيواجه مصر والأمة الإسلامية، الفلول عايزين يجهضوا ثورتنا، الثورة دي معجزة ربنا بعتهالنا عشان يخلصنا من النظام العلماني الكافر، مش ممكن نسلّم البلد للعلمانيين والليبراليين مرة تانية بعد ربنا ما استجاب دعواتنا وأعمالنا الصالحة، يعني

إحنا جربنا الحكم الاشتراكي والتبعية للروس، وجربنا الحكم الرأسمالي والتبعية للأمريكان، آن الأوان بقى نتبع الدين ونطبق الحكم الإسلامي ونعيد أمجـاد الخلافـــ..

هنا انفجر الشاب الأسمر في الضحك مع اندماج الشاب ذي الجلباب الأبيض في الخطابة وارتفاع نبرة صوته وكأنه يخطب على منبر، فاستدار إليه الأخير في دهشة وغضب وقال في نبرة متحدية:

– في حاجة في كلامي بتضحك يا أخ؟ شرع الله بيضحك؟

ردَّ الشاب الأسمر بهدوء واثق:

– كلامك هو اللي بيضحك ياخي، إنت قاعد تخطب فينا كده كأنك اشتريتنا وعمال تخبط بكلام ولا انت عارف معناه، رأسمالية واشتراكية وعلمانيين وليبراليين، أنا هسألك سؤال بسيط: تقدر تقولي ببساطة يعني لو جماعتك ديّا حكمت مصر هنكون زي مين؟ عشان نقرب الصورة بس.

قال الشاب في ثقة وغرور الجاهل:

– هنكون زي دولة الخلافة الإسلامية اللي حكمت العالم قرون وامتد سلطانها من حدود الصين لحدود فرنسا.

ردَّ الشاب وهو يبتسم في سخرية:

– يا ودّ العم بقولك هنكون زي أي دولة في أيامنا دي، اللي انت بتتكلم عليه ديّا كان زمان.

أجاب بارتباك وقد أحسَّ بضعف موقفه:

– في دول إسلامية كتير متقدمة، عندك تركيا وماليزيا وأندونيسيا.

ردَّ الشاب الأسمر بزهو المنتصر بالضربة القاضية وهو يقلب بصره في الركاب الذين شدت انتباه أغلبهم تلك المناظرة المرتجلة:

– بس ياخي كل الدول اللي قلتها ديّا دول علمانية!

أجاب الآخر في محاولة للتشبث بالقشة الأخيرة قبل الغرق:

– إحنا يا أستاذ هنصنع نموذجنا الخاص، إحنا مش بنقلد حد، إحنا في جماعة الإخوان المسلمين هدفنا هو أستاذية العالم، وان شاء الله هتشوف بعينك الأمريكان والألمان وهما جايين يدفعوا الجزية لبيت مال المسلمين.

قالها بحسم وكأنما قد أفحم خصمه، بينما كان الأخير قد انفجر ضاحكًا غير قادرٍ على التوقف، قال وسط ضحكاته وهو يشير للسائق بذراعيه لعلهما توصّلان ما لا يستطيع قوله وسط الضحك الذي انتقلت عدواه لبقية الركاب وللسائق نفسه تاركين الشاب واقفًا في ذهول والملتحي في المقعد الخلفي متصنّعًا الانشغال في شيء آخر:

– هنا يا ودّ العم، نزلني هنا ياخي بَلا قلة قيمة! ده همّ إيه ده يابوي!

***

نزل الشاب الأسمر على ناصية الميدان الهادئ المزدان بأنواع نادرة من الأشجار والنخيل حيث تنتشر سفارات دول مختلفة ومقرات كثيرة لشركات وبنوك أجنبية ومحلية على محيط الميدان وفي الشوارع الهادئة المتفرعة منه والمظللة بأشجار كثيفة الفروع تختفي جذوعها الضخمة القديمة وراء أسوار الفيلات والعمارات الصغيرة، يعدل من وضع ربطة عنقه أمام زجاج إحدى السيارات المتوقفة ويخرج منديلًا ورقيًّا من حقيبته الجلدية ليمسح الغبار العالق على حذائه ثم يخرج إسفنجة صغيرة رطبة يلمّع بها الحذاء الأسود الذي بدأت تظهر عليه التشققات، يتوقف عند كشك صغير ليتناول عبوة بلاستيكية صغيرة من الماء البارد ويلتقط أنفاسه ويستعيد تركيزه ثم يخرج ملفًّا بلاستيكيًّا شفافًا من حقيبته ويقلّب في أوراقه ثم يسأل البائع عن مكان شركة ما فيشير له إلى فيلا أنيقة قرب نهاية الشارع، يشكره ويناوله ثمن الماء ويتجه ناحية الفيلا في خطوات ثابتة مردّدًا بصوت خافت:

- ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾.

خطا إلى البهو الرخامي الفخم للفيلا وتقدم برأس مرفوع وقامة منتصبة إلى منصة الاستقبال التي تقف وراءها سكرتيرة ثقيلة الزينة بدرجة رآها مبالغًا فيها، حيَّاها وقال بلهجة مهذبة وهو يقدم سيرته الذاتية المطبوعة داخل غلافها البلاستيكي:

- عندي إنترڤيو الساعة ٢ مع مدير الموارد البشرية.

كانت الساعة تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق، تناولت منه الملف وطلبت منه الانتظار، شكرها وجلس على مقعد وثير في بهو الاستقبال، وتناول مجلة أجنبية متخصصة في شئون البورصة والأسهم، تصفحها وقد بدأ التوتر يعرف طريقه إليه، أخذ يعيد ترديد الدعاء بصوت هامس ويحاول استعادة تركيزه الذي تشتت من أثر الانتظار الذي طال حتى الثانية والثلث، فكر لحظة أنه قدم من أقصى أطراف المدينة الكبيرة التي هو غريب عنها متنقلًا بين ثلاث وسائل مواصلات مختلفة ووصل قبل موعده بعشر دقائق بينما هذا المدير الجالس في مكتبه الفخم المكيف يتأخر عن موعد حدده هو مسبقًا بما يفوق ثلث الساعة، ربما لا يكون ذلك قلة التزام بقدر ما هو استهتار بالموعد، لو كان موعد ذلك المدير مع وزير ما لوصل إليه قبل حلوله بساعة، أما موعد مع شاب حديث التخرج يبحث عن وظيفة فيمكنه أن ينتظر حتى ينتهي المدير من محادثة هاتفية أو اجتماع طارئ أو حتى متابعة مباراة ما، ليس عليه أن يغضب على أي حال، لا طائل من وراء الغضب.

جاءت إليه سكرتيرة أخرى ربما هي المختصة بقسم الموارد البشرية وطلبت منه في ذوق أن يتبعها، صعد إلى الطابق العلوي على سلم واسع ومكسو بسجاد أزرق أدكن يغطي الدرجات الرخامية شاهقة البياض، كانت الحوائط مكسوة بالكامل بخشب غامق أنيق وتزينها لوحات معاصرة بسيطة، فقط تشكيلات متنوعة من ألوان متداخلة في إطارات نحاسية رقيقة،

كانت هذه الفيلا بالتأكيد سكنًا لعائلة ثرية في زمن سابق، ربما امتلكها أحد الباشوات أو التجار الأجانب، ربما سيكون مكتبه هنا ما كان سابقًا غرفة نوم حسناء أرستقراطية قديمة أو صالة طعام أسرة أوروبية عريقة، أو لعله سيكون مكان غرف الخدم والسائقين، تجاوز خيالاته تلك وابتسم ليخفي توتره قبل أن تطرق السكرتيرة الباب وتُدخِله إلى مكتب الشخص الذي جاء لمقابلته.

كان الرجل حديث السن على غير ما توقَّع، أنيقًا ومهندمًا كونه رئيس مجلس إدارة شركة كبرى، ذو حضور يهيمن على ما حوله من فراغ، رحّب به وطلب منه الجلوس على المقعد المقابل للمكتب ثم ترك مكتبه وجلس بقبالته وسأله عما يحب أن يشرب، شكره بأدب فبدأ الآخر يتلو سلسلة الأسئلة المعتادة التي حفظها الشاب الجنوبي من كثرة ما مر به من مقابلات مشابهة، نفس الأسئلة بنفس الترتيب، يجيب عليها نفس الإجابات، في الواقع كان قد طوّر كثيرًا من أدائه ومن إجاباته ومن لغة جسده، كان قد استثمر قسطًا معتبرًا من وقته ليقرأ على الإنترنت من مصادر متعددة عما يجب وما لا يجب فعله وقوله في مثل تلك المقابلات، عما يحب مسئولو الموارد البشرية سماعه وما لا يحبون، يذهب دائمًا قبل موعده بقليل ويحرص على التصرف بجدية ومهنية حتى لو لم يكن الطرف الآخر كذلك، تصفّح الرجل الأنيق سيرته الذاتية باحثًا عن شيء ما ثم سأله بنبرة محايدة:

– إنت ماشتغلتش في أي مكان قبل كده؟

أجاب بهدوء على السؤال الذي توقعه وجهز الإجابة عليه:

– أنا يافندم خريج ٢٠١٠ وبعد التخرج دخلت الجيش ولسه مخلص، في الفترة اللي قبل الجيش وخلال الدراسة اتدربت في أكتر من مكتب محاسبة في قنا.

رفع الرجل حاجبيه بحركة تعبر عن مزيج من الدهشة والسخرية لكنه قال بنفس النبرة المحايدة تمامًا وهو ينظر في عيني الشاب الأسمر:

– قنا.

أجاب بثبات وقد كان يتوقع ردَّ فعلٍ مماثلًا:

– أيوة يا فندم، دي محافظتي والجامعة اللي درست فيها كانت هناك.

قال الرجل بلغة إنجليزية ذات لكنة أمريكية متقنة وكأنما يريد أن يثبت نقطة ما لا يمكنه التصريح بها مباشرة:

– عزيزي، لما يجب أن أوظّفك؟

أجاب الشاب – وقد كان مستعدّا لذلك الفخ أيضًا – بإنجليزية صحيحة النطق والقواعد النحوية وإن شابتها لكنة مصرية واضحة، لكنة من لم يتشرب نطق اللغة منذ الصغر:

– لا يجب عليك أي شيء بالطبع يا سيدي فالقرار قرارك، لكنني أجد نفسي مناسبًا للوظيفة الشاغرة لديكم بحسب وصفها المنشور في الإعلان، فأنا حاصل على الشهادة الجامعية المطلوبة وبتقدير جيد جدًّا، أحمل عدة

شهادات لدورات تدريبية معتمدة في مجالات المحاسبة الإدارية والتدقيق الداخلي وإدارة المخاطر المالية، أنهيتُ خدمتي العسكرية، وليست لي أية سوابق جنائية، كما أنني شخص ملتزم وسريع التعلم وقادر على العمل تحت ضغط وضمن فريق عمل، لذلك لا أظن أنه ينقصني شيء لأكون مناسبًا لهذه الوظيفة، ولذلك تقدمت للحصول عليها.

قلب الرجل شفته السفلى كتعبير مصطنع عن الإعجاب وإن كان يدل كذلك عن عدم اقتناع ثم عاد للتحدث بالعربية:

– بس للأسف إحنا بندور على حد يكون خريج مدرسة لغات لإن شغلنا زي ما انت عارف مرتبط بعملاء أجانب والإدارة العليا للشركة نفسها أمريكية.

أجاب الشاب وقد لمح في حديث الرجل محاولة لإيجاد مبرر لرفضه بلطف:

– حضرتك أنا حاصل على ٧ في اختبار IELTS وده زي ما حضرتك عارف معتمد في العالم كله، يعني أنا بعرف إنجليزي بدرجة كافية.

تفحص الرجل أوراق السيرة الذاتية الموضوعه أمامه مرة أخرى متظاهرًا باكتشاف شيء ما ثم قال مؤكدًا على كلام الشاب:

– صحيح، صحيح.

ثم نهض واقفًا ومادًّا يده للشاب قائلًا بنصف إنجليزية ونصف عربية وبابتسامة مصطنعة وبنفس اللهجة الاحترافية المحايدة:

– طيب أنا سعيد بمقابلتك وأتمنالك التوفيق، فيه حد من عندنا هيتصل بيك لمقابلة تانية مع الإدارة لو تم ترشيحك للوظيفة.

صافحه الشاب بحرارة وباحترام ثم خرج وأغلق الباب بهدوء وهبط السلم الرخامي وهو يخفف من ضغط ربطة العنق على رقبته قليلًا، ويجفف عرقه بمنديل أخرجه من جيب السترة، بمجرد أن دلف خارجًا من الباب الأمامي خلع السترة وربطة العنق وأراحهما على ذراعه اليسرى ثم وقف تحت ظل شجرة كثيفة الأوراق ساهمًا ومحدقًا إلى الفراغ بنظرة يائسة، وزفر زفرة عميقة ثم واصل السير.

لم تكن تلك مقابلته الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، ربما كانت الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، لم يعد يحصي العدد، كان قد قدم إلى القاهرة منذ شهور ونزل ضيفًا على خالٍ له يقيم في منطقة شبه عشوائية على أطراف المدينة، هو ليس خاله بالضبط، ولكنه ابن عم أمه وتصله بوالده كذلك صلة قرابة أبعد قليلًا، لكن عادات بلاده الجنوبية البعيدة تعتبر كل أقارب الأم أخوالًا وكل أقارب الأب أعمامًا، كان كل سكان قريته أقارب بشكل ما، بل إن كل سكان زمام القرى المتقاربة التي تشكل في مجملها قرية واحدة كبيرة ينتمون

عبر أصل أو نسب ما إلى قبيلة عربية واحدة هاجرت من صحراء الجزيرة العربية إلى هذه البلاد الخصبة في قديم الزمان باحثة عن الاستقرار والأمان على ضفاف النهر الذي يضمن للساكنين بجواره مصدرًا دائمًا للماء الذي يضمن بدوره الغذاء والمأوى للبشر والدواب.

كان بيت هذا الخال الاعتباري متواضعًا وصغيرًا، كان مدفونًا في شارع ضيق متفرع من آخر بنفس الضيق وسط غابة من عمارات شاهقة مبنية بالطوب الأحمر غير المطلي بأي شيء، لا يمكنك الوصول إليه إلا بواسطة مركبات التوكتوك القبيحة التي تشبه حشرات مزعجة يقودها صبية أشد قُبحًا وأكثر إزعاجًا، كان يُربكه بشدة عدم قدرته على تحديد الاتجاهات في هذه المدينة، كان ككل أبناء القرى خاصة في الجنوب قادرًا على الإحساس بالاتجاهات الأساسية، كان في قريته يدرك بالفطرة ما إذا كان مبحّرًا أو مقبّلًا أو مشرّقًا أو مغرّبًا فهناك يمكنك رؤية السماء والنجوم بسهولة ومن أي مكان فتستطيع إدراك الاتجاهات، ثم تتعود مع الوقت على إدراكها تلقائيًّا دون الحاجة للنظر إلى السماء، أما هنا فلا يمكنك إن رفعت رأسك إلا أن ترى شرفات لا نهائية يتدلى منها الغسيل المعلق على الحبال وتتشابك فيما بينها أسلاك عشوائية كخيوط عنكبوت أسطوري، لا يمكنك أن تدرك إلا شريحة رفيعة من السماء لا تهديك إلى شيء، أشباح خرسانية غير مرخصة متراصة على جانبي شوارع لا يسمح عرضها الضئيل بنفاذ الضوء إلى أرضيتها

المغطاة بالقمامة والمياه الآسنة من بين تلك الجدران المتراكمة بلا أي تنسيق إلى ما يتجاوز العشرين طابقًا تتكدس فيها أسرٌ دَفَعَ بعضُها مدخرات حياته وما زال البعض الآخر يسدد الأقساط حتى حصلوا على ذلك النصيب الزهيد من الفراغ المحاط بجدران أربعة ويعلوه سقف فقط ليحتموا به من العراء لا أكثر، لا تُوفِّر لهم هذه الكهوف الأسمنتية أيًّا من مظاهر السكن الآدمي، لا ينفذ إليها شعاع شمس مباشر ولا يتخللها تيار هواء صحي، لا يمكنك أن ترى منها خضرة الزروع ولا زرقة السماء، لا مراعاة فيها لأي من ضمانات السلامة أو الأمان، لا يسمح التقارب الشديد بين العمارات بتوفير الخصوصية لأي من السكان بل يمكنك أن ترى بوضوح من نافذة أي شقة ما يحدث في عمق شقة أخرى، كان يعجب بشدة لتلك المفارقة، ففي قريته التي سكانها جميعهم أقارب له لا يمكنه رؤية ما وراء الجدران، رغم أن البيوت هناك مفتوحة للجميع إلا أنه لا يمكنه إلا دخول المندرة المخصصة للضيوف أو صحن الدار الأشبه بغرفة الاستقبال، لكن لا يمكنه النفاذ إلى حرمة غرف النوم، بينما في هذه المدينة التي لا يعرف فيها الشخص من يسكن على الجانب الآخر من الجدار الذي ينام تحته يمكنك بسهولة أن ترى في بيوت الغرباء المستلقي منهم على السرير والجالس بفانلته الداخلية أمام التلفزيون والواقفة أمام الموقد في مطبخها ومن يحلق ذقنه أمام مرآة الحمام، لا عجب أن تظل النساء هنا مغطوات حتى في عمق بيوتهن، لا توجد

هنا مساحة خاصة لأي شخص، تبدو الحياة كما لو كانت على المشاع، أعداد هائلة من البشر متكدسة بين طبقات من الطوب الأحمر والأسمنت المسلح، ليس لأي فرد منهم حياته المستقلة، يمارس الجميع حياته الطبيعية تحت سمع الجميع وبصرهم ورقابتهم، لم يفهم قط كيف يكون ما توفره قريته المتواضعة الملقاة في أقصى الجنوب من مقومات المعيشة أعلى مما توفره بعض أحياء العاصمة، لماذا يصر هؤلاء الناس على البقاء هنا إذًا؟ لماذا يقبلون الحياة بهذه الكيفية المزرية ولا يعود كلٌّ إلى قريته؟

رفض الخال العجوز رفضًا قاطعًا منذ اليوم الأول قبول أي مساهمة مالية من قريبه الشاب تحت أي مسمى نظير الإقامة في شقته الصغيرة المكتظة أصلًا بأبناء وبنات كثيرين في أعمار مختلفة حيث لا يكفُّ أهالي قريته وما يجاورها من قرى عن الإنجاب مهما تكن ظروفهم، توقفوا منذ زمن عن إنتاج أي شيء عدا الأطفال، لذلك كان الشاب المتعفف بطبعه يقضي معظم يومه بالخارج ويتناول وجباته في مطاعم شعبية رخيصة ينفق عليها من مدخراته المتواضعة التي جمعها من ممارسة أعمال يدوية مختلفة في محيط قريته والقرى المجاورة في أوقات فراغه، كان يبقى بالخارج حتى يعود للنوم فقط ولا يتكلف عناء مقاومة إلحاح الخال وزوجته الطيبة عليه في كل وجبة على سبيل العادة أكثر منه على سبيل الكرم، كان ذلك الإلحاح يحرجه كثيرًا، كان الخال رغم فقره شهمًا وكريمًا، وكانت العادات والتقاليد من ناحية أخرى تفرض عليه أن

يكون كذلك، كان هذا قانونًا غير مكتوب، لكنه راسخ ومتوارث، فكان على أي فرد من القبيلة يقطن مدينة ما أن يتكفل بإقامة أي قريب له – أيًّا كانت صلة القرابة – يحلُّ على هذه المدينة إلى أن تنقضي حاجته ويغادر المدينة أو أن يستقر بها ويصير له بيته الخاص، وكان على الضيف كذلك أن يتقبل مستوى معيشة مضيفه مهما يكن فقيرًا، ولا يحقُّ للضيف أن ينزل بمكان آخر حتى لو امتلك المقدرة المادية فقد كانت تلك إهانة لن يغفرها له المضيف ولن تتقبلها القرية ولا القبيلة، كان للخال مكانة كبيرة في القبيلة والقرية بحكم سنه ونسبه الممتد إلى أعيان قدماء لم يتبق من نفوذهم ولا أملاكهم إلا هيبة الأسماء، كان يعمل سائقًا على حفار ضخم بشركة مقاولات حكومية تتولى تنفيذ مشروعات للطرق، يقضي نهاره كله – وبعض الليل أحيانًا – وسط صحراء نائية يحفر تربتها ويمهدها لاختراق طرق لا تنتهي، لكنه لم يتخلّ يومًا عن واجبه كواحد من كبار رجال القبيلة بالتكفل باستضافة من يأتي من أهل القرية إلى العاصمة – وما أكثرهم – في أي وقت ولأي مدى من الزمن، وكانت وصيته الوحيدة لأبنائه الكبار هي أن يظلوا على عهده وأن يورثوه لذريتهم من بعدهم، كان أبناؤه أقل تمسكًا بهذه العادات بحكم نشأتهم في العاصمة بعيدًا عن القرية وتقاليدها وبحكم ضغوط الحياة، إلا أن تربيتهم على هذه العادات جعلتهم يتقبلونها إكرامًا لوالدهم، كانت مقولة الخال المفضلة هي:

– "كبّر نفسك يا ولدي يكبّروك الناس".

كان الشاب الأسمر يؤمن منذ طفولته في القرية بأن خلاصه في التعليم، بين الجدران السميكة لبيت عائلته الذي بناه أبوه وأعمامه بأذرعهم العارية مع جده من الطوب اللبن الذي صنعوه في حقل لهم وسقفوه بجذوع نخيل من بستان العائلة، كان يقضي ليالي الشتاء قارسة البرودة حالمًا بالخروج من هذه القرية بأسرع ما يمكن، يعدّ الليالي حتى تنقضي سنوات الدراسة، كان يحب قريته، لكنه كان يكره إيقاعها البطيء، لا شيء فيها يتغير، لا شيء فيها يحفّز على الإبداع أو يحرض على الانطلاق، كل أيامها متشابهة وكل لياليها متطابقة، أعراسها تشبه مآتمها، كلها نسخ متكررة مع اختلاف الأسماء، تفرح هذه القرية وتحزن بنفس الكيفية، كان يشعر بالرغبة في الفرار، في الهروب إلى حيث يتسع الأفق لطموحه، إلى حيث تغمر الشمس بذور أحلامه فتنبت ثم تزهر، كان يكاد يرى نفسه وقد غزا العاصمة البعيدة بفورة حماسته، يرى نفسه وقد فُتحت له بواباتها العتيقة وعُلقت على أسوارها العالية الرايات مرحبة بالفارس الجنوبي الفاتح، يحب بالطبع تلك الجدران الحميمة التي اختلط طينها بعرق أبيه وجده، التي تنفست معه نسائم نجاح وقلق ورهبة وسعادة، التي سهرت معه ليالي الامتحانات وأيقظته في صباحات الأعياد، يحبها لكن طموحه يتجاوزها بكثير، كان يضع نصب عينيه دومًا أكثر من مثل أعلى من أبناء قريته والقرى المجاورة الذين رفع التعليم وحده شأنهم دون أن يكون لهم نصيب من جاه أو نسب أو ميراث كأعيان القرية الحاليين،

كان التعليم فقط هو ما وضعهم في مصافِّ الأعيان ومنحهم الهيبة والتقدير من الجميع، كان أغلبهم موظفين حكوميين بشكل ما، مهندسين وأطباء ومحامين وفقهاء لكنهم يعملون في وظائف حكومية ثابتة كما هي غاية غالبية أهالي الريف من التعليم، كانوا قانعين براتب الوظيفة الحكومية الزهيد في مقابل ضمان دخل شهري ثابت ومعاش بعد التقاعد مما يُعزِّز مكانتهم في القرية التي يعتمد غالبية أهلها على العائد غير الثابت وغير المضمون من زراعة الأرض التي تقلصت مساحتها وتقسمت عبر التوارث المستمر من جدٍّ إلى أبناء ومن أبناء إلى أحفاد حتى انتهى نصيب كل فرد إلى فتات قليل لم يعد مربحًا في ظل التكلفة المتزايدة للزراعة والتي لا يمكن تغطيتها إلا بزراعة مساحات كبيرة من الأرض، لذلك فقد أصبحت الوظيفة الحكومية هي أمل غالبية أهل القرية لضمان الدخل الثابت والارتقاء في سلم الطبقات الاجتماعية.

رغم ذلك كان هناك من تمرد على تلك الثنائية المحدودة التي تفرض على المرء إما العمل بالزراعة أو الحصول على وظيفة حكومية، كان هناك من استطاع الهروب خارج محيط القرية والمركز والمحافظة كلها واستقل القطار شمالًا إلى العاصمة البعيدة أو إلى الإسكندرية الأكثر بُعدًا، كان له صديقان يكبرانه ببضع سنوات إلا أن ملاعب القرية كانت قد جمعته بهما سنواتٍ قبل أن يغادرا إلى القاهرة بحثًا عن المستقبل، أصبح أحدهما مهندسًا بمكتب

استشاري كبير بالقرية الذكية والآخر محاميًا بقسم الشؤون القانونية لشركة متعددة الجنسيات في وسط المدينة، كان لهذين الشابين فضل كبير عليه، فهما من أرشداه إلى الطريق الصحيح ليبدأ مشوارًا مهنيًّا ذا مستقبل مرموق لا مجرد وظيفة حكومية روتينية، كان هو كذلك على استعداد للتعلم والاجتهاد ليصبح مؤهلًا لدخول سوق العمل، كان مقتنعًا بأنه لا يقلُّ كفاءة عن "ناس بحري" – كما يطلق الجنوبيون على كل ما هو شمال محافظات الصعيد – الذين يشغلون الوظائف المرموقة في الشركات الكبرى بالعاصمة وينتهي بهم الأمر مديرين ومستشارين وخبراء دوليين في مجالاتهم، استثمر ما أمكنه جمعه من مال في الدراسة للحصول على شهادات ومؤهلات معتمدة تخص مجاله في جامعته وفي مراكز التدريب الموجودة في محافظته النائية وعبر الإنترنت، أعدّ نفسه جيدًا حتى أنهى فترة تجنيده وأصبح جاهزًا لاقتحام العاصمة، ذهب مُدجَّجًا بأحلام لا سقف لها، تقدم إلى كل ما وقع أمامه من وظائف تناسب مؤهلاته، جعل من البحث عن وظيفة وظيفته اليومية التي يستيقظ لها مبكرًا في موعد ثابت ويذهب إلى مكان مخصص للعمل، كان ركنًا هادئًا من مقهى شعبي جعل منه مكتبه الشخصي حيث يفتح حاسبه المحمول الذي ادّخر طويلًا ليشتريه من محل للأجهزة المستعملة ليتابع بريده الإلكتروني والمواقع التي سجل فيها للبحث عن وظيفة، انتظر لفترة دون أن يتلقى أي ردٍّ، ثم بدأ يتلقى بعض المكالمات، كانت غالبية العروض سخيفة، أراد الكثيرون

استغلال حداثة عهده بسوق العمل ليبخسوه قدره فلم يوافق، لن يقبل بوظيفة تنتقص من قدره، لن يبدأ حياته العملية بتنازلات، حصل بعد جهد كبير وانتظار طويل على بعض المقابلات بشركات كبيرة، لكنه كان يعود محبطًا في كل مرة، بعض من قابلوه حمقى وجهلاء، وبعضهم متعجرفون، وقليل منهم محترفون فعلًا، لكنهم لا يقتنعون به، الكثيرون ممن قابلهم لا يعرفون تحديدًا أين تقع محافظة قنا تلك ولم يسمعوا بجامعة جنوب الوادي التي تخرج فيها، سخر البعض بوقاحة من لهجته الصعيدية ومن لون بشرته الأسمر ولو بشكل غير مباشر، حاول البعض تعجيزه أو التعالي عليه بالتحدث بالإنجليزية وحتى عندما أجابهم بنفس اللغة تهكموا على طريقة نطقه لبعض الكلمات، كان يعلم أن بعض الوظائف محجوز لشخص بعينه، ولكنه واصل المحاولة، إنه يعلم يقينًا أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

تأمّل القاهرة وهو جالس يومًا على ضفاف النيل، وأكد لنفسه أنه لا بد أن في هذه المدينة العملاقة وظيفة تناسبه، ثم خطر له فجأة خاطر جديد، لماذا يحصر طموحه في هذه المدينة أو في هذه الدولة كلها؟ لماذا لا يبحث عن عمل في بلد آخر؟ السعودية مثلًا أو الإمارات أو الكويت، ما المانع؟

حسم أمره في هذه الجلسة وقرر أنه سيمنح هذه المدينة فرصة أخرى، فرصة واحدة فقط، إذا لم يحصل على الوظيفة فسيغادر، وجاءت الفرصة الأخيرة في المقابلة التي حصل عليها في تلك الفيلا والتي خرج منها وهو يعلم أنهم لن يوظفوه.

أخذ يُراجِع قائمة معارفه ومعارف معارفه في الدول الأخرى فلم يجد سوى شخص تربطه به قرابة بعيدة يقيم في دبي، لا يعرف ماذا يعمل هناك، لكنه يستطيع على الأقل أن يرشده فلم يسبق له السفر خارج البلاد ولا يعرف كيف يتعامل مع الجنسيات الأخرى، حَسَمَ أمره، وبدأ يعد أوراقه ويحصي تكلفة هذه المغامرة من تأشيرة وتذكرة سفر وتكلفة الإقامة لمدة شهر في تلك البلاد التي يسمع أنها شديدة الغلاء، تنطبق على ذلك القريب أيضًا قاعدة التكفل بالضيوف من أبناء القبيلة لكنه لن يستطيع ذلك لأنه لا يسكن أصلًا في منزل خاصٍّ به بل يقيم في غرفة مشتركة مع غرباء، كل ما يستطيعه هو تدبير سرير لقريبه حتى يجد له مأوى عندما يصل، كان ما تبقى من مدخراته لا يكاد يكفي لتغطية تلك النفقات، كانت تلك فرصته الأخيرة، أو مغامرته الأخيرة التي يعني فشلها أن يعود إلى قريته لينتظر أن ترضى عنه الحكومة وتدفنه في وظيفة زهيدة الراتب بأي إدارة حكومية ليقضي بقية عمره موظفًا بلا طموح.

كان قريبه في انتظاره بمطار دبي، تعرف عليه بصعوبة وسط وجوه المستقبلين الكثيرة خاصةً وأنه كان لم يزل مرتبكًا ومتوترًا بعد رحلة طيران قاربت الأربع ساعات قضاها كلها يتمتم بكل ما يحفظه من أدعية وآيات قرآنية، رحّب به قريبه الشاب القروي الذي عرف أنه يعمل في تقديم الطلبات بمطعم مصري ويسكن مع بعض زملائه في العمل بجوار المطعم

وبالقرب من محطة للمترو وأنه سيسكن معه، استقلا المترو من المحطة المتصلة مباشرةً بصالة الوصول في المطار، لم يكد يرى لمحة سريعة من المدينة عبر نوافذ المترو المزدحم حتى هبط به إلى باطن الأرض لعدة محطات، نزلا بعدها ليركبا قطارًا آخر على الخط الثاني الذي تقع عليه محطة المترو المجاورة لمسكن القريب، خرج القطار بهما أخيرًا إلى النور مرة ثانية ليجد نفسه في حي سكني ذي بنايات متوسطة الارتفاع، تبدو الشوارع التي يمر فوقها المترو على ارتفاع كبير عريضة ومزدحمة، نظيفة ومنظمة، تلوح من بعيد أبراج عالية يبرز من وسطها البرج الشاهق الذي يصغر محيطه بالتدريج كلما ارتفع، بدا له كصاروخ ضخم مستعدٍّ للانطلاق إلى السماء.

ما إن فتح قريبه باب الشقة حتى أصابته قشعريرة وجاهد ليخفي إحساسه بالغثيان، كانت الشقة أشبه بعنبر المبيت في الكتيبة التي قضى بها فترة تجنيده قرب الحدود الغربية، أسرّة معدنية ذات دورين متراصة في كل جانب لم يُترك بينها من الفراغ إلا ما يكفي بصعوبة لعبور شخص، تشغل الأسرّة كل مكان في الصالة والغرف الثلاث التي تتكون منها الشقة، أحصاها فوجدها ثمانية وعشرين، يقيم ستة وعشرون شخصًا في شقة واحدة فلحسن حظه كان هناك سريران فارغان حصل هو على أحدهما، كان سريره مميزًا رغم ذلك فقد منحه قريبه سريرًا سفليًّا مجاورًا لنافذة إحدى الغرف، وذلك ما منحه عدة ميزات، يمكنه رؤية الشارع عبر النافذة وإن لم يكن يستطيع فتحه

تفاديًا لتسرب الحرارة الشديدة من الخارج، كما أنه لن يضطر لتسلق سلم ليصل إلى السرير العلوي، أما الأهم فهو وجود حمام داخل الغرفة يستخدمه فقط الأشخاص الستة المقيمون بها، كانت الميزة الأساسية في هذا السكن كما أوضح له قريبه هو قُربه من محطة المترو الذي يغطي مساحة كبيرة من المدينة أو على الأقل يغطي معظم المناطق التي تتركز فيها الشركات، كان ذلك يعني سهولة الوصول إلى مقابلات العمل في مدينة مترامية الأطراف لا يعرف منها شيئًا.

رَضيَ بالأمر الواقع وأقنع نفسه بأنه وضع مؤقت سيحتمله كما احتمل فترة التَجنيد، لم يكن مدللًا ولا معتادًا الحياة الرغدة بأي حال، ولم يكن الفقر بغريبٍ عليه، كان فقط يكره فقدان الخصوصية، في القاهرة كان يجوب المدينة طوال اليوم مع أصدقائه أو بمفرده ويعود لبيت خاله الذي يفتقد الخصوصية على موعد النوم، أما في هذه المدينة الغريبة فلا يعرف أحدًا ليتسكع معه ولا يملك المال للتجول، كان قد اتفق مع قريبه على أن يوفر له الأخير وجبات مما يُترك للعاملين بالمطعم الذي يعمل به والذي كان على أي حال شعبيًّا ورخيصًا بالمقارنة بباقي مطاعم المدينة، كان بإمكانه تدبُّر أمره حتى يحصل على وظيفة، فليأمل فقط ألا تتأخر تلك الوظيفة.

كان قد بدأ البحث عبر الإنترنت قبل أن يصل، أجرى بحثًا مفصلًا عن سوق العمل في الإمارات ومتوسط الرواتب والمؤهلات المطلوبة في تخصصه

وبدأ في التقديم من خلال مواقع شركات التوظيف، حدد لنفسه رقمًا لا يمكن أن يقلَّ راتبه عنه، سيطلب رقمًا أكبر بقليل حتى يمكنه التفاوض لكنه لن يتنازل عن الحد الأدنى الذي حدده.

تكرر ما حدث معه في القاهرة بالضبط، إلا أن مكتبه التخيلي هذه المرة كان سريره السفلي نفسه وموعد بداية العمل هو موعد خروج شركاء السكن إلى عملهم، يتوفر هنا اشتراك إنترنت وجهاز تكييف يغنيانه عن البحث عن مكان مناسب لمتابعة بحثه قد يكلفه ما لا يستطيع، جاءته في البداية عروض سخيفة تستغل احتياجه للحصول على عمل في خلال الشهر الذي تسمح له به تأشيرة السياحة التي قدم بها، ثم بدأ يحصل على مقابلات مع شركات جيدة، هناك دائمًا من يتصيد القادمين الجدد ليستغل ضغط الوقت عليهم ويوظفهم برواتب هزيلة، كثير منهم لا يمانع في قبول أي راتب حتى يتمكن من البقاء في البلاد بشكل قانوني على أمل أن يجد فرصة أفضل لاحقًا، ويتمسك البعض الآخر بالحصول على الراتب المناسب لمؤهلاتهم حتى لو نفد الشهر دون الحصول على عمل، سوق العمل هنا شرسة والمنافسة فيها عالمية، يتنافس على الوظيفة الواحدة متقدمون من كل جنسيات الأرض، فلكي تظفر بوظيفة عليك إما أن تكون الأكفأ أو أن تكون من يقبل بالراتب الأدنى، تنطبق قواعد العرض والطلب على الوظائف كما تنطبق على أي سلعة أو خدمة، فطالما أن هناك من يقبل براتب قليل لن تجد من يعرض عليك راتبًا كبيرًا إلا إذا أظهرت كفاءة استثنائية أو مؤهلات إضافية، كما أن

اختلاف مستوى المعيشة وسعر العملة بين البلاد التي ينتمي إليها المتقدمون للوظائف عوامل مؤثرة في الحد الأدنى الذي يمكنهم قبوله، فالقادم من الهند أو الفلبين يرضيه راتب أقل بكثير من القادم من بريطانيا أو الاتحاد الأوربي، رغم ذلك تصرُّ بعض الشركات على توظيف الأوربيين ربما لعدم ثقتها بمؤهلات مواطني دول العالم الثالث وربما فقط بدافع العنصرية، لذلك انقسم من قابلوه في الشركات التي تقدم إليها إلى قسمين رئيسيين، قسم يبحث عن أرخص موظف ممكن، لا تهم جنسيته ولا كفاءته بقدر ما يهم أن يقبل الراتب الزهيد المعروض عليه، يتفاوضون على السعر كما يتفاوضون على شراء سلعة ولا يعنيهم كثيرًا ما يحمله المتقدم من شهادات ودورات ربما لا يعلمون عن أهميتها شيئًا، وقسم آخر يبحث عن الكفاءة، يريد أفضل موظف في حدود الراتب المرصود مسبقًا للوظيفة والذي يمكن زيادته في حدود معقولة إذا كانت مؤهلات المتقدم تستحق ذلك، فشلت مقابلاته مع القسم الأول؛ لأنه لم يقبل براتب بخسٍ؛ ولأنه لم تعجبه طريقة تعاملهم غير الاحترافية، بينما فشلت مقابلاته مع القسم الآخر لقلة خبرته العملية وكذلك لتفضيلهم توظيف الغربيين أمثالهم أو على الأقل خريجي الجامعات الغربية.

كان يتعلق بالأمل في كل مرة يشعر فيها أنه أبلى بلاءً حسنًا في مقابلة ما وترك انطباعًا جيدًا، كان ينسج خيوط الأحلام لدرجة أنه كان يضبط نفسه متلبسًا بالبحث عن أفضل مكان للسكن، وأقرب محطة للمواصلات

العامة قرب موقع الشركة التي ينتظر منها مكالمة التوظيف، كان الأمل يعبث بجوارحه في كل مرة، يكاد يرى نفسه في مكتبه الجديد ويبدأ في تمثيل كيف سيقابل زملاءه للمرة الأولى، وما سيرتدي من ملابس وأين سيقضي استراحة الغداء، يكاد يحسب ما سينفق من الراتب الذي سيحصل عليه وما سيرسل إلى والده في القرية وما سيدخر وما سيستثمر في دراسة الماجستير عبر الإنترنت من خلال تلك الجامعة الأيرلندية التي راسلها من قبل، لكنه لم يملك قط حتى القسط الأول من مصروفاتها، لكنه في كل مرة لا يتلقى المكالمة المرتقبة، ثم يذهب إلى مقابلة جديدة فيتكرر الأمر نفسه مع شركة جديدة في منطقة مختلفة، ويجد نفسه يبحث عن السكن والمواصلات ثم لا يتلقى المكالمة، كان الأذى النفسي الذي يُسببه له ذلك الانتظار والتعلُّق بالأمل في كل مرة هو أقسى ما واجهه في تلك الأيام حتى صار يرتاح عندما يدرك في مقابلة ما أنه غير مناسب للوظيفة فعلى الأقل يمكنه ساعتها أن يطوي صفحة هذه الشركة بمجرد خروجه من الباب، أما حينما كان يلقى معاملة جيدة ويشعر بإمكانية أن يحصل على الوظيفة، فقد كان يخرج من الباب محملًا بهموم الترقب والخوف من مغبة إحباط جديد.

اقترب الشهر من نهايته، ولم يوفّق في الحصول على وظيفة مناسبة، لم يعد يملك من المال ما يمكنه من تمديد إقامته أو البحث في بلد آخر، كانت فرصته الأخيرة للإبقاء على أحلامه حية هي الأيام الستة المتبقية على انتهاء صلاحية تأشيرته، ستة نهارات تفصله عن العودة إلى جوار حوائط بيت جده السميكة

والاكتفاء بالتحديق من خلال نوافذها الضيقة إلى الحقول الممتدة من ضفاف النهر إلى سفح الجبل ثم احتساء الشاي الثقيل مع الأصدقاء في المندرة الكبيرة، بعد أن فشل في فك طلاسم أسوار القاهرة العتيقة التي أبت أن تفتح بواباتها له، بعد أن غادر القرية والحقول والنهر والجبل، بعد أن ركب القطار مغادرًا القرية ثم ركب الطائرة مغادرًا البلاد كلها، بعد أن خالط الغرباء ونام مع ستة وعشرين شخصًا في شقة واحدة، بعد أن تجوَّل وسط ناطحات السحاب في هذه المدينة المبهرة بين الأشقر والأسمر والأصفر والأحمر، بعد أن شاهد مستقبله الواعد بعينيه وتقدم إليه واقترب منه وطرق بابه وكاد يدخل، هل يستيقظ بعد كل ذلك فيجد نفسه جالسًا في جلبابه الصعيدي على "الدكة" الخشبية أمام بيت جده يقاوم الملل والنعاس كرفاق طفولته الذين آثروا حياة أجدادهم فلم يغادروا الحقول، ولم يشاهدوا أضواء القاهرة ولا أبراج دبي؟

***

أُغلق باب المصعد في الطابق الثاني والثلاثين من ناطحة السحاب الشاهقة، وقبل أن يكتمل إغلاقه بلحظة وضع رجل أربعيني أنيق قادم من خارج المصعد ذراعه بين البابين فتوقفا عن الانغلاق وتحركا منفتحين ليدلف من بينهما الرجل وهو يعتذر، أُغلق المصعد مرة أخرى وانطلق هابطًا في نعومة شديدة كأنه لا يتحرك، ضغط الرجل على زر طابق المواقف الخامس، كان الشاب الأسمر واقفًا داخل المصعد قادمًا من الطابق الأربعين حيث يقع مقر الشركة التي منحته مقابلة محبطة جديدة لعلها الأخيرة له في

هذه المدينة، أرادت تلك الشركة أن تمنحه أقل من نصف الراتب الذي طلبه فرفض بإصرار رغم علمه بأنه لا يملك بديلًا، كان يائسًا إلى أقصى الحدود، انتبه إلى مرفق الرجل الأنيق الذي دخل للتو يصطدم بكتفه صدمة بسيطة فقد كان المصعد الكبير مزدحمًا، التفت إلى الرجل الذي اعتذر بالإنجليزية سريعًا ثم تطلع إلى وجه الشاب الأسمر وابتسم قائلًا باللهجة المصرية:

– آسف معلش، الأسانسير ده عامل زي الأتوبيس بتاعنا في مصر.

ابتسم له الشاب ورد في نبرة مهذبة:

– ولا يهمك يافندم حصل خير.

كانا متقاربين لدرجة مكنت الرجل الأربعيني من أن يلمح سطورًا من السيرة الذاتية المطبوعة التي يحملها الشاب في غلاف بلاستيكي شفاف فبادره بالسؤال:

– إنت بتدور على شغل؟

أجابه في نبرة حزينة:

– كنت بدور، بس مفيش نصيب خلاص، أنا راجع مصر بعد خمس أيام.

أشفق عليه الرجل وحاول أن يخفف عنه فسأله:

– بقالك كتير هنا؟

رد بنفس النبرة الحزينة اليائسة:

– خمسة وعشرين يوم.

ابتسم الرجل كما لو كان يريد أن يكسر حدة الحزن وتساءل:

– يا راجل خمسة وعشرين يوم وزهقت؟ ما تصبر شوية!

أجاب وقد أدرك أن الرجل لم يفهم سبب حزنه:

– أنا جاي بتأشيرة سياحة يافندم مدتها شهر والشهر ده هيخلص بعد خمس أيام ولسه مالقيتش وظيفة، مضطر أمشي.

رفع الرجل رأسه معبرًا عن الفهم أخيرًا، سكت قليلًا ثم سأله:

– إنت بتدور على وظيفة إيه؟

قال بدون حماسة:

– محاسب أو مدقق حسابات، أي حاجة في المجال ديّا يعني.

لمعت عينا الرجل ورد في حماسة:

– إحنا بندور على حد بيعرف في إدارة المخاطر (قالها بالإنجليزية).

نظر إليه الشاب نظرة التائه في الصحراء الذي لمح واحة من بعيد، كاد يهتف وهو يقول بحماسة مشوبة بالرجاء:

– ده تخصصي الدقيق وواخد فيه دورات ومعايا شهادة معتمدة من الجمعية الأمريكية لإدارة الأعمال.

كان المصعد قد وصل لطابق المواقف الخامس، فكر الرجل لحظة ثم نظر إلى الشاب وأشار له برأسه أن يأتي معه، خرجا وتوجها معًا إلى سيارة الرجل، توقف لثانية وسأله:

- إنت رايح فين دلوقتي؟

رفع كتفيه في إحباط وقال:

- مارايحش ولا مكان، أنا كنت هتمشى لغاية محطة المترو وارجع السكن أجهز نفسي للسفر، معنديش حاجة أعملها.

أشار الرجل إلى السيارة وقال في لهجة حازمة لكنها ودود:

- طب اركب.

ركب وأغلق الباب بحذر فسأله الرجل عن مكان سكنه فأخبره، قال الرجل:

- خلاص هوصلك ونتكلم في الطريق، هعملك إنترڤيو في العربية، ماشي؟

حاول الاعتذار لكن الرجل أشار بيده إشارة قاطعة فسكت، لم يكن يهمه أن يوصله الرجل في سيارته المريحة بدلًا من زحام المترو ومشقة السير، لكن ما يهمه قطعًا هو الحديث عن وظيفة محتملة يبدو أنها ممكنة.

هبطت بهم السيارة الطوابق الخمسة المكتظة بالسيارات منزلقة على منحدر نصف دائري أصاب الشاب بدوار خفيف، قطعا الطريق الذي لم يكن قد

وصل إلى ذروة الازدحام بعد فيما يزيد قليلًا عن نصف الساعة، تركه الرجل يتحدث كثيرًا قبل أن يحدثه عن الشركة التي يعمل بها وتفاصيل عملها ومهام الوظيفة المطلوبة، ثم سأله في صميم التخصص المطلوب فوجده مُلمًّا بمعظم الأساسيات ويحتاج فقط إلى تدريب بسيط توقّع أن يجتازه بسرعة، أعجبته مثابرة الشاب واجتهاده في تطوير مؤهلاته ومهاراته، سأله عن الراتب الذي يطلبه فذكر له الرقم الذي اعتاد أن يقوله، لم يرد أن يبخس نفسه حقها حتى وهو يعلم أنها الفرصة الأخيرة، بل إنها الفرصة ما بعد الأخيرة فلم تكن هذه الفرصة في حساباته أصلًا، لكنه لن يغير مبدأه حتى مع هذا الرجل المهذب الذي ألقاه القدر في طريقه لسبب ما، فلم يسرع هذا الرجل نصف ثانية ليلحق بالمصعد قبل إغلاقه إلا بقدر مقدور، لم يصطدم به هو بالذات دونًا عن كل من كانوا في المصعد ولم تشغر وظيفة مناسبة له في شركته في نفس التوقيت عبثًا أو مصادفة، كان يؤمن بأن لا شيء يحدث بالمصادفة، وأن لكل شيء سببًا، وأن لهذا الكون مدبّرًا عظيمًا يسيّر الأقدار بميزان دقيق.

وصلا أخيرًا إلى سكن الشاب، كان الرجل قد أخبره بوضوح أن ما يطلبه أكثر بقليل مما رصدته الشركة لهذه الوظيفة وأنه يعرف أن الشركة لن تدفع أكثر مما رصدته، نصحه أن يقبل بهذا الرقم وأن يسعى لإثبات كفاءته ليحصل على زيادة فيما بعد، قال له بنبرة حزينة كما لو كان يذكّر نفسه:

– الحياة مش عادلة، عمرها ما كانت عادلة، اقبل بالمتاح قدامك، حط رجلك اليمين الأول وبعدين فكر إزاي تحط الرجل الشمال.

أخذ منه السيرة الذاتية في ملفها البلاستيكي الشفاف وأعطاه بطاقته الخاصة وفيها رقم هاتفه المحمول وعنوان الشركة ورقم هاتفها وطلب منه أن يأتي ليقابله في الثانية عشرة ظهر اليوم التالي ليكون قد اجتمع بمدير الشركة صباحًا ليناقش معه الأمر، وعده بأن يزكيه عند المدير ليس لأنهما يحملان نفس الجنسية، لكن لأنه يستحق تلك الوظيفة، شكره الشاب بحرارة ودعاه لتناول الغداء معه لكن الرجل اعتذر لتأخره على أسرته ثم غادر.

نام جيدًا في تلك الليلة واستيقظ متأخرًا بعد أن غادر كل من في الشقة من الصباح الباكر إلى عملهم في المطعم، حصل على وقت كاف للاستحمام وغسل أسنانه وحلاقة ذقنه وتصفيف شعره وكي بدلته الوحيدة وقميصه الذي غسله على يده في المساء وتلميع حذائه، ثم نزل لتناول فطور شهي وقهوة إيطالية كمكافأة لنفسه وكتشجيع لها في ذات الوقت، بعدها توجه إلى محطة المترو الذي جاء مزدحمًا أكثر من المعتاد فاستقل القطار التالي إلى المحطة الأقرب لمقر الشركة في برج قريب من ذلك الذي التقى فيه الرجل الأربعيني بالأمس، هرول في الطريق من محطة المترو إلى ذلك البرج واضطر إلى التوقف عند ثلاث إشارات لعبور المشاة، عندما وصل أخيرًا كان متأخرًا عن موعده بثلاث عشرة دقيقة، طلب من السكرتيرة المحجبة التي ظنها عربية في البداية مقابلة الرجل الذي أعطاه بطاقته بالأمس، سألته عن اسمه بإنجليزية لم يفهم معظمها فذكره لها، حاولت ترديد الاسم بصوت خافت كأنها تخاف أن تنساه قبل أن توصله للرجل، رفعت سماعة الهاتف وقالت له إن شخصًا

يريد مقابلته ثم ذكرت له كلمة لا تمتُّ للاسم بصلة، كان اسمه صعب النطق على غير العرب، لكنها ابتسمت وأشارت له بالدخول.

طرق الباب طرقات خفيفة ثم فتحه ودخل مرتبكًا بعض الشيء لتأخره، لم يتأخر قط على موعد مقابلة، ولم يرد أن يترك انطباعًا سلبيًّا في أول زيارة له للشركة التي يتقدم للعمل بها، لم تكن الغرفة كبيرة ولا تحمل أي مظهر للفخامة لكنها كانت أنيقة في بساطتها، فقط حوائط بيضاء ملساء وسقف مقسم إلى مربعات كرقعة الشطرنج كلها بيضاء تحتل بعضها وحدات إضاءة أو تكييف وتتخللها بعض وحدات مستديرة صغيرة من نظام ما لم يدرك وقتها ما هو، ربما كان خاصًا بالإنذار ضد الحريق، لا تتسع الغرفة إلا لمكتب متوسط أمامه مقعدان بسيطان وخلفه حائط زجاجي بالكامل يظهر من خلفه منظر بانورامي للأبراج وخلفها الفيلات ثم البحر في نهاية المشهد، لا شيء هنا زائد عن الحاجة، لا شيء موجود بغرض البهرجة، هناك من الأشياء فقط ما يكفي لحاجة العمل، كان الرجل الأربعيني الأنيق جالسًا خلف مكتبه، طمأنه بابتسامة عريضة وإشارة من يده يطلب بها منه الجلوس على المقعد المقابل ثم قال له بلهجة ودود:

– أهلًا يا بطل، اتأخرت ليه؟ ماعرفتش توصل للعنوان علطول؟

(٩)

ديسمبر ٢٠١١

تزدحم ساحة الجامعة الفسيحة التي تقف في خلفيتها بشموخ تلك القُبَّة العريقة بساعتها الأشهر في صباح يوم دراسي شتوي مشمس بأعداد كبيرة من الطلبة من مختلف الكليات والطبقات والخلفيات الثقافية والاجتماعية والقناعات السياسية والدينية، وكأنهم نموذج مُصغَّر للشعب بأكمله، إلا أنه شعب مُفعم بالحيوية والشباب، جيل حالم يقف على أعتاب الحياة يتطلع إليها بأمل، العالم كله أمامهم، لا حدود لطموحهم ولا كابح لجموحهم، تختلط صيحاتهم بضحكاتهم ومزاحهم ونكاتهم البذيئة أغلب الوقت، تتوه همساتهم وسط نظراتهم المتبادلة، تتداخل نقاشاتهم وجدالاتهم وحواراتهم التي لا تتوقف، هذه هي المرحلة التي تكون لديك فيها الطاقة والحماسة للجدال حتى ما لا نهاية، الأفكار والمبادئ راديكالية قاطعة لا تعرف

المساومة، الأشياء إما بيضاء أو سوداء، إما خير أو شر، إما صواب أو خطأ، لا يقبل الإنسان في هذا العمر أي مواءمات أو حلول وسطية أو مناطق رمادية، لا يقبل إلا ما يقتنع به، ويتعصب لذلك حتى النخاع.

كانت جالسة كعادتها على السلالم الرخامية العريضة عند مدخل كلية الحقوق، ذلك البناء العريق الراسخ في الأرض بطرازه الكلاسيكي الذي يكاد ينطق بحكايات عن تاريخ حافل بالمجد والعظمة، تكاد تلمح من نوافذه الطويلة الشامخة وجوه الآباء المؤسسين، رواد التراث القانوني والدستوري لهذه البلاد وما حولها، من هنا بدؤوا، ومن هنا أناروا طريق العدل والحرية، جلست تنتظره كما اعتادا، لم يعد موعدهم اليومي في حاجة لاتفاق مسبق، صار من بديهيات الحياة اليومية لكليهما، من ينتهي من محاضراته أولًا ينتظر الآخر على السلالم الرخامية، يقضيان بعض الوقت معًا ثم يعودان معًا إلى الشارع الهادئ من الحي القديم حيث تسكن أسرتاهما منذ أجيال، تعود علاقتهما إلى ما قبل مولدهما وإلى ما قبل مولد أبويهما فقد كان جدّاهما جارين وصديقين منذ أن كان الحي الذي صار اليوم شعبيًّا وقديمًا مقصد طبقة الموظفين الحكوميين بعيدًا عن أحياء وسط المدينة الشعبية، تزوج كُلٌّ من الجدين، وأسَّسا عائلتين ظلتا مرتبطتين على مدار الأجيال حتى جاء هذا الشاب وهذه الفتاة التي تصغره بعامين والتحقا بنفس الكلية بعد سنوات

المدرسة التي ارتبطا فيها بعلاقة جيرة ومودة ازدهرت مع ازدهار مراهقتهما ليصبحا في حُكم المخطوبين، لم تعرف متى بالتحديد أحبته، لكنها أدركت أنها تحبه حين صارت تراه هو وحده بوضوح وسط وجوه ضبابية غير واضحة المعالم، كانت ترى الجميع وكأن عليهم غلالة من ضباب، وتراه هو وحده مشرقًا بكل تفاصيل وجهه، كانت أصوات العالم كلها تخفت في حضرته ويصدح صوته هو وحده واضحًا نقيًّا كأنما لا صوت في الكون غيره، كانت العلاقة بينهما في النور وبمباركة الأسرتين، إلا أن والد الفتاة فضَّل أن تتم الخطوبة الرسمية بعد تخرج الشاب على الأقل.

مرت علاقتهما بفترات صعبة كثيرة، ما بين فتور وتقلبات مزاجية صبيانية ورغبة في التمرد، إلا أنها تمر اليوم بأخطر منحنياتها على الإطلاق، صرح لها في الصباح وهما في الطريق إلى الجامعة بأنه قرر أن يهجر الدراسة ويرحل، لم يسمح لها الوقت بالحصول على تفاصيل إضافية، لكنها قررت ألا يمر اليوم دون أن تفهم ما في رأسه وتثنيه عنه، لم يعد متبقيًا له على التخرج إلا فصل دراسي واحد، ولن تسمح له بإهدار السنوات السابقة من أجل الخرافات التي ملأت رأسه مؤخرًا.

كانت هي في الواقع من فتح هذا الباب منذ سنوات قليلة، يوم أن اتصلت به هاتفيًّا لتبلغه بأن عليهما قطع علاقتهما فورًا وعدم التحدث بأي شكل،

استغرب هذا الحديث يومها وتساءل عن سر ذلك القرار المفاجئ، فقالت له إنها شاهدت على التلفزيون حلقة للداعية الشاب الذي كانت شهرته طاغية وقتها واقتنعت بأن علاقتهما حرام، وأنها لن تغضب ربها من أجله، حاول عبثًا أن يشرح لها بأن علاقتهما بريئة وبعلم أسرتيهما وأنهما لم يفعلا أي شيء محرم، لكنها كانت متشبعة بالفكرة حتى أعماقها، ولم تكن على استعداد لمناقشتها، بعد أيام من المقاطعة وبعد إلحاح منه ردت على اتصالاته المتكررة واشترطت عليه شرطين إن أراد استمرار علاقتهما، الأول أن يتقدم لخطبتها من والدها، والثاني أن يتوقف فورًا عن التدخين؛ لأنه حرام أيضًا، كما أرسلت إليه ببعض أُسطوانات لمحاضرات ذلك الداعية لكي يستمع إليها لعلها تهديه إلى الطريق المستقيم، وافق على طلبيها دون مناقشة، وذهب لوالدها في اليوم التالي، سمعت قهقهة والدها عالية من غرفة الصالون في ذلك المساء وهي واقفة خلف الباب تسترق السمع، كان الرجل يضحك من قلبه ويربت على كتف المراهق الذي كان في سنة دراسته الثانوية الأخيرة، أكد له الرجل أنه موافق على الخطوبة وأنه لن يجد لابنته من هو أفضل منه، لكن بعد أن يحصل على شهادة جامعية، كان ذلك هو شرطه وقبل الشاب الشرط وخرج سعيدًا، من يومها صارا مخطوبين عرفًا، عادت علاقتهما لسابق عهدها خاصة بعد أن حقق شرطها الثاني وأقلع عن التدخين لاقتناعه من خلال ما سمعه من

محاضرات الداعية بأنه حرام، صارا يواظبان معًا على حضور دروس ذلك الداعية ويتبعانه بين مختلف المساجد، صار حجابها وملابسها أكثر تحفظًا والتزم هو كذلك بصلاة الجماعة في المسجد، وانسحب بالتدريج من صحبة أصدقاء طفولته الذين كان يمارس معهم هواياته في عزف الموسيقى الغربية ومتابعة أحدث عروض السينما الأمريكية، بدأ ينخرط في دائرة جديدة من الصداقات تكوَّنت من خلال دروس ذلك الداعية، وحلقات تحفيظ القرآن في المسجد المجاور الذي تلقّاه فيه شباب جامعيون من ذوي اللحى الكبيرة وأقنعوه بالانضمام إلى حلقاتهم لدراسة "العلم الشرعي" كما قالوا له وقتها؛ لأنه أنفع له من القانون الوضعي الذي يدرسه في كلية الحقوق التي كان قد التحق بها، بدأ بمرور الوقت ينجذب إلى عالمهم ويهمل الدراسة، بل يبتعدُ عنها هي أيضًا، تبدَّل مظهره كذلك، فأطلقَ لحيته وصار يلبس الجلباب الأبيض القصير طوال الوقت حتى أنه حاول ذات مرة دخول الجامعة بذلك الجلباب فمنعه الحرس بخشونة، بدأ حديثه معها يتطرق إلى مواضيع الجهاد والهجرة إلى الله وإلى تحريم كل ما عاشا وعاش آباؤهما وأجدادهما عليه منذ الأزل، قال لها ذات يوم على ذات السلالم الرخامية عند مدخل كلية الحقوق وهو يكتم غيظًا عظيمًا:

– الواحد مابقاش عارف يعيش في وسط الكُفر ده كله!

نظرت إليه باستغراب شديد وتساءلت في دهشة:

- كُفر؟ فين الكفر ده؟

التفت إليها بحدة وقال مستنكرًا:

- فين الكفر ده؟ إنتي مش شايفة البنات لابسة إزاي؟ طب أنا ممكن أغض بصري دلوقتي، بس هعمل إيه في المواصلات وفي المحاضرات وفي الشارع وفي أي مكان؟

أجابت كما لو كانت تردد قطعة من المحفوظات بلا فهم:

- معاك حق هو فيه بنات مزوداها أوي فعلًا بس الأغلبية يعني محجبات الحمد لله وفيه منتقبات كتير كمان، يعني إحنا الأغلبية برضه.

ردَّ بنفس النبرة الاستنكارية:

- وهو ده اسمه حجاب برضه؟ ده ملوش أي علاقة بالزي الشرعي! أنا مش فاهم إزاي راجل يسيب بنته ولا أخته تنزل الشارع بالمنظر ده؟

ظلَّت على نفس النغمة، تريد فقط أن تهدئ من انفعاله:

- بس الأغلبية يعني ملتزمات الحمد لله وبعدين برضه أهي تعتبر محجبة أحسن ما تنزل سافرة.

كان يستشيط غضبًا وعلا صوته وهو يوجه لها نظرة متفحصة قائلًا:

– وانتي كمان إيه اللي انتي لابساه ده؟ ده زي شرعي؟ إزاي تنزلي من البيت بالمنظر ده؟ أنا ليا كلام تاني مع أبوكي.

لم تشعر وقتها بمقدار ما في كلامه من إهانة، ملأها على العكس شعور بالسعادة كونه يغار عليها، كانت قد غيَّرت بالفعل من طراز ملابسها، رغم أنها كانت محجبة من الأصل، توقفت عن ارتداء البنطلونات والألوان الزاهية نهائيًّا، توقفت عن وضع أي مساحيق للزينة، صارت كل ملابسها دكناء وفضفاضة، كانت تشتري المقاس الأكبر من مقاسها بدرجتين حتى بدت عليها الملابس الجديدة وكأنها استعارتها من دولاب أمها، احمرّ وجهها خجلًا وهمست في إحراج:

– آسفة، قولّي إيه اللي يريّحك وانا هعمله.

هدأت حدة غضبه مع هذه العبارة الأخيرة فاستدار إليها بارتياح وقال لها بنبرة فارغة من أي إحساس:

– يابنتي أنا مش بقولك اللي يريّحني، أنا بقول اللي يرضي ربنا واللي الشرع حدده، النهاردة بعد درس صلاة العشاء هعدي عليكي أسيب لك كتيب عن مواصفات الزي الشرعي، تقريه كويس وتنفذي اللي فيه بالحرف الواحد، أنا خايف عليكي من نار جهنم.

حضر أخيرًا، جاء مع صحبة من الطلبة الملتحين الذين لا تعرفهم وليسوا بالتأكيد من طلبة كلية الحقوق، فقد كان أحدهم يضع على كتفه معطفًا أبيض، وكان الآخران يمسكان بأدوات رسم هندسية كبيرة ولوحات ملفوفة، يرتدون جميعًا بنطلونات قصيرة بشكل ملحوظ، استأذن منهم فحيّوه، ثم نظروا ناحيتها بمزيج من الاستغراب والاستنكار، فلم تُعرهم أي انتباه، كان تركيزها معه هو وحده، كانت على وجهه نفس النظرة الجامدة التي ارتسمت عليه منذ شهور وثبتت على ذلك الوضع وكأنما أصبح وجهه وجه تمثال، وجهًا ميتًا بلا تعبير وبلا انفعالات، ألقى عليها سلامًا رسميًّا وجلس بجوارها في شرود، فسألته عن أصحابه لتفتح بابًا للحديث علّها تصل إلى ما تريد معرفته، قال باقتضاب:

– دول إخوة ملتزمين اتعرفت عليهم من مسجد هندسة.

ردت بمزيج من فضول ورجاء:

– طب إيه موضوع انك عايز تسيب الدراسة ده بقى؟

التفت إليها بنفس الوجه الجامد وقال في حسم:

– أنا مش هكمّل في دراسة ما يغضب الله.

كانت قد تعودت منه مؤخرًا على التشدد في كل شيء، وكانت تمقت التشدد، لكنها تخشى أن تغضبه، كما أنها كانت مقتنعة في أعماقها أنه على

الحق، وأنها لم تبلغ بعد ما بلغه من قوة الإيمان حتى يكون لها نفس يقينه وشدته في الحق، لكنها لم تفهمه حقًّا هذه المرة فبدا عليها الاندهاش الشديد عندما ردت عليه ببعض التحفز:

– كلية الحقوق تغضب الله؟ ليه هو احنا بنتعلم الرقص ولا بندرس عشان نبقى قضاه ونحمي حقوق الناس! القانون مهنة الناس المحترمة الشريفة!

ردَّ عليها بنفس الحسم وكأنما لم يسمع ما قالت أو تعمّد تجاهله:

– إحنا بندرس القانون الوضعي اللي عمله النصارى والكفار، هي مادة بس عن الشريعة وملهاش وزن جنب كل مواد الكفر اللي بندرسها، القانون اللي اعرفه هو قانون الله، بس البلد دي مصرة تحارب شرع الله!

كان هذا المنطق فوق احتمال عقلها، كان يضرب ثوابت عمرها وقناعاتها في الصميم، دارت رأسها من هول الفكرة، هل هذا الكلام صحيح؟ إنه يبدو منطقيًّا فهو محق في أن معظم ما يدرسونه يعود أصله للقانون الفرنسي، كل القوانين التي في هذه الكتب وضعها بشر فيما عدا بعض أحكام الشريعة المتعلقة بالمواريث والطلاق، لماذا حقًّا لا يدرسون قوانين الشريعة الإسلامية كاملة؟ ولماذا لا تطبق هذه الدولة شرع الله؟ قالت في ارتباكٍ شديد وقد تنازعتها مشاعر متضاربة ما بين المباغتة والاستنكار والرفض وعدم الفهم:

– طب مش يمكن الوضع يتغير بعد الثورة؟ مش الإخوان دلوقتي لهم شعبية وعندهم حزب ومفيش حاجة تمنعهم انهم يوصلوا للحكم؟

ردَّ في تأفف وبعض من نفاد الصبر:

– إخوان إيه بس وأحزاب إيه؟ ما هو كل ده كفر برضه، الأحزاب دي يعني ديمقراطية وبرلمان وكلام فارغ، يعني حكم البشر، شرع ربنا مش كده خالص! والأحزاب مش هتطبق الشرع.

كانت قدرتها على الاستيعاب قد انهارت بشكل تام ولم تعد قادرة على المجادلة لكنها قالت بحماسة كمن وجد مخرجًا:

– بس البرلمان دلوقتي أغلبيته إسلاميين، يعني هيعملوا دستور إسلامي ويقدروا يعيدوا النظر في القوانين الوضعية ويخلوها مطابقة للشريعة.

نظر إليها مستهزئًا كأنه يحدث طفلة ساذجة وأجاب باستنكار:

– المبدأ نفسه غلط، ربنا سبحانه وتعالى بيقول ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ماسمعتيش الآية دي قبل كده؟ الديمقراطية نفسها كفر لإن الحاكمية لله مش للبشر، مش ربنا قال "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ"؟ ولا قال إن الحكم إلا للبرلمان المنتخب؟ طب افرضي البرلمان ده، بلاش البرلمان ده، برلمان تاني بعد كام

سنة كان أغلبيته علمانيين ونصارى وعمل قانون يبيح الشذوذ ولا الزنا، إيه رأيك؟ يبقى كويس؟ يا بنتي اللي عايز يحكم بشرع الله مش هيستنى برلمان ومش هيستخدم النظم الكفرية دي، مفيش باطل بيوصل لحق.

قالت متسائلة في ضياع تام:

- يعني احنا نعمل إيه دلوقتي؟

أجاب في ثقة وثبات:

- أنا بدرس العلم الشرعي دلوقتي مع الإخوة في المسجد، بتعلم شرع الله الصحيح لحد ما ربنا يأذن لنا بالخطوة اللي بعد كده، أهو الواحد يتعلم حاجة تنفعه وتخدم الدين بدل الكفر اللي محاوطنا ده، ياريتك تيجي تحضري معانا، فيه درس للنساء كمان، تعالي النهاردة صلّي المغرب في المسجد واحضري الدرس لغاية صلاة العشا.

قالت في استسلام:

- حاضر.

ذهبت قبيل صلاة المغرب إلى ذلك المسجد الصغير الواقع أسفل إحدى العمارات الشاهقة التي بناها مقاول مُلتحٍ مكان بيت قديم كان لجيران لهم، ظهر ذلك المقاول الغريب عن المنطقة من حيث لا يدري أحد، سرت

إشاعات عدة عن مصدر أمواله الغزيرة، وهل هي حصيلة سنوات من العمل في السعودية أم هي أموال يديرها لحساب أشخاص آخرين في مقابل نسبة مئوية شهرية؟ لكن المؤكد أنه لم يكن يوقفه شيء، وكان نفوذه وعلاقاته في كل الجهات كفيلة بتذليل أي عقبة بخصوص ترخيص أو استثناء أو حتى مخالفة واضحة، أخذ ذلك المقاول يغري سكان البيوت القديمة الصغيرة لسنوات ويرفع لهم المقابل المادي حتى أخلوا له الكثير من البيوت التي كان منها بيت جيرانهم أولئك فاشتراه وهدمه وبنى تلك العمارة الشاهقة في زمن قياسي وخصص جزءًا من طابقها الأرضي كمسجد رغم أنه كان مصممًا ومرخصًا في الأصل كجراج للسيارات، منذ اليوم الأول وضحت سيطرة الملتحين السلفيين على المسجد وكثافة نشاطهم به تحت إشراف داعية سلفي نصف مشهور يظهر في بعض الفضائيات، ويشرف على حلقات دروس الفقه وتحفيظ القرآن في عدد من مساجد المنطقة، كان ذلك الداعية صديقًا شخصيًّا للمقاول، كان دائمًا ما يظهر معه ويبارك مشروعاته، كان يؤدي له بشكل غير مباشر دورًا دعائيًّا أفضل من أي إعلان تلفزيوني أو صحفي، كان الداعية كذلك يسكن طابقًا كاملًا من إحدى عمارات المقاول الجديدة المطلة على حدائق القصر الملكي العريق، سرت شائعات أخرى في الحي عن عدد زوجات الداعية اللاتي يسكنّ ذلك الطابق المرتفع المكون من أربع

شقق وهل هنّ نفس الزوجات أم أنهنّ يتغيرن كل فترة؟ كانت نساء كثيرات يصعدن إلى ذلك الطابق باستمرار لكنه يصعب التعرف عليهنّ أو تمييزهنّ بسبب النقاب والعباءات السوداء المتطابقة التي يرتدينها جميعهنّ، ظلّ الأمر في نطاق الشائعات ولم يعرف أحد قط الحقيقة الأكيدة.

كان المسجد صغيرًا لكنه مقسّم إلى جزء أمامي مخصص للرجال يمثل ثلاثة أرباع المساحة وفيه محراب فقير خال من أي لمسة جمال، ومنبر صغير يعلو لدرجتين فقط، فلم يكن انخفاض مستوى السقف يسمح بأكثر من ذلك، وجزء خلفي بباب مستقلٍّ يمثل ربع المساحة فقط ويضيق بالمصليات الكثيرات، لسبب لم تعرفه كانت رائدات المسجد من النساء أكثر من رواده من الرجال، كانت تفصل بين الجزءين ستارة خفيفة تسمح للنساء برؤية قسم الرجال بصورة ضبابية بعض الشيء إذا اقتربن منها بينما لا تسمح بالعكس إذ لم يكن من اللائق أن يقترب الرجال من الستارة ليحدقوا إلى قسم النساء، كان المسجد مفروشًا بالكامل بموكيت أخضر لا يحمل أي نقش، وكانت حوائطه فارغة ومطلية بدهان سماوي حائل وسقفه منخفض كما يليق بجراج للسيارات، لم يكن يشبه من قريب أو بعيد ذلك المسجد الأثري الكبير القريب من شارعهم والذي كانت تحب الذهاب إليه لصلاة العيد مع والدها وهي طفلة، كان ضخمًا راسخ البناء، ذا فناء واسع، كانت تمرح فيه مع نور الشمس

وتيارات الهواء، وكان يتوسطه ميضأة رخامية بديعة، كانت مآذنه مرتفعة وكان منبره ومحرابه يحفلان بزخارف هندسية مشغولة بدقة بالغة من الخشب والرخام، كما كانت تزين سقفه الشاهق وجدرانه العالية زخارف غنية وآيات قرآنية تطوّقها بالكامل كأنها تحفّ المصلين بكلمات الله؛ لتَهَبَ لهم السكينة والسلام، وتغطي أرضيته الرخامية حُصُر يدوية من خوص النخيل الطبيعي الذي لم تفارقه رائحة الأرض الخصبة، كان جو ذلك المسجد يبعث على البهجة ويريح القلب، لم يفارقها قط مشهد المصلين المصطفين في أروقة المسجد وفنائه الكبير يرددون تكبيرات العيد وسط نسمات صباح صيفي لطيفة وضوء نهار لم يسطع بعد.

بعد الصلاة التي أمّها شابٌّ مراهق يقلد صوت أحد قراء الخليج المشهورين بشيء من الافتعال بدأ الدرس الذي كان عن نظام الحكم في الإسلام، وشرح فيه المحاضر – الذي كان شابًّا سلفيًّا عرفت من جاراتها في الصف أنه طالب بكلية الطب – مفهوم أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم البيعة للخليفة على حد قوله، أو بالأحرى على حد استشهاده بكتب تراثية للماوردي والنيسابوري وغيرهما، لم يقنعها ما كان يقرؤه الشاب من كتاب أمامه، ولا ما كان يرتجله من شروحات متهافتة على ما يقرأ، انتبهتْ لحظةً إلى عبثية الموقف كله، فهي – طالبة القانون التي درست أساسياته ونظرياته

ومصطلحاته وشروحاته سنواتٍ – تجلس في صفٍّ خلفي لتتابع من خلف ستار طالب طب في مثل عمرها تقريبًا، ولعلّه لا يعرف الفرق بين أبسط مصطلحات القانون، ليلقّنها عكس ما درسته على أيدي كبار الأساتذة، يتلو عليها بصوت مرتفع مقاطع ربما لا يدرك معناها من كتب قديمة مات مؤلفوها منذ ألف سنة بينما تدرس هي نفس الموضوع من أمهات كتب القانون الدستوري التي كتبها الرواد الذين وضعوا دساتير الدول العظمى، ويمكنها هي أن تشرح له ولهؤلاء جميعًا مدى تهافُت منطق ذلك الشاب وانقضاء صلاحية مصطلحاته المتحفية، لكنها استعادت كلام خطيبها المفترض، وأجبرت نفسها على التسليم بأن إيمانها ربما لم يصل بعد للدرجة الكافية حتى تسلّم بأحكام شرع الله.

دخل موعد صلاة العشاء فانتهى الدرس ثم أُقيمت الصلاة، بعد الصلاة طلبت منهن إحدى الأخوات أن تنتظرن لأن الإخوة في قسم الرجال سيقدمون عرضًا تعبيريًّا يحضّرونه منذ أيام، تعجبت بشدة من أن يكون لهؤلاء الشباب أية علاقة بالفنون التعبيرية، هل سيقدمون عرضًا مسرحيًّا مثلًا؟ أغراها الفضول بالانتظار فجلست بالقرب من الستارة لتشاهد ما سيقدمون.

دخل أربعة من الشباب يحملون صندوقًا مستطيلًا مغطى بقماش حريري أخضر، وضعوا الصندوق في الجزء الأمامي من المسجد ثم بدؤوا يضبطون

مكبرات الصوت، كانوا قد اعتادوا في الشهور الأخيرة على إذاعة كل ما يدور في المسجد من صلوات أو دروس أو حلقات تحفيظ قرآن عبر مكبرات الصوت غير عابئين باحتجاج بعض سكان البيوت المجاورة ومطالبتهم ببعض الهدوء للراحة أو التركيز في المذاكرة أو حتى من أجل الهدوء بحد ذاته، حدثت مشادة بين رجل من الجيران وأحد الشباب ممن يديرون المسجد قبل أسابيع عندما جاء الجار وطلب إغلاق مكبر الصوت وقت الدروس؛ لأن الصوت يمنعه من التركيز فيما يفعله، وقف الشابُّ الأصغر منه بما لا يقلُّ عن عشرين عامًا في مواجهته بصلف وقال بمزيج من الاستهانة والتهكم:

– وحضرتك كنت بتعمل إيه بقى والدرس بتاع تفسير كتاب الله عطّلك عنه؟

أدرك الرجل أنه يواجه مراهقًا نزقًا مزهوًا بما يعتقد أنه سلطة منحته إياها لحيته حديثة الإنبات التي لم تغطِ كامل ذقنه بعد، فقرر أن يهاجم لا أن يدافع، فقال بنبرة متحدية:

– كنت بتفرج على فيلم ومش سامع حاجة من صوت الميكروفون بتاعكم.

ضحك الشاب ربما من وقع مباغتة ذلك الرد غير المتوقع، وربما لأنه ظن أنه قد أوقع بالفريسة في الشرك وتبقى له فقط الإجهاز عليها فتعمد رفع صوته ليسمعه من لم يكن منتبهًا بعد من سكان الشارع:

– ما شاء الله ما شاء الله! حضرتك عايزنا نسكّت صوت درس التفسير عشان تعرف تتفرج على الرقاصة اللي في الفيلم؟

ظَلَّ الرجل على نبرته المتحدية وقال بثبات:

– أيوه، إنت مالك؟

سادت لحظة صمت ولم يعرف الشاب ما يقول فأردف الرجل في هدوء ونفاد صبر:

– وجيت أقولك بالذوق، لكن لو ركبت دماغك هطلب لك البوليس.

هنا هاجَ الشاب وسيطر عليه تهوُّره الصبياني فأخذ يصيح:

– بوليس مين يا عم؟ إنت فاكرها زي زمان؟ انت مش واخد بالك مين بيحكم البلد دلوقتي؟ إيه هتطلب لي أمن الدولة؟ خلاص الأيام دي راحت، الحكم دلوقتي بقى لله وبشرع الله.

تركه الرجل يصيح والتفّ عائدًا إلى بيته بعد أن تجمع أهالي الشارع وحاولوا تهدئة التوتر مؤكدين على حق الرجل في أن ينعم ببعض الهدوء في بيته، ومؤَمنين في نفس الوقت على أن دروس المسجد نافعة للناس في آخرتهم وجالبة للبركة على الشارع، وعلى أن كلام الله يشرح الصدور ويريح القلوب العليلة، كان موقف الأهالي ملتبسًا كالعادة، لا هم مع هذا ولا مع ذاك، كانوا

يريدون فقط وأد تلك المشاجرة المحتملة قبل أن تولد، ويفعلون ذلك فقط بأن يهرفوا بجمل بديهية محفوظة لا معنى لها، بل يضاد بعضها البعض بدلًا من أن يتخذوا موقفًا حقيقيًّا.

اصطف ثلاثة من الشباب الملتحين أمام مكبرات الصوت وجلس الباقون حول الصندوق المستطيل، أطفؤوا أنوار المسجد تاركين إضاءة ضعيفة تكفي بالكاد لرؤية اجسادهم كما لو كانت أشباحًا، بدؤوا بتلاوة آيات تُقرأ عادة في المآتم، ثم مثّلوا كما لو كانوا يحملون الصندوق المستطيل كنعشٍ ثم يدفنونه، ثم وجهوا كشافًا ضوئيًّا صغيرًا على الصندوق فانفتح ببطء ونهض من داخله شاب مكفّن بالكامل، كان بقية الشباب يصدرون بحناجرهم أصواتًا تمثل الموسيقى التصويرية المصاحبة لذلك المشهد الجنائزي المقبض، قام الشاب المكفن يمثل كأنه يواجه حساب الملكين وظلمة القبر ثم يتألم من العذاب ويبكي على الذنوب التي اقترفها في حياته، وكانت تلك الذنوب تنحصر في التدخين وسماع الموسيقى وتأخير الصلوات عن مواقيتها بينما تتعالى أصوات من يقومون على سبيل المجاز بالموسيقى التصويرية التي تحولت إلى صيحات وحشرجات منفرة، كان المشهد مقبضًا وخاليًا من أي معالجة فنية، كان محض ترهيب صِرف، لم تستطع مواصلة متابعة ذلك العرض المسرحي المفترض بعد أن انقبض قلبها وضاق صدرها فخرجت مسرعة لتستنشق الهواء، ولم تعد قط.

كانت الأيام التالية حاسمة بالنسبة لها، قررتْ منذ غادرت ذلك المسجد أن تُعيد تقييم الوضع بأكمله، وأن تجمع شتات أفكارها التي تتنازعها اتجاهات متضادة، قررت أن تنحي جانبًا كل أفكارها المسبقة وكل التأثيرات الخارجية وأن تُحكم عقلها فقط، فكرت في جدوى دراسة القانون في الجامعة والعلم الشرعي في المسجد، وفكرت فيما تلقته من دروس الداعية الشاب، وما كانت تسمعه من أفكار خطيبها ورفاقه، فكرت فيما تريد أن تفعله في مستقبلها وما تريده للمجتمع من حولها وللبلد بأكملها، في شكل العالم الذي تريد أن يولد فيه أطفالها، في جدوى حياتها وماهية دورها في هذا العالم، في الدروس التي تعلمتها من معاناة والديها وجدّيها في حياتهم التي عاشوها في نفس البيت، في تغيرات الزمن وتبدل الأعراف واختلاف تعريف الأشياء نفسها عبر الزمان والمكان، في مفهوم القدر وهل الإنسان مسيّر أم مخيّر، في التمييز بين الخير والشر وبين البر والإثم وبين الحق والباطل، أعادت تعريف كل الأشياء كما لو كانت تنزل للتوِّ من بطن أمها وتتعرف إلى العالم للوهلة الأولى، دون أي اعتبارات مسبقة.

كان ملاذها الأخير عندئذٍ هو والدها، الموظف الحكومي كبير المنصب قليل الدخل، الرجل الشريف الذي لم يتكسب من وظيفته طوال تلك السنوات رغم عمله في جهة يتكسب منها الجميع دون أن يشعروا بأي

غضاضة، كان الجميع يعتبرون الوظيفة في ذلك المرفق الحكومي الحيوي فرصة لتكوين ثروة دون أن يتوقفوا كثيرًا أمام جدليات الحلال والحرام، حتى من كان له رادع من دين أو أخلاق في بداية تعيينه لم يستطع الصمود طويلًا أمام إغراء المال السهل، كان كل من حوله يختلقون له المبررات والمسوغات الأخلاقية – بل الدينية – لاستحلال ما لا يحل له، إلا أنه ظلَّ على مبادئه وثوابت تربيته منذ الصغر فظل يعيش حياة الموظفين الضيقة حتى قارب على سن المعاش.

لجأت إلى والدها وصارحته بشكوكها وتساؤلاتها، ألقت بين يديه كل ما يتصارع بداخلها من أفكار، سألته: ماذا يريد الله منا؟ ما الذي يرضيه وما الذي يغضبه؟ هل هو ودود غفور أم منتقم جبار؟ هل العبرة بالمظهر أم بالمخبر؟ بالطقوس أم بما وقر في القلب؟ هل يهتم الله أكثر بصلاتنا وصيامنا أم بالتطبيق الفعلي للدين في سلوكنا ومعاملتنا لبعضنا العض؟ كان والدها شديد الفرح بلجوئها المتأخر إليه، كان يعلم أنها ستأتي إليه حتمًا لكنها تأخرت بعض الشيء، فهو من ربّاها وغرس فيها المبادئ التي ورثها عن أبيه وجده الذين كانا شيخين أزهريين، كان يتابع تخبطها وانبهارها بهؤلاء الدعاة الجدد ذوي الملابس العصرية والأسلوب شديد الإقناع بالغ الخواء من أي قيمة، كان يعرف أنهم يروون محض أكاذيب، يجمّلون التاريخ وينتقون منه فقط ما

يدعم توجهاتهم وما يسعون إلى غرسه في عقول جمهورهم من حديثي العهد بهذه الأمور، جمهور اليوم الذي لا يقرأ وليس في عقله رصيد من الثقافة والتفكير المنطقي يكفي لتفنيد الخرافات، ليست لهم عقليات نقدية قادرة على تمييز الأسطورة من الحقيقة، لذلك انقادوا خلف أول من وجه لهم خطابًا يحمل الأمل، انبهروا بمن زيّن لهم الماضي وصوّره في أذهانهم بأنه العصر الذهبي لكل شيء، ذلك العصر المخملي حين كان أمير المؤمنين يضطجع في قصره على ضفاف نهر دجلة ويخاطب السحابة المارة فوقه قائلا: "أمطري حيث شئتِ فسوف يأتيني خراجك"، وحين كانت خزائن بيت المال تضيق بالخراج ولم يعد في المدينة فقير فيأمر الخليفة بشراء الحَبِّ ونثره على رؤوس الجبال حتى لا يُقال جاع طير في بلاد المسلمين، لم يَقُل لهم هؤلاء الدعاة من أين جاءت كل تلك الأموال وكيف كان حال البلدان التي يأتي منها الخراج، هل كانوا ينثرون القمح على رؤوس جبال الشام وخراسان ومصر والمغرب كذلك؟ هل خلت أصفهان وصنعاء والقيروان من الفقراء كما خلت منهم عاصمة الخلافة؟ كم من أبناء تلك البلاد قتلته جيوش الخليفة؟ وكم من المسلمين قُتلوا في حروب بين المسلمين؟ وكم مرة استعان حكام مسلمون بأعداء غير مسلمين على أعداء مسلمين؟ هل قالوا لهم كيف اضُّطهد علماء المسلمين الذين يتشدقون اليوم بإنجازاتهم العلمية وحوربوا في علمهم

وفي عقيدتهم؟ هل حكوا لهم كيف مات ابن حنبل وأبو حنيفة والبخاري والحلاج والطبري وابن رشد؟ هل فسروا لهم لماذا لم يدخل الصرب والبلغار والكروات والقبارصة في الإسلام رغم خضوع بلادهم لحكم الخلافة العثمانية لمئات السنين؟ كان يعلم أنها ستفيق من تلك الترهات وستأتي إليه بتساؤلاتها يومًا ما، وكان مستعدًّا لذلك اليوم، قال لها:

– شوفي، ملخص الإشكالية دي كلها في مقولة منسوبة للإمام علي، وفيه ناس بتنسبها لسيدنا الحسين، المقولة دي بتقول: "إن قومًا عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قومًا عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار"، والإمام علي برضه قال: "إلهي ما عبدتك خوفًا من عقابك ولا طمعًا في ثوابك ولكني وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك"، خلينا بقى مانتعاملش مع الله بطريقة التجار، العلاقة بين العبد وربه مايصحش تخضع لحسابات الورقة والقلم ولا لنظريات المحاسبة التجارية وإلا هنبقى وقعنا في ورطة كبيرة بتمس صلب العقيدة نفسها، لإن بنفس المنطق ده تجار المخدرات بيروحوا الحج كل سنة عشان يرجعوا كما ولدتهم أمهاتهم، وبعدين يرجعوا يتاجروا في المخدرات تاني لغاية معاد الحج السنة اللي بعدها وهكذا، ده اللي بيحصل لما نتعامل مع ربنا بالآلة الحاسبة، ده هيوصلك لتصوّر أنك ممكن ترشي الخالق سبحانه وتعالى – حاشا لله طبعًا

– بشوية طقوس وأعمال خير تغطي بيها على رصيد سيئاتك وتطلعي كسبانة بمفهوم السوق، أنا بشوف ان التعامل مع كلمات الله سبحانه وتعالى وحساب الحسنات والسيئات ماينفعش يبقى بطريقة كشف الإيرادات والمصروفات، ده أسلوب سوبر ماركت يا بنتي، لا يليق مع الخالق عز وجل، دي طريقة تعاملنا إحنا البشر اللي كلنا أطماع وأعباء دنيوية مع بعضنا، لكن ده لا يليق بالتعامل مع الرحمن الرحيم الودود الرؤوف الحليم الكريم، ربنا اللي كتب على نفسه الرحمة، إنتي مقدرة عظمة التعبير القرآني البديع ده؟ ربك مش بس وعد بالرحمة أو تعهد بيها – ومن أوفى بعهده من الله – لأ ده كتبها على نفسه، يعني الرحمة بقت فرض على الله عز وجل، فرضها على نفسه وهيلتزم بيها، ربك الرحمن الرحيم هيرحم عباده، مش عشان احنا نستحق، لكن عشان هو كتب على نفسه الرحمة.

كانت عيناها تلمعان وهي تنصت إليه بكل جوارحها، كانت تجد في حديثه البسيط أجوبة بسيطة لتساؤلات قضت أيامًا تدرس مناقشاتها في كتب الفقه وفي دروس الشيوخ، هزت رأسها بابتسامة لتشجعه على الاسترسال فأكمل:

– هقولك على نقطة تانية مهمة، أنا عمري ما بستوعب إزاي الناس بتفهم الأحاديث النبوية اللي بتتكلم عن إن ثواب قراءة سورة كذا هو قيمة

كذا من الحسنات، ده لو الأحاديث دي صحيحة أصلًا، وعمري ما حسبت أبدًا على الآلة الحاسبة حصيلة الحسنات اللي المفترض أكون أخدتها بقراءة جزء من القرآن بطريقة الحرف بحسنة والحسنة بعشر أمثالها وهكذا، طول عمري فاهم ان الفكرة هنا هي إن فضل قراءة القرآن عظيم وبس، فضل التدبر، فضل الهداية، فضل البركة، عمرها ما تتحسب بالأرقام.

دمعت عيناها من هذه الفكرة أيضًا، كانت تحل إشكالية كبيرة عندها، أومأت برأسها مرة أخرى كعلامة على الفهم، فأكمل الرجل بسعادة غامرة بعد أن أدرك أنه نجح:

– يعني النبي ﷺ كان بيعاتب الناس اللي بترفع صوتها في الدعاء ويقولهم: "إربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم"، يبقى أنا كمان ممكن اقول للي مشغولين بإحصاء عدد الحسنات إنكم لا تعبدون تاجرًا ولكن تعبدون "الكريم"! ربنا عز وجل بيقول في الحديث القدسي "إذا تقرب عبدي إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولة"، وقال عن نفسه لمّا يحب عبد من عباده: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه"، تقدري

تترجمي ده لأرقام تسجليها في دفتر؟ يسوى كام إن ربنا عز وجل يكون سمعك وبصرك؟ شوفي يا بنتي، واحد من الصحابة سأل النبي: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: "قُل آمنت بالله ثم استقم"، ودي بقى خلاصة الكلام، الإيمان بالله اللي هو التوحيد وبعدين الاستقامة في معاملتك مع الله ومع البشر، اعملي كده وماتخافيش من حاجة ولا تحسبي حسابات ولا ترهقي نفسك بتفسيرات حرفية مفيش نهاية لتفاصيلها ومفيش مخرج من دايرتها، اعبدي الله بإخلاص وراقبيه في السر والعلن وكوني على يقين إنه مش هيضيّعك، ربك بيقول: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

بعد ذلك التاريخ بأشهر قليلة كانت علاقتها بخطيبها قد فترت كثيرًا، لم يعد صوت العالم يخفت حين يتحدث، بل صار صوته يختلط بالأصوات المتداخلة من حوله ويزيدها ضجيجًا، بدأت للمرة الأولى تلحظ تلك النبرة المزعجة المنفرة في صوته، وصارت ترى صورته متداخلة مع صور باقي البشر، بل صارت تراهم من خلاله في بعض الأحيان كما لو كان شفافًا، كان هو ورفاقه يطوفون على المحلات في شارعهم الصغير يمارسون "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كما يرونه فيعنّفون صاحب معرض الملابس النسائية على ما يعرضه من ملابس مكشوفة ويحذرون الصيدلي من حرمة

بيع مستحضرات التجميل ووسائل تنظيم النسل، ثم تطور الأمر إلى حَدِّ استيقاف بعض الجيران لنصحه – فيما يشبه التهديد – بخصوص ملابس ابنته أو زوجته، أما المواسم التي كانوا يبلغون فيها ذروة نشاطهم فهي كل مناسبة يحتفل بها الناس، دينية كانت أو اجتماعية أو حتى شخصية، يحذرون بشكل جهري يحمل بعض التهديد من الاحتفال بعيد الحب أو عيد الأم أو المولد النبوي أو شم النسيم، وكان للتحذير من أي مظاهر احتفال أو تهنئة بأعياد المسيحيين خاصة ترتيبات أكبر تسبق كل مناسبة مسيحية بوقت غير قليل، كانوا يتجاهلون السكان المسيحيين بشكل ملحوظ كما لو كانوا لا يعتبرونهم من سكان الشارع أو من المستحقين للنصح، أو ربما لأغراض أخرى، لكنهم كانوا في بعض الأحيان يرسلون إليهم برسائل ضمنية غير مباشرة عبر تعليق لافتات قماشية أو تنظيم مسيرات يحمل ظاهرها طمأنة المسيحيين بمستقبلهم تحت "حكم الإسلام" القادم، لكن ذلك لم يكن يُفضي إلا إلى زيادة التوتر والقلق، في إحدى المسيرات الكبيرة المؤيدة للمرشح السلفي لرئاسة الجمهورية كانت الهتافات تقول:

– يا نصراني يا نصراني.. النبي عليك وصّاني..

كانت تتابع هذه المسيرة التي اشترك فيها خطيبها ورفاقه رغم علمها بأنهم جميعًا غير مؤمنين بجدوى الديمقراطية، كان قد لمّح لها بأن هذه هي

الفرصة الأخيرة التي سيمنحها لهذا المجتمع، فإن قبل بمرشحهم الذي وعد بالحكم بشرع الله فسيلغي هذا النظام الكفري – على حد قوله – قبل أن يبيت ليلته الأولى في القصر الجمهوري ويعلن أن الحكم أصبح لله وحده لا شريك له وليس لأحزاب ولا برلمانات، وإن أبى المجتمع إلا أن يظل على الكفر فسيهجرهم هو ورفاقه إلى أرض الله الواسعة، كانت تشاهد المسيرة من شرفة منزلها فلمحت جارتها وزميلة دراستها المسيحية تحدق إليهم وهي ساهمة وكأنها في عالم آخر، نادت عليها فلم تجب، أو ربما لم تسمع، كانت ساكنة كالموتى.

بعد شهور قليلة من ذلك اليوم شهدت مرة أخرى صدمةً مشابهةً على وجه نفس الجارة حين كانتا تستقلان معًا سيارة أم الجارة في الطريق لشراء بعض الأقمشة للجارة الشابة التي كانت تستعد للزواج، كانت الليلة الأخيرة قبل الانتخابات الرئاسية في جولتها الأولى وقد دفعت الجماعة المستميتة على كرسي السلطة بكل أعضائها بزوجاتهم وأبنائهم وبناتهم وأطفالهم إلى الاصطفاف في سلاسل بشرية على الشوارع الرئيسية في محاولة أخيرة لإثبات تفوقها العددي وقدرتها على الحشد التي كانت ثقة العامة فيها قد تآكلت بعض الشيء، كانت أعدادهم ضخمة كما لم تكن من قبل، كانوا يلقون بكل أوراقهم في اللحظة الأخيرة، كانوا جميعًا ممسكين بنفس المنشور

الدعائي الذي يحمل صورة مرشح جماعتهم ذي اللحية القصيرة والنظارة الطبية والابتسامة السمجة بجانب رمز الميزان على خلفية حمراء قانية، كانوا صامتين فلم يهتفوا بأي شعار ولم يفتحوا أي حوار مع المارة، كانت الرسالة التي أرادوا إيصالها للجميع واضحة، نحن كثيرون، نحن جادّون، نحن لن نفرط في هذه الفرصة، كانت الشوارع مزدحمة وكانت سيارتهم تتحرك ببطء شديد في الحارة اليسرى من الطريق ذي الاتجاهين ملاصقة للجزيرة الوسطى الفاصلة والتي اصطف عليها أعضاء الجماعة على مرمى البصر في سلسلة لا نهائية، كانت صديقتها جالسة في المقعد الخلفي وراء أمها التي كانت تقود السيارة، كانتا ملاصقتين تمامًا للسلسلة البشرية التي عمد أعضاؤها مع بطء حركة السيارات وملاحظتهم للصليب الخشبي الكبير المعلق على مرآة السيارة الأمامية إلى التلويح بصورة مرشحهم وتقريبها من نوافذ السيارة دون أن يتفوهوا بأي كلمة، يومها رأت نفس النظرة المتخشبة على وجهي الجارة الشابة وأمها وهما محدقتان في الفراغ أمامهما وكأنهما تهربان من وجه الرجل ذي اللحية القصيرة والابتسامة السمجة المطل بالحجم الطبيعي خلف زجاج السيارة المغلق، لم تعلق أي منهنّ على ذلك الموقف ولم تشح أي منهنّ بوجهها عن الأمام حتى وصلن لوجهتهن.

كان قد حسم أمره قبل ذلك بشهور وقرر الرحيل بعد أن أيقن أن هذا المجتمع الكافر – على حد تعبيره – يرفض حكم الله ويصر على غيّه وضلاله،

كان لقاؤهما الأخير خارج الجامعة لأنه لم يعد يرتادها، ولم يعد يغير جلبابه الأبيض القصير الذي زاد عليه غطاء للرأس ذا نقشة دقيقة متكررة من اللونين الأبيض والأحمر كالذي كانت تشاهده على رؤوس السائحين الخليجيين في شوارع القاهرة، التقيا في الحديقة الكبيرة الملاصقة للجامعة وكان منظرهما مثيرًا لفضول روادها، صرح لها بأنه نوى الهجرة، كانت قد تخلت عن الجدل معه منذ فترة ولم تعد تقنعها آراؤه، ولم تعد تطيق جمود تفكيره وعدم قبوله للمناقشة، كان يعتبر كل حرف ينطق به حقيقة قاطعة لا تقبل الشك، كيف لا وهو لا يتحدث إلا من الكتاب والسنة ولا ينطق إلا وحيًا مُنزَّلًا؟ لكنها كانت باقية على بعض الود، كانت تشفق عليه من المصير المحتوم الذي يسعى إليه جاهدًا، سألته:

- ليه؟

رد بهدوء وثبات كما لو كان آلة تسجيل:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ردَّت بنفس الهدوء:

- وانت مستضعف في الأرض ليه؟ ما الإخوان هيحكموا وهيطبقوا الشرع!

ردَّ بنفس النبرة الفارغة من أي تعبير:

- ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾.

لم تستطع إخفاء استنكارها هذه المرة فسألته بحنق واضح:

- والقرية الظالم أهلها دي مصر يعني؟ مش أهلها دول هما أبويا وأبوك وأهلنا واصحابنا واحنا نفسنا؟

أجاب وهو يحدق إلى الفراغ:

- كل المجتمع كافر، المجتمع اللي يرفض شرع الله ويفضل عليه شريعة الكفر ما ينفعش أعيش فيه يوم واحد، الدولة اللي تحكم بغير ما أنزل الله كافرة، وأبويا وأبوكي دول موظفين عند الدولة الكافرة، يعني المرتبات اللي بيقبضوها فلوس حرام، الدولة بتجيب الفلوس دي من حرام، ضرايب على الخمور والمراقص وتجارة مع اليهود وموالاة للكفار ومعونات من الدول الصليبية، وفي الآخر أهالينا يصرفوا علينا من فلوس حرام، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به.

تنهدت في يأس وكأنما تنفث عن صدرها هذا الكلام وسألت في نفاد صبر:

- يعني هتروح فين؟ ومع مين؟

أجاب بفتور:

– أنا مهاجر في أرض الله الواسعة، هروح عند إخوان مجاهدين، مقدرش اقولك تفاصيل دلوقتي لإن الموضوع مايخصنيش لوحدي وفيه إخوان ممكن يتضروا لو حد عرف أي تفاصيل، لكن لما استقر في مكان هابلغك.

ردَّت باقتضاب وهي تنهض مستعدة للمغادرة:

– طيب، ربنا يوفقك.

***

كانت جالسة في سيارة الميكروباص المتهالكة بفعل كثافة الاستخدام رغم حداثة طرازها النسبي، والتي كانت تتحرك ببطء وسط زحام شديد، كانت تتصفح حسابها على فيسبوك، تفحصت حسابًا غريبًا بعث لها بطلب للإضافة، كان هو، حساب جديد له، ربما الثامن أو التاسع في غضون شهرين، كان كلما فتح حسابًا جديدًا يختفي فجأة ودون سابق إنذار ثم لا يمر يومان قبل أن تجده يطلب الإضافة من حساب جديد، وفي كل مرة كانت تقرر أنها لن تقبل الإضافة وستقوم بحظر الحساب الجديد، لكن الفضول يكاد يقتلها في كل مرة، لا تعرف تحديدًا إن كان ذلك فضولًا أو غير ذلك، لكنها كانت تقبل الإضافة في كل مرة وتطالع الحساب لتشاهد ما ينشره، قال لها إنه

يغلق الحسابات بنفسه كل فترة ليتفادى تعقب الأجهزة الأمنية، كان حسابه يضم بعض الصور في مناطق سكنية مهدمة لا تعرفها ولا تشبه أي مكان في مصر، تغيَّر شكله تمامًا، وأصبح أشبه بممثلي أفلام الحروب التاريخية، طالت لحيته أكثر وانسدل شعر رأسه حتى لامس كتفيه ولاحت على وجهه وذراعيه سُمرة شديدة، يظهر في الصور مع رفاق غريبي الهيئة والملامح، لا يبدو أيهم مصريًّا أو حتى عربيًّا وإنما كانوا ذوي عيون ضيقة وبشرة فاتحة شاحبة وشعور بنية ناعمة طويلة، كانت ملابس الجميع متشابهة ولم يكن السلاح يفارق أيًّا منهم، حتى صورته التعريفية التي اختارها للحساب كان يظهر فيها ممتطيًا حصانًا ذا لون بني غامق يقبض على سرجه بيده اليسرى، بينما يرفع اليمنى في الهواء ملوّحًا بسيف كبير تلمع الشمس على نصله الملطخ بلون أحمر قانٍ لعله أثر دم، وتلوح من خلفه خرائب غير واضحة المعالم، مجرد مبانٍ مُهدَّمة خاوية وبعض الأشخاص الملثمين ورايات سوداء كبيرة كتبت عليها الشهادتان بخط أبيض مزخرف، لم تكن تفهم كل ما يكتبه في حسابه من مصطلحات تراثية لكنه لم يخرج كثيرًا عن التهديد والوعيد وآيات القتال والحرب والجزية، أما ما كان يخلع قلبها ويجعلها على حافة التقيؤ في كل مرة فهي مشاهد الذبح والرؤوس المقطوعة، كان في حسابه الأخير هذا صورة جديدة منشورة بتاريخ الأمس يظهر هو فيها ممسكًا برأس آدمي مقطوع لم

يزل الدم يسيل من أسفله، وفي يده اليمنى السيف ذاته، وقد تخضّب نصله بالكامل بدم القتيل الذي كان حليق الرأس، وكانت عيناه جاحظتين في رعب واضح، كان القتيل يبدو صغيرًا، ربما في مثل عمرها أو أصغر، كتب تعليقًا مقتضبًا على الصورة يهدد فيه بأن هذا هو رابع جندي يقطع رأسه وأن ذلك جزاء كل جنود جيش المرتدين المحاربين لله ولرسوله، كانت الدموع متحجرة في عينيها، جاهدت نفسها كثيرًا لكيلا تبكي وسط هؤلاء الأغراب، كانت مذهولة كما لو أنها تشاهد أحد أفلام الحروب بين القبائل البدائية التي لم تكن تحبها لكثرة مشاهد القتل فيها، إلا أن القتل بات الآن حقيقيًّا وليس مجرد فيلم سينمائي، بات يحيط بها لدرجة أنها شعرت بأنها هي ذاتها مسئولة عنه، لو استطاعت منعه من الرحيل لربما كان هذا الجندي المراهق الآن يتسامر مع أقرانه في معسكر ما، لو أنها أبلغت عنه الشرطة أو حتى أفصحت لأبيها أو أبيه عن نواياه التي كانت تعرفها بالحدس رغم عدم تصريحه بها لربما كانت قد أنقذت أرواح الجنود الأربعة الذين لا تعرفهم ولا تعرف إلى أي جيش ينتمون لكنها صارت تعرف أنهم الآن قتلى، كانت عاجزة ومحطمة وغاضبة إلى أقصى الحدود، ظل يبعث إليها برسائل عبر فيسبوك بين الحين والآخر لا يذكر فيها أي معلومات عن موقعه، بعث هذه المرة برسالة لم تكن متحمسة لقراءتها لكنها فتحتها لعلها تهتدي إلى أي خيط يوصلها إليه، ستبلغ عنه هذه

المرة لتمنعه من سفك المزيد من الدم، لن تفصح عن هويتها، ستبعث بما تعرفه من معلومات للشرطة أو إلى أمن الدولة عبر البريد، لا تريد أن تخضع لأي تحقيقات لا يمكنها أن تضمن كيف ستنتهي، ولا تريد إلحاق الأذى بأسرتها كذلك فربما تجد نفسها متهمة أو معتقلة هي الأخرى في ظل الجنون السائد في هذه الأيام، فتحت الرسالة التي كانت طويلة هذه المرة على غير العادة وقرأت فيها:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحياتي من دار الإسلام، أنا الآن بفضل الله وتأييده لعباده المجاهدين مواطن في الدولة الإسلامية، امبارح بس استلمت جواز سفري الجديد وبقيت منتمي رسميًّا للدولة، هبعتلك صورته بعدين، إحنا عايشين هنا تحت راية الإسلام وتحت حكم الله وشريعته، كل اللي كنت بحلم بيه لقيته هنا، إخوة مؤمنين عايشين في عزة وتمكين، نصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم، فتح الله علينا بلاد واسعة وأطعمنا من خيرها وسقانا من بركاتها، إحنا في بلاد الشام بنجاهد في سبيل الله وبنفتح المدن واحدة ورا التانية ونغنم غنائم وفيرة بفضل لله، الخير هنا كتير، غنمنا بيوت وأموال ومزارع الكفار والمرتدين والنصارى اللي ربنا أظهرنا عليهم وأورثنا نساءهم وأموالهم، أنا غنمت سبايا كتير والحمد لله لكن أنا لسه على الوعد اللي بيننا، أنا رتبت كل حاجة مع الإخوة هنا ومع إخواننا في ولاية سيناء، كل اللي

عليكي انك تتصلي بالرقم ده بس من تليفون في الشارع عشان محدش يتتبعك، وما تكتبيش الرقم على أي ورقة، هتقابلك واحدة من الأخوات وتوصلك للمجاهدين في العريش وهما هيوصلوكي هنا بطريقتهم، متاخديش معاكي أي حاجة وخصوصًا الموبايل، تقفليه خالص وتسيبيه في البيت، وتقفلي حسابك على فيسبوك نهائيًّا، ولا تاخدي بطاقة شخصية ولا جواز سفر ولا حتى فلوس ولا هدوم، مش هتحتاجي أي حاجة من دي بفضل الله ثم بمساعدة الإخوة المجاهدين، أول ما توصلي هنا بإذن الله هنتجوز وتعيشي في بيت كبير بدورين وقدامه جنينة بتطل على نهر الفرات، وهيكون عندك جاريتين من السبايا اللي غنمتهم، هتعيشي أميرة ومش هتحتاجي لحد بعد ربنا سبحانه وتعالى ما أورثنا الأرض بفضله وكرمه، رقم التليفون ده هتتصلي بيه، لا هتقولي لها اسمك ولا هتعرفي اسمها، أول ما الخط يتفتح تقري خواتيم سورة آل عمران من أول ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، لازم تحفظيها كويس بالله عليكي عشان دي العلامة اللي هتعرفك بيها الأخت وهي هتقولك إزاي تتقابـــ..

قطع عليها استرسالها في قراءة الرسالة التي كانت قد ألجمتها تمامًا صوت جاء من خلفها يقول في نبرة خطابية تعرفها جيدًا:

– لو ممكن بس أختنا تنقل جنب الحاجة اللي في الصف ده يكون أكرم لها وأَغضّ لبصر الرجال.

التفتت لتتبين الأمر ولم تزل تحت وطأة صدمتها مما قرأت فإذا بها تجد شابًّا ذكّرها على الفور به، نفس هيئته وذقنه عندما كانت خفيفة وجلبابه الأبيض وعود السواك في جيبه، لبثت جامدة لحظات قليلة كأنما تفكر في رد فعل مناسب ثم قالت:

- إنت بتكلمني؟

أجاب وهو يتصنع غض البصر ولا ينظر إليها:

- أيوة يا أختي بالله عليكي لإن الاختلاط ده منهي عنه والأحسن انك تتفضلي تقعدي جنـ..

قاطعته بلهجة هادئة لكنها شديدة الحزم:

- خليك في حالك!

ثم أخرجت من حقيبة يدها سماعات الأذن ووضعتها في أذنيها من تحت الحجاب، لم توصلها أصلًا بهاتفها المحمول، ظلت فقط تحدق إلى شاشة هاتفها غير قادرة على التفكير، غير قادرة على البكاء، غير قادرة على الفرار من كل ذلك الجحيم.

(١٠)

يناير ٢٠١١

لم يكن ذلك الصباح مختلفًا في قليل أو كثير عن صباحاتها المعتادة، صارت كل صباحاتها متطابقة منذ حلت على رأسها تلك المصيبة، تستيقظ مع أذان الفجر لتبدأ ماراثونها اليومي المتكرر، ترتدي أحد جلبابيها الأسودين اللذين تُبدِّل بينهما وتضع على رأسها خمارها البني أو الأزرق وتسرع إلى المخبز القريب لتلحق بموعد خروج أول دفعة من الأرغفة الساخنة الطازجة – والرخيصة وهذا هو الأهم – لتحمل عددًا كبيرًا منها على شبكة من الجريد فوق رأسها، كانت قد حصلت على امتياز تخصيص هذه الكمية الكبيرة لها بعد سنوات من العلاقة الوطيدة مع إدارة المخبز وزبائن الفجر الذين يشبهونها جميعهم، يشبهونها في المظهر، وفي الفقر، وفي حجم الهموم الذي تحمله على كتفيها، يحوّل الفقر والشقاء وجوه البشر إلى نسخ متشابهة، لم تبلغ

الأربعين بعد، لكنها تبدو للوهلة الأولى في الستين، كثيرات من سيدات البيوت اللاتي تعمل لديهنّ كنّ يتفاجأن بعد شيء من التمعن في وجهها كعادة النساء بلون عينيها المائل إلى الخضرة، وبقسماتها المليحة المختبئة وراء قناع رقيق من تجاعيد الشقاء ولفحات الشمس وغبار الشوارع، حتى هي نفسها لم تعد تتذكر ملامحها القديمة ولا الضفائر الملساء الطويلة التي كانت لها يومًا.

تعود إلى المنزل وتبدأ في تقطيع أرغفة الخبز إلى أنصاف، وفي تخريط كومة كبيرة من الطماطم والخيار إلى شرائح رقيقة ثم تبدأ في صناعة سندوتشات الجبن الأبيض والبيض المسلوق والفول والمربى وترص شرائح الطماطم والخيار بداخها ثم تغلفها في أوراق صحف تحصل عليها كل فترة من زوجة رجل ما زال يقرأ الصحف اليومية بانتظام في أحد البيوت التي تعمل بها، ثم تُخرج من الثلاجة القديمة بحرص شديد علبة بلاستيكية تحوي بضاعتها الأثمن، قليلًا من الجبن الرومي واللحم المقدد المقطع بعناية إلى شرائح رقيقة جدًّا لتصنع منها عددًا أقل من السندوتشات المتميزة، وتُغلِّفها في ورق مجلات مصقولة ليسهل التعرف إليها، تضع كل صنف من السندوتشات في كيس بلاستيكي منفصل ثم تُرصُّ الأكياس كلها في حقيبة قماشية وتضعها بجانب الباب، ثم توقظ أبناءها الأربعة ليذهب الولدان الكبيران إلى

المقهى حيث ينتظران النقاش الذي يعملان معه باليومية، وتذهب البنت الوحيدة إلى مدرستها التي تبعُد مسيرة نصف ساعة، ويبقى الولد الأصغر الذي لم يتجاوز السادسة معها، تُكرِّر إلحاحها عليهم ليستيقظوا، وتعيد ككل الأمهات وهي تعدّ طعام فطورهم نفس عبارات التوبيخ اليومية عن التلفزيون الذي يسهرون أمامه حتى "أتلف أملهم" وأضعف أبصارهم، فلم يعودوا قادرين على الاستيقاظ لمراعاة أكل عيشهم ودراستهم، وبعد أن يغادر الجميع باستثناء الطفل الأصغر تجرُّه من يده وتلتقط الحقيبة القماشية، وتغادر هي الأخرى مع بزوغ شمس الصباح.

تصل إلى بوابة الجامعة، تترك طفلها على الرصيف وتتجه إلى الداخل، يعرفها أفراد الحرس منذ سنوات فيسمحون لها بالدخول، تعرف طريقها إلى كافيتريا كلية الحقوق، تمرُّ أمام الدرج الرخامي الكبير عند مدخل الكلية الرئيسي فتلمح تلك الفتاة المحجبة والشاب الذي يجلس معها كل يوم، لاحظت مؤخرًا تحوُّلات سريعة على هيئته، كان منذ شهور شابًّا عاديًّا كبقية زملائه لا يمكنها تمييزه من بينهم، ثم بدأ يطلق لحيته، ويهمل في مظهره حتى صار يرتدي تلك البنطلونات القصيرة التي تبدو كأنه استعارها من أخ أصغر له، حتى الفتاة لم تعد ترتدي سوى هذه العباءات الدكناء كالعجائز، ربما ستمرُّ ذات نهار لتجدها وقد أخفت وجهها كما باتت تفعل الكثيرات

هذه الأيام دون أن تعرف سببًا لذلك، لكنها لا تهتم، ليس لديها الوقت ولا الطاقة لتهتم لأمر أحد فيكفيها ما فيها، تكمل طريقها إلى كافيتريا الكلية عبر المدخل الخلفي للمبنى، ثم تخرج الأكياس البلاستيكية من الحقيبة القماشية وتناولها للعامل العجوز الذي يعدّ اللفافات التي بداخل كل كيس ثم يناولها أوراقًا قليلة من النقود تعدّها بدورها ثم تدسّها في كيس نقود صغير تُخبِّئه في صدرها وتطوي الحقيبة القماشية وتحكم وضعها تحت إبطها، ثم تعود أدراجها إلى الخارج حيث تلتقط يد طفلها الجالس على الرصيف في خمول وإعياء واضحين، وتمضي بخطوات ثابتة في اتجاه الكوبري الكبير العابر للنيل.

تصل إلى مستشفى سرطان الأطفال على الجانب الآخر من النهر أمام السور الحجري الضخم ذي الأقواس المتكررة الذي لا تعلم عنه شيئًا إلا اسمه الذي يتداوله الناس، لا تعرف أي عيون تلك التي سموه على اسمها، ربما بناهُ سلطان عاشق قربانًا لعيني محبوبته في زمن غير الزمن، ليس لديها الوقت ولا الطاقة لتسأل، توقفت قليلًا لتلتقط أنفاسها، وأنزلت ابنها الذي كانت تحمله على صدرها لأكثر من منتصف الطريق من الجامعة الذي قطعته سيرًا على قدميها فيما يُقارب الساعة، لا يستطيع الطفل الهزيل احتمال مشقة السير لهذه المسافة المرهقة فتضطر لحمله، أخرجت زجاجة مياه بلاستيكية

مستعملة من كيس أسود كانت تحمله وسقت طفلها بعض الماء ثم شربت واتجها معًا إلى الكرة الزجاجية الضخمة التي تقع أسفلها بوابة المستشفى، بوابة الأمل.

كانت المستشفى جزءًا رئيسيًّا من برنامج حياتها اليومي منذ ما يُقارب السنة، كانت تأتي بولدها كل يومين ليتلَّقى جرعة علاج مجانية، كانت قد شاهدت إعلان المستشفى على شاشة التلفزيون بعد أن أعياها التردد على مستشفيات العاصمة كلها بحثًا عن علاج رخيص للصغير الذي نهش المرض جسده الذي كان هزيلًا من سوء التغذية قبل المرض، صارت تحفظ أروقة تلك المستشفى وأركانها، وتعرف جميع الأطباء وطاقم التمريض والعمال والموظفين بالاسم، حاولت ذات مرة فتح باب جديد للرزق عبر كافيتريا المستشفى، فعرضتْ عليهم تزويدهم بالسندوتشات، وتباهت بخبرتها الطويلة في هذا المجال، وبعميلها الأكبر وهو كافيتريا كلية الحقوق، كانت تحمل سيرة ذاتية وأعمال سابقة من طراز فريد، لكن الموظفين رفضوا بحزم شديد مجرد مناقشة المبدأ، لم تقنعها الأسباب التي برروا بها رفضهم، فلماذا سيرفض الأطباء والإدارة دخول مأكولات من الخارج؟ هل يصنعون الجبن والفول بأنفسهم في هذا المستشفى؟ هل يوجد مخبز بلدي في مكان ما بالداخل؟ يمكنها أن تفهم أن للمرضى طعامًا خاصًّا كما جربت عندما

أجرت جراحة في أمعائها استدعت المبيت ليلتين بقصر العيني منذ سنوات، لكن ألا يأكل زوار المرضى ومرافقوهم؟ لا شك أن قريبة ما لأحد هؤلاء العاملين هي من تُورِّد السندويتشات للكافيتريا، ولا يريد هؤلاء الخبثاء أن تُقاسمهم لقمة عيشهم، فكل شيء في هذا البلد تسيّره الواسطة، هي نفسها لم تكن لتحظى بامتياز توريد السندوتشات لكافيتريا كلية الحقوق إلا بمساعدة زملاء زوجها الراحل الذي كان عاملًا بالكلية، لكن لا بأس، فليبارك الله في رزق من تورّد لهم السندوتشات أيًّا كانت، لعلها تحتاج لتلك القروش أكثر منها، لعل لها ابنًا مريضًا هي الأخرى، سيفتح عليها الله باب رزق آخر لا محالة، فهو الذي يطعم الطير في السماء، والنمل في الجحور، ولن ينسى عِبادَه.

كانت مؤمنة حقًّا، وكان يقينها بالله كاملًا، لم تطلب إحسانًا من مخلوقٍ قط رغم وصولها أكثر مرة لدرجة عدم القدرة على مجرد توفير وجبة طعام لأطفالها، كانت على ثقة تامة بأن الرزق بيد الرزاق لا سواه، وأن عليها فقط السعي إليه، لم تلتحق بالمدرسة في صِغرها، ولم تتعلم القراءة، لكنها حفظت الكثير من قصار سور القرآن سماعيًّا بفضل الراديو الصغير الذي تضعه في مطبخها مثبتة مؤشره دائمًا على إذاعة القرآن الكريم، كانت تقضي أيام الجمعة حيث تغلق الجامعة أبوابها – إن لم تطلبها إحدى زبوناتها لتنظيف شقة أو

رعاية أطفال أو طبخ المحشي والممبار اللذين تشتهر بهما – في التنقل بين أضرحة آل البيت التي حفظت أماكنها في مختلف أرجاء العاصمة، تذهب لتدعو الله مُتوسلةً ببركتهم، كانت تدرك جيدًا أن الأمر كله بيد الله، لكنها كانت تحب آل البيت وخاصة النساء منهم وتحب الدعاء في حضرتهن، كانت تحب تلك الألقاب التي يلقبهن بها مريدوهن، مدد يا ست يا طاهرة، مدد يا نفيسة العلوم، مدد يا رئيسة الديوان، مدد يا أم العواجز، مدد يا أم هاشم، مدد يا ست فاطنة يا نبوية، مدد يا ست عيشة، كانت تجد راحةً كبيرة عندما تلقي بحمولها على أعتاب النساء الطاهرات، نساء بيت النبي اللاتي يحفظ الله هذه البلاد ببركة دعائهن لها، كانت تشمئز من أولئك الأجلاف غلاظ القلوب الذين كانوا يأتون في جماعات ليردعوا النسوة الملتجئات إلى أضرحة آل البيت، وكانت تحفظ عن ظهر قلب دعاء السيدة زينب الذي سمعته من أحد المريدين في مولدها:

– "يا أهل مصر، نصرتمونا نصركم الله، وآويتمونا آواكم الله، وأعنتمونا أعانكم الله، وجعل لكم من كل مصيبة فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا".

كانت تردد هذا الدعاء فتسيل دموعها وهي تقول:

– مدد يا أم العواجز.

جاءت إلى العاصمة مغادرة لأول مرة قريتها النائية على أطراف الدلتا قبل ما يقارب العشرين عامًا، غادرت مع زوجها العامل بكلية الحقوق الذي عاد إلى قريته ليتزوج بها فتاة تعرفها أمه وتثقُ بحسن تربيتها ويعرف هو أهلها ونسبها، أقاما في شقة صغيرة في حي على أطراف العاصمة كان وقتها جديدًا وإن بدا فقيرًا إلا أنها أَلِفتْهُ، وأحبَّت الحياة في هذه المدينة الضخمة المزدحمة التي لا يهدأ صخبُها ولا تخبو أنوارها، كانت معيشتهما متقشفة مع دخل الزوج الضئيل الذي حاولا تعويضه بالتقاط ما يُلقي به القدر أمام أيٍّ منهما من قروش قليلة عن طريق أي عمل طالما كان شريفًا، بدأت تستغل مهاراتها كفلَّاحةٍ أصيلة في إعداد أصناف المأكولات الدَّسمة للنساء العاملات اللاتي لا يجدن وقتًا لذلك العمل المُجهِد، ولا يعرفن أسرار "النَّفَس" الفلاحي في الطبخ، وعمل الرجل في أحد المطاعم الشعبية القريبة في الفترة المسائية، يقضي المساء كله في تخريط البصل والخضراوات وفي غسل الصحون وتنظيف المطبخ ثم يعود منهكًا ليلحق بسويعات قليلة من النوم قبل أن يستيقظ مبكرًا لأداء وظيفته الأصلية كعامل في كلية الحقوق، يكنس المدرجات الضخمة والأروقة ذات الأرضية الرخامية، ويمسح الغبار عن مكاتب الأساتذة، ويصنع لكل منهم قهوته المفضلة، كان قد حفظ تمامًا كمية السكر التي يفضلها كل من الأستاذة الكبار في قهوته ودرجة تركيزها والكوب أو القدح

الذي يخصه، بل موعد وصول كل منهم إلى مكتبه وتوقيتات محاضراته في كل يوم، وهل يفضل تناول القهوة في مكتبه ليدخن سيجارة قبل الدخول إلى المدرج أم يفضل تناولها في أثناء إلقائه للمحاضرة، كان الرجل مجتهدًا ونشيطًا وحريصًا على إتقان عمله حتى ولو كان بسيطًا، حتى ولو لم يتلقَّ تقديرًا يناسب تفانيه، حتى ولو لم ينتبه إلى وجوده أو يذكر اسمه أيٌّ من الذين يحفظون أسماء أعلام القانون ورجال العدالة وتاريخهم الذين يصنع قهوتهم كل صباح، عاش الرجل عمره القصير على هامش الحياة، ثم رحل فجأة، صعقه سلك كهربائي مكشوف في مطبخ المطعم الشعبي وهو ينظف حوائطه المكسوّة بالسيراميك المبتل بالماء، لم ينتبه لغيابه أحد إلا عندما لاحظ بعض أساتذة الكلية اختلافًا ما في طعم قهوتهم أو في شكل الكوب الذي قُدمت إليهم فيه، عندما سأل بعضهم عن الرجل الذي يعرف كيف يصنع القهوة قيل لهم ببساطة: مات.

***

أدركتِ المرأةُ بفراستها الفِطرية من تعبيرات وجه الطبيبة الشابة التي تتابع حالة ابنها أن في نتيجة التحليل الذي تقرؤه شيئًا سيِّئًا، كانت الطبيبة تناقش نتائج التحاليل مع زميل لها يبدو أكبر سنًّا، ولم تفهم هي كلمة مما كانا يقولانه في جدية واضحة وبلغة لا تعرفها، عندما انتهيا وانصرف الطبيب

الكبير نظرت الأم إلى الطبيبة بتوسُّلٍ وهي تُغالِبُ دموعها لكي تحافظ على ثباتها أمام الصغير، فقد كان مما تعلمته من طول ترددها على المستشفى ومن نصائح الأطباء أن لحالة المريض النفسية أثرًا عظيمًا على كفاءة العلاج، كانت الطبيبة واجمة، وكانت الأم تدرك أن وراء هذا الوجوم خطبًا كبيرًا، فقد كانت تعرف أن تلك الطبيبة خاصة اعتادت أن تُخفي انفعالاتها، وأن تبدو دائمًا متفائلة ومرحة أيًّا كان وضع الحالة التي تتابعها، تبادلتا نظرات جَزِعَةً، ثم قالت الطبيبة باقتضاب وهي تهمُّ بالمغادرة وكأنها تهرب من الموقف:

– هنحتاج أشعة وتحاليل تانية، ماتقلقيش كل ده مجاني بس الولد هيستنى معانا كام يوم، بعد إذنك عشان معايا حالة مستعجلة.

كانت قد أدركت بغريزة الأم تدهور حالة صغيرها زيارةً بعد زيارة، كانت تلاحظ شحوب وجهِه وهُزاله وإعيائه الدائم حتى انقطع عن اللعب مع الأطفال أمام البيت كما كان يحب، في المرة السابقة فقد وعيه وهو يسير معها على الكوبري العابر للنيل في الطريق إلى المستشفى، وفي هذه المرة لم يقوَ على السير عشر دقائق رغم أن الجو كان لطيفًا، جاءت الممرضة ذات الوجه البشوش التي تعرفها وتعرف الولد وقادتهما بنفس ابتسامتها المبهجة إلى الغرفة التي سيُقيم بها الصغير، كان قد قضى فترة وجيزة في غرفة مشابهة في بداية علاجه قبل أن تسمح له الطبيبة بالعودة للمنزل بشرط الحضور كل

يومين لتلقي جرعات العلاج، كان الطفل صامتًا، لا تعرف إن كان ذلك وهنًا أم يأسًا أم شجاعة، كانت هي الأخرى صامتة، لكنها كانت تعرف أن دافع صمتها ذاك هو الخوف.

مرت الأيام التالية بطيئة وقاسية، كانت الليالي باردة والصباحات مُقبِضة، خيّم الموت على المكان وحلَّقت أرواح ثلاثة من الصغار خارجة من أجسادهم الضئيلة العليلة كأنها طيور مُلوَّنة تنطلق إلى فضاء الحرية بعد طول حبس داخل قفص ضيق، كانت الأمهات تتبادلن المواساة فيما بينهنّ وكأن كل طفل تغادر روحه جسده هو ابنهنّ كلهنّ بالتساوي، وحّدت قسوة المحنة بينهنّ، فصرن كيانًا واحدًا، يصرخ طفل من فرط آلامه فتُهرع إليه كل النسوة، يتعافى صغير ويخرج إلى بيته فتُطلق كل الأمهات الزغاريد، لكن عندما تُظلِمُ السماء، وتشتدُّ بُرودة الليل ووحشته كانت كل أم تحتضن صغيرها بكل جوارحها، كأنما تُعيده إلى داخل أحشائها جنينًا لعل ذلك يحميه من هجمات الألم الشرسة، يغفو الجميع، حتى الصغار يُنهكهم الألم فيرحمهم الله بشيء من الوسن، وتبقى الأمهات وحدهنّ، تظل عيونهنّ معلقة بأبواب السماء لعلها تُفتح لدعائهنّ في ساعة مباركة، لا تنقطع ابتهالاتهنّ ولا تجف دموعهنّ، يقضّ مضاجعهنّ انتظار المجهول، ترتعد كل أم من هاجس أن

يكون صغيرها هو من سيُنقل جسده غدًا إلى ذلك القبو البارد المخيف حيث توجد ثلاجة الموتى.

كان التوتر يسود في الخارج، مظاهرات تعم البلاد وصدام مع الشرطة وانفلات أمني كامل، مرّ على وجودها وصغيرها في المستشفى أسبوعان، وما تزال حالة الطفل تتدهور يومًا عن يوم، استطاعت أخيرًا أن تطمئن على بقية أبنائها عبر اتصالها من هاتف المستشفى بهاتف منزل جيران لهم بعد أن ظلت أيامًا لا تعلم عنهم شيئًا، جربت الاتصال بهاتف ابنها المحمول مئات المرات من هواتف أمهات وطبيبات لم تكن أيها تلتقط أي شبكة، هطلت دموعها كالمطر مع سماع صوت ابنها أخيرًا، أوصته وأخاه برعاية أُختهما وعدم السماح لها بالخروج في هذه الظروف، قالت إنها ستتصل بهم لو حدث شيء، ثم توقفت فجأة كأنها انتبهت إلى خطأ ما ثم استدركت بأنها ستتصل بهم عندما يسمح الأطباء لأخيهم الأصغر بالخروج، أغلقت الخط وراحت في نوبة بكاء طويلة.

تهادت إلى أسماع الأمهات المجتمعات في غرفة الاستراحة أصوات هتافات مسيرة كانت تمرُّ من أمام المستشفى مطالبة بسقوط النظام وبمحاكمة رئيس الجمهورية وأركان نظامه، قالت إحداهنّ بأسى شديد:

– إلهي يقعد له في عياله ويشوف فيهم اللي شفناه في عيالنا.

ضربت أخرى على صدرها في جزع وهتفت:

– إستغفري الله يا شيخة حرام عليكي، محدش يتمنى اللي شفناه في عيالنا لحد، والعيال ذنبها إيه بس؟

قالت أخرى بتعجب وكأنها تذكّرهم:

– هو مش حفيده مات من سنة كده ولا حاجة؟ ربنا يصبّره.

ردت الأولى في غلّ واضح:

– آه ياختي مات في بلاد بره عشان راح يتعالج هناك، مش زيّنا.

ردت عليها باستنكار:

– ياختي وهو يفرق مات في بلاد بره ولا مات هنا؟ ما كله موت! احمدي ربنا اننا لاقيين مكان زي ده لعيالنا، ده لو مكانش المكان ده موجود كان زماننا شايلين الطين على دماغنا ودايرين بعيالنا على المستشفيات.

كانت تتابعهنَّ في صمت، ليس لديها الوقت ولا الطاقة لتهتم، لا تعرف شيئًا عن السياسة ولا تذكر رئيسًا غيره لتحكم عليه بالمقارنة، ولم تَرَ بلدًا آخر لتعرف هل يعيش كل البشر في مثل هذا البؤس أم ربما كان هناك من هم أشد بؤسًا، فكرت في حفيد الرئيس الذي كانت قد سمعت بموته من التلفزيون ورأت صورته ذات مرة مع جده العجوز في مباراة للكرة، كان تراه صبيًّا

جميلًا وبريئًا، تذكر أنها حزنت بشدة وقت إعلان وفاة ذلك الصبي، ليس تعاطفًا مع الجد لكن حسرة على الصغير الذي لم يكد يستنشق هواء الدنيا، وعلى أمه التي لا تعرفها، ولم تَرَ لها صورة من قبل، لكنها تعرف يقينًا أن قلبها قد انفطر.

خلعت الصرخة العالية قلوبهنّ، كانت قادمة من آخر الممر المقابل حيث تقع غرف إقامة الصغار، للحظة قصيرة تجمدن في مقاعدهنّ، ثم هُرعن إلى مصدر الصوت كجسد واحد، كانت إحدى الممرضات واقفة في حزن أمام باب الغرفة التي تضمُّ سرير ابنها، وفي الداخل كان ابنها ممددًا مغمض العينين ترتسم على وجهه ملامح سلامٍ تامٍّ، كان على شفتيه ما يُشبه ابتسامة ارتياح، وبجانب السرير كانت تقف ممرضة أخرى مطرقة في صمت، وبجانبها كانت إحدى الأمهات ما زالت تصرخُ وهي تلطُم وجهها.

خَطَتَ إلى داخل الغرفة ببطء، ودنت من صغيرها، حدّقت إلى وجهه لبرهة قصيرة، ثم مرّرت راحتي يديها على وجنتيه ورأسه كأنما تسجّل ملامحه في ذاكرتها، ثم قبّلت جبينه قبلة طويلة، وسقطت من عينها دمعة واحدة بللت جبهته، مسحت الدمعة بظاهر يدها وهي تعتدل واقفة ثم استدارت نحو الباب وخرجت في هدوء.

كانت قدماها تقودانها بطريقة لا إرادية، سارت في الممر الطويل وسط طابور من النساء المنتحبات دون أن تلتفت لأي منهن، هبطت الدرج بخطوات منتظمة وتخافت في أذنها تدريجيًّا صوت عويل النساء القادم من الطابق الأعلى، خطت بثبات نحو البوابة الرئيسية ثم خرجت منها إلى الشارع، كان النهار في طريقه للزوال، وقد غطّت العالم غلالة رقيقة بلون الشفق الأحمر جعلت الأشياء تبدو أكثر حزنًا، كانت المسيرة قد مرَّت، لكن مؤخرتها لم تزل مرئية على مسافة ليست ببعيدة، وجدت قدميها تأخذانها في اتجاه المسيرة، تمشي محدّقة إلى الفراغ أمامها بهدوء كتمثال فرعوني، لا تسمع شيئًا ولا يستوقفها شيء، لا تميّز الشوارع ولا تعرف وجهتها، فقط تسير بانتظام، هبط الظلام شيئًا فشيئًا حتى بدأ يبرز من بعيد ضجيج ورايات وأضواء، بدأت تصطدم بأشخاص وتسمع أصوات أنفاس وتتعثر في أشياء ملقاة على الأرض، عندما عاد لها إدراكها للمكان والزمان وجدت نفسها في قلب الميدان الفسيح، بدا الميدان لها واسعًا بشكل لم يسبق لها إدراكه، بدا الهواء منعشًا وبدت النجوم متألقة اللمعان، كانت تسمع بوضوح صوت ضحكات ابنها، كان يُقهقه في براءة مثلما كان يفعل عندما تدغدغ بطنه وصدره وهي تحمّمه، وعندما كان يشاهد القطط الصغيرة تلهو بجوار بيت جيرانهم، ظل الصوت يرنّ في أذنها برهةً ثم بدأ في الخفوت، وبدأت تحتلُّ مكانه أصوات

هتافات الميدان حتى اختفى تمامًا، عندها، عند هذه اللحظة فقط نظرت إلى السماء ورفعت يديها ثم هوت بكفيها على خديها بقوة وصرخت:

- يا حبيبي يا بني.. يا ضنا امك يا حبيبي..

مَرَّ بجوارها رجلٌ مُسنٌّ سمين ذو قامة قصيرة ووجه أبيض وجبهة عريضة يتخبط في سيره وسط الميدان المزدحم، نظر الرجل نحوها بشفقة ولم يَقُلْ شيئًا، ثم أكمل سيره وتخبطه وسط الحشود، كان يسير بلا هدًى ولا يبدو كمن يعرف إلى أين هو ذاهب، يمضي فقط كيفما تأخذه خطواته، يقلّب بصره في الوجوه العابرة ويتفحص الجالسين كمن يبحث عن شيء ما، تتفصّد حبات العرق من جبهته البيضاء العريضة وصلعته الكبيرة رغم برودة الليلة الشتوية، يرتفع صدره ويهبط حين يتنفس بصعوبة تعود لسمنته البادية ولشيخوخته، كان يحمل صورة صغيرة في يده يُطلع المارة والجالسين عليها في توسُّلٍ ثم ينصرف كاظمًا خيبة أمل قاتلة وحسرة عميقة.

(١١)

يناير ٢٠١١

اكتمل المشهد الآن، لا يمكنه أن يصبح أكثر اكتمالًا، اكتظّت أركان الميدان الفسيح بمئات الآلاف من المتظاهرين والمعتصمين، بات المشهد مثاليًّا لالتقاط صورة أيقونية تتصدر أغلفة الصحف والمجلات، المحلية منها والإقليمية، بل العالمية أيضًا، فبمثل هذه الأعداد ستكون تلك الصورة بالتأكيد محل اهتمام وسائل الإعلام العالمية، لا يمكن أن يتجاهل العالم وجود هذه الأعداد الهائلة من البشر في صورة واحدة، الآن فقط يمكن لهذه الحشود أن تصبح مؤثرة، الآن فقط يمكنها أن تفرض تغييرًا ما، هذه بالتأكيد هي ذروة النجاح، هذه هي النتيجة التي حلم بها المخرج، بل إنها ربما تجاوزت أحلامه.

***

يقرّب المصور عدسته تدريجيًّا في بطء ليقترب من الحشود، كلما اقتربت عدسة الكاميرا ظهرت تفاصيل أكثر، على هذا الوضع يمكن للمشاهد تمييز الكتل البشرية عن بعضها وقراءة ما كُتب بخطٍّ كبير على بعض اللافتات، مع ازدياد الاقتراب التدريجي يمكن تمييز الرجال عن النساء، ويمكن اكتشاف وجود الكثير من الأطفال كذلك، مع وصول العدسة لحدّها الأقصى من التقريب تتّضح ملامح البشر، هذا رجل أربعيني أنيق يرتدي معطفًا ثقيلًا، ويلفّ كوفية من الصوف حول عنقه، ويهتف بحماسة شديدة، وهناك بجانب مدخل محطة المترو يجلس رجل مسن سمين قصير القامة وقد خلع نظارته السميكة، وأطبق يده على ورقة ما وبدا عليه الإجهاد الشديد، وعلى قائم إشارة المرور المطفأة يستند رجل طويل القامة ذو شيب خفيف على مقدمة جبهته متأملًا الحشود الداخلة إلى الميدان بابتسامة حالمة، وتلك سيدة بسيطة في جلباب أسود وخمار بني تجلس على الأرض ممسكة رأسها بيديها، أما على حافة الميدان فتجد حلقة من الشباب والبنات مسندين ظهورهم إلى جدار مبنى قديم يغنّون ويصفقون، وقرب السور الحديدي للمتحف العتيق يمكنك تمييز مجموعة من الشباب من ذوي اللحى الخفيفة يتهازحون، وهذا شابٌّ يحمل لافتة طريفة، وهذا بائع شاي متجول، ومن خلفه أسرة كاملة من رجل ضخم الجسم يحمل فوق كتفه طفلة صغيرة، ويمسك بإحدى يديه

يد سيدة محجبة قصيرة القامة تجرُّ بدورها طفلة أكبر من الأولى بقليل، وباليد الأخرى صبيين متقاربي العمر، وبائع أعلام، وبنات كثيرات، ومجموعة شباب ذوو شعور طويلة مجعدة، وثلاث سيدات منتقبات، وسيدة عجوز محنية الظهر تضع على كتفيها شالًا من الصوف المشغول يدويًّا، وشباب صغار ينصبون الخيام، ومعممون في زي أزهري، وشابة محجبة تضمد جراح رجل مصاب، وشاب مشغول بتصوير المشهد بهاتفه المحمول، وآخرون يصوّر بعضهم بعضًا رافعين علامة النصر، وراهبتان في زي كنسي رمادي، وأطفال تائهون، وشباب يحملون أكياسًا كبيرة مرصوصًا بداخلها عبوات طعام ما، وشابة تُوزِّع زجاجات الميـاه، ورجال ذوو لحى طويلة وأجساد ضخمة في جلابيب بيضاء قصيرة، وشاب يعزف على جيتار وحوله دائرة من المتابعـــ..

ينتبه المصور على الصوت الذي جاء متحمسًا رغم إجهاده الواضح:

- وسّع اللقطة شوية بس ماتخرجش عن حدود الميدان، ماتطلّعش المساحات الفاضية في الكادر، عايز الشاشة كلها ناس.

***

لقطة واسعة من نقطة مرتفعة تُبرز الحشود المتجمعة في الميدان، أعلام كثيرة ولافتات مختلفة الأحجام والأشكال، كتلة بشرية ضخمة لا تظهر لها نهاية، وأصوات هتافات ونداءات متقاطعة مختلطة لا يمكنك تمييز أيٍّ منها بوضوح، كانت تلك الكتلة تشكل لوحة ضخمة من رؤوس بلا وجوه، بلا ملامح، بلا أسماء، مجرد عدد، وفي بلد يقترب من مليونه المائة ليست للأعداد تلك الأهمية الكبيرة.

ترتفع الكاميرا أكثر وتتعالى الأصوات في الخلفية:

- الشـــعب .. يريـــد .. إســـقاط النظـــام..

يصيح الصوت في السماعة بانفعال:

- ميكساج.. دخّل صوت الشريط التاني، الكاميرات تثبت على الكادر ده.

يخفت قليلًا صوت الميدان ويتداخل معه بالتدريج صوت رخيم، عجوز وبادي الإرهاق، صوت مهزوم لكنه يحمل صلابة فطرية:

- إن هذا الوطن العزيز هو وطني مثلما هو وطن كل مصري ومصرية، فيه عشت، وحاربت من أجله، ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه، وعلى أرضه أموت..

يتداخل معه صوت الميدان، يتقاطع الصوتان ويتزاحمان كما لو كان كلٌّ منهما يريد إزاحة الثاني عن المشهد:

- الشـــعب .. يريـــد .. إســـقاط النظـــام..

- وسيحكم التاريخ عليّ وعلى غيري بما لنا أو علينا، إن الوطن باقٍ والأشخاص زائلون، ومصر العريقة هي الخالدة أبدًا، تنتقل رايتها وأمانتها بين سواعد أبنائها، وعلينا أن نضمن تحقيق ذلك بعزة ورفعة وكرامة، جيلًا بعد جيل.

- الشـــعب .. يريـــد .. إســـقاط النظـــام..

- حفظ الله هذا الوطن وشعبه.

- الشـــعب .. يريـــد .. إســـقاط النظـــام..

يأتي الصوت في السماعة مبتهجًا هذه المرة، يصيح في ارتياح من أنجز بنجاح مهمة صعبة:

- Cut.. هايل يا شباب.. عشر دقايق راحة وبعدين نجهز بالجِمال والحِصِنة عشان المشهد الجاي.

***

"أيًّا تكون نوعية الأفراد الذين يشكلون الجمهور، وأيًّا يكون نمط حياتهم متشابهًا أو مختلفًا، وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكاؤهم، فإن مجرد تحوُّلهم إلى جمهور يزوّدهم بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسّون ويفكرون بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولًا، إن الجمهور هو كائن مؤقت مُؤلَّف من عناصر متنافرة، ولكنها مُتراصَّة الصفوفِ لحظةً من الزمن"

من كتاب سيكولوجية الجماهير – جوستاف لوبون – ١٨٩٥

(تمت)

عن المؤلف

دبي – أبريل ٢٠١٧

حسين مهران، معماري مصري من مواليد الإسكندرية عام ١٩٧٥، حاصل على بكالوريوس الهندسة المعمارية من كلية الهندسة جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٨، مهتم بمجالات العمارة والتصميم المستدام، وبالقراءة النقدية للتاريخ والموروث الحضاري، وبمقارنة سمات المجتمعات البشرية المختلفة بشكل عام، يكتب مقالات غير دورية على مدونته الخاصة، وهذا هو العمل الأدبي الأول الذي يُنشر له على نطاقٍ رسمي، تصدر له قريبًا رواية "هرطقات إجبارية".

http://www.HMahran.com

ask@hmahran.com